أنور الجندي



العودة إلى المنابع

(دائرة معارف إسلامية)

دار الاعتصام



العودة إلى المنابع

العودة إلى المنابع تعنى الاستمداد من المصدر الأول الأكبر والأكمل : « القرآن والسنة » بحيث لا تستطيع تلك المطروحات الوافدة أن تحجب هذه الرابطة الأصيلة بين المسلمين وبين مصادرهم الربانية القرآنية التي حملها اليهم سيدنا رسول الله فهداهم بها إلى الضياء والنور وأخرجهم من ظلمات الوثنية والمادية والإباحية : العودة إلى المنابع تعنى الأصالة والخروج من التبعية والولاء الأجنبي الوافد تحت بريق العصرية وأهواء النفس ومطامع الحياة .

ولقد كان الإسلام قادراً دائماً على امتلاك إرادته دون أى إغراء باقتحامه أو احتوائه ، مهما كان على قدر من الضعف فى بعض المراحل ، وكان قادراً على تجديد نفسه من الداخل بارادته الذاتيـــة . فقد أعطاهم القرآن تلك القوة القادرة على المحافظة على الذاتية ومواجهة التحديات ، وخاصة التحدى الحضارى الأجنبى ، وفى كل الأزمات كانت كلمة الله هى المصدر الأول والضابط الوحيد لكل تحركات أو خطوات .

وكان المسلمون على وعى بأن الحلول الوافدة لا تستطيع أن تحقق شيئا ، بل إنها أشبه بقتل الشعوب بغير إطلاق الرصاص ، وأن الاقتباس من الآخرين قد يؤدى إلى نقل النواقص التى يشكو منها المفكرون فى تلك البلاد ، هذه النقائص التى تصبح أشد ضرراً عند ما تنتقل إلى حضارة أخرى .

ولما كانت هناك مهمة خطيرة للدعاة إلى الله فى هذا الصدد ، هى مهمة تحرير البشرية من الجاهليات التى كانت تتحكم فى رقاب الناس ، هذه هى المهمة التى أخذها

الجيل القرآنى الأول على عاتقه حتى أنه لم يمضى على اختيار الرسول للرفيق الأعلى قرن واحد حتى كانت جحافل المسلمين تقف وراء السهول الفرنسية الواسعة

ولقد كان على المسلمين أن يواجهوا حروبا مدمرة ومريرة لا يخلصون من واحدة حتى يستعدون للأخرى حتى أصبحت مهمتهم الاولى أن يحافظوا على كيانهم ووجودهم قبل أن يطوروا علومهم وثقافتهم ، وكما كانت الأفكار المسمومة التى دخلت إلى المسلمين بترجمة الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية مقدمة للحروب الصليبية وهجوم التتار ، فقد كانت الأفكار المسمومة التى دخلت إلى المسلمين فى العصر الحديث من الغرب والصهيونية والشيوعية مقدمة للهزيمة والنكبة والنكسة التى انتهت بسقوط بيت المقدس فى أيدى الصهيونية ١٩٦٧ وهى أشبه بسقوط بغداد فى يد هولاكو وبيت المقدس فى أيدى الصليبيين ولا بد من الخروج من الأزمة على نفس الأسلوب الذى اتخذه المسلمون فى الجولة الأولى وهو (العودة إلى المنابع) ، وهذا يستدعى ضرورة فهم القانون الأساسى للحركة والتطور وهو قانون مترابط بين عنصر الثبات وعنصر الحركة ، بين القيم الأساسية والقيم المكتسبة ، بين الثبات والتغيير ، وأن علينا أن نحترس من ارتفاع صيحة التغيير المندفعة التى تحاول القضاء على الجوهر الثابت أو اتهام هذا الثبات بالجمود والمحافظة ولا بد من الحرص على الجوهر القائم الدائم ولا تزال أخطر الدعوات اليوم ، تلك الدعوة المسمومة إلى نبذ الماضى ، التاريخ ، التراث ، القديم ، وهى محاولة إلى هدم الاسلام من خلال عبارات غامضة رمزية ، والدعوة إلى تاريخ ما قبل الإسلام ، والأساطير ، والفلكلور ، كلها محاولات لهدم الإسلام من خلال دراسات لها طابع علمى ، وكذلك مهاجمة الشعر العربى والفصاحة العربية والخطابة .

ومن هنا فان علينا تأصيل القيم العليا التى أورثنا إياها الدين الحق والتى هى أساس وجودنا وقد وفدت على بلادنا حضارات عديدة ولكنها لم تستطع أن تقهر الارادة أو تمس الشخصية ، بل إن الإرادة الإسلامية قد احتوتها وصهرتها فى بوتقتها الأصيلة ، فالإرادة الإسلامية هى فوق كل إرادة وافدة ولن يستطيع

أحد أن يسقط الكيان الإسلامى الذاتى من حساباته ، ولكن المطلوب الآن هو امتلاك الإرادة وتحريرها .

إن الأصالة أساس والتقدم وجهة والمعاصرة حركة فى إطار الثوابت ، والإسلام لا يقر نظرية الغرب عن مفهوم روح العصر التى تحاول أن تخضع الثوابت للتغيير ، ويقر نظرية الحركة فى إطار ثابت هو إطار القيم الأساسية وأخطر التحديات فى وجه الأصالة هى إذابة المسلمين فى الفكر الأممى ، فنحن نقول نعم للعلم ولا للحضارة ونقبل الوسائل المستحدثة ولا نقبل الغايات ونعرف دورنا بعد أن عجز الفكر الغربى عن تحقيق الأمن النفسى أو اليقين العقلى ، كما عجز عن فهم حقيقة الإرادة الفردية والمسئولية الأخلاقية والجزاء الأخروى .

إن التيارات الوافدة والمؤثرات الأجنبية تعمل فى ميدانين فى وقت واحد :

(الأول) إفساد العقل الإسلامى والنفس الإسلامية بالإلحاد .

(الثانى) تدمير الأسرة والمجتمع الإسلامى بالإباحية .

ولا ريب أن التماس المنابع هو بمثابة حصانة الأصالة التى تحول دون دخول أى فكر مدمر أو إباحى أو وثنى ، كما يحول دون الانبهار بالفكر الوافد جملة ، وقد بهر شبابنا البريق الغربى وكان مصدر ذلك عدم وجود الحصانة من الفكر الإسلامى الأصيل فى نفس المسلم فليست الحضارة هى هذه المسارح والملاهى والملابس العارية والقصص الجنسية ، والسيارات الفارهة ، ولكن الحضارة هى القيم التى ترفع الإنسان إلى درجة الغيرية بدلا من الأنانيـــة ، والقوة والاعداد وحراسة الثغور والمرابطة على كلمة الله الحق وبناء المجتمع الإسلامى بروح الإيمان والعدل والرحمة ، فهذه هى الحضارة الإسلامية التى حررت الفرد من الوثنية والعبودية للفرد .

ومن مفهوم العودة إلى المنابع : التكامل بين أعماق القلب ومجرى الفكر ،

وتحرير الفكر من الأهواء والظن حيث تقوم الحياة على التعاون لا الصراع. فقد أوجد النفوذ الأجنبي ذلك الصراع والتناقض والالتباس بين الحق والباطل، وحاول أن يوجد صراعا بين العلم والدين، وبين القانون والشريعة وبين حقائق الإسلام وأباطيل الفكر الوافد. أو إثارة الالتباس بين العروبة والإسلام.

دين نظام ربانى أصيل نابع من خالق الكون والقادر على فهم الإنسان ووجهته، وبين منهج بشرى صنعته عقول، فيه الحق والباطل. فيه الفروض التى تنجح وتفشل.

وكذلك فقد كشفت العودة إلى المنابع خطأ النظرة إلى الإسلام على أنه فكرة قومية، أو أنه نشأ عن ظروف اجتماعية واقتصادية أو كان استجابة لظروف تاريخية معينة فهو رسالة ربانية.

لقد دخلت سموم كثيرة تحت اسم الفكر القومى والسياسى والاجتماعى وأصبحت كالمسلمات من طول ترديدها ولم يعد فى استطاعة الكثيرين كشف زيفها بل أصبح هناك من يدافع عنها ويتصدى لمن يعارضها.

لقد دفع الاستعمار والنفوذ الأجنبى والفكر التلمودى سموما كثيرة إلى الفكر الإسلامى تحت أسماء كثيرة: تحت اسم الفكر الحر واسم البهائية واسم الماسونية واسم العلمانية.

إن الخطر المحدق بالأمة الإسلامية لا يكمن فى السلاح الحديث الذى يمتلكه الأعداء والطائرات التى يتربص بها أو التفوق التكنولوجى أو الالكترونى الذى يحيط بها من كل جانب بقدر ما يكمن فى الغزو الفكرى أو العقائدى الذى يطلقه العدو على أفق الإسلام وقد جاءت الهزيمة والنكبة والنكسة.

ومن ذلك دعوات إلى نبذ الشكل العربى للكتابة والتشكيك فى قيمة الاسهام العربى

فى التراث والقول بأن التراث القديم يجب التخلص منه أو على الأقل التخفف منه حتى يمكن اللحاق بركب المدنية الغربية والقول بأن الحضارة الإسلامية لم تكن أكثر من جسر أو معبر عبرت عليه الحضارة اليونانية فى عصور سابقة إلى عصر النهضة ثم العصر الحديث .

لقد آن للعقلية الإسلامية أن تتحرر من استعباد الثقافات الغربية وتصحيح مادسته الشعوبية فى تاريخ الإسلام والعرب من سموم وتصحيح مفاهيم الأخلاق والنفس والاجتماع التى طرحتها نظريات دارون وفرويد وماركس .

وأن تؤمن بأن للاسلام مفاهيم أصيلة فى الفن (حول الأغنية والمسرحية والقصة والسينما والاذاعه) وله مفهوم فى الأدب (حول الروايات والقصص والشعر) وله مفاهيم فى الصحافة (حول الخبر والصورة وعرض الأحداث عرضا لخدمة الدعوة الإسلامية) وله مفاهيم فى الاجتماع (البغاء والخمر والقمار والمخدرات والتبرج) وله مفاهيم فى الأخلاق (ثوابت الأخلاق التى هى جزء من العقيدة واختلافها مع التقاليد) وفى التعليم (تعليم البنات والاختلاط) وله مفاهيم فى النفس والتربية وله مفاهيم فى المرأة والأسرة والعادات والملابس .

وللاسلام نظرته الحذرة إلى المصطلحات الغربية ، هذه الكلمات التى لا يمكن فصلها عن ملابساتها الفكرية التى تومىء اليها ولا يمكن نقلها كما تنقل ألفاظ المخترعات والعلوم ، كذلك فان الاسلام لا يقبل الاتجاه الفكرى الخطير الذى يريد أن يخضع نصوص القرآن والسنة إلى النظريات العلمية التى تتغير مفاهيمها أمام تقدم العلم ، إننا يجب أن نقاوم تلك الدعوة الموجهة إلى المسلمين فى هذه المرحلة وهى الدعوة إلى بث روح الاستسلام والسلبيــــة والهروب من صراع الحياة والدعوة إلى التراخى والتحلل والبحث عن السعادة فى برامج وافدة كبرنامج اليوجا أو الدعوة إلى وحدة الوجود والتبشير بالوثنية والفلسفة الهندوكية والبهائية ، إننا ندعو إلى النظر إلى ما وراء النصوص والكتابات .

ندعو إلى التفتح مع الأصالة ، ونطالب بتأصيل كل شيء ، تأصيل الفنون ، الآداب ، العلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

والمهم أن تتحرر الشخصية الإسلامية من التبعية بكل صورها وألوانها وأشكالها .

* * *

وبالجملة فان هناك ثلاث تحديات تواجه الفكر الإسلامى :

أولا : الجبرية الوافدة من مفاهيم التصوف الفلسفى .

ثانيا : التغريب القادم عن الفكر الوافد بمفاهيم العلمانية والوثنية والاباحية .

ثالثا : العوبية المتحركة من الداخل والتى تتمثل فى عمل أولياء التغريب والشيوعية ودعاة البهائية والقاديانية .

ومن هنا فان مهمة الداعى إلى الله فى هذا العصر ، أن يعيد الناس إلى المنابع ، إلى المفهوم الأصيل المستمد عن القرآن والسنة ، المفهوم الربانى ، وإنها لمهمة صعبة شديدة الصعوبة ولكنها ضرورية وفى حاجة إلى مثابرة واستمرار وتجرد ، بحيث لا يزاحمها فى عمل الداعى الاسلامى قضية أخرى ، وعليه أن يصل اليها عن كل طريق ، طريق الكتابة والحوار والحديث والمناقشة .

ولكن ليس معنى العودة إلى المنابع أن يكون هناك انغلاق أو جمود أو تخلف عن موكب الحياة وإنما أن يكون الداعية إلى الله ابن عصره فى الأسلوب والأداء ومعرفة أساليب المداخلة فى الحديث وكسب ثقة من يدعوهم إلى الله ، وأن يكون هو مثلا حقيقيا ونموذجا طيبا وأسوة حسنة ، إيمانا بأن الاسلام فى منابعه وأصوله قادر على مخاطبة كل العصور والبيئات ، لايتخلف عن الاستجابة للعصر ولا التقدم ولا للتجديد دون أن يفقد مقوماته الأساسية وثوابته فى القيم والحدود ، وأن

تجرى حركة التغيير داخل أطره الواسعة المرنة القادرة على الاستجابة مع كل تقدم تعرفه العصور والامم والبيئات وأبرز معنى لذلك هو :

١ — ثبات القيم وحدود الله تبارك وتعالى وثبات الاخلاق .

٢ — الإيمان بالله الواحد الأحد الحق الصانع لكل شىء والذى يدير هذا العالم كله لحظة بعد لحظة .

٣ — الإيمان بأن على الإنسان مسئولية أخلاقيـــة والتزاماً فرديا فى العمل لعمران الأرض وبناء المجتمع الربانى وأن عليه الاقرار بالجزاء الأخروى .



الباب الأول

شبهات التغريب

الفصل الأول

الأطروحة العلمانية

منذ أن طرحت النظرية العلمانية فى أفق المجتمعات الاسلامية كنظرية تفرضها القوى المسيطرة على بلاد المسلمين ، وهى تحاول أن تعمق وجودها ، بحيث تتلاشى معه الأصولية الاسلامية القائمة فى مجال الحكم والاقتصاد والاجماع والتربية والثقافة ، ومنذ أن طرحت هـذه النظرية وهى تلقى رفضا قاطعا من أعماق النفس الاسلامية لمعارضتها للروح الاسلامى الأصيل ، ولقد استطاعت حركة اليقظة الاسلامية أن تقف فى صلابة وقوة فى وجه زحف الأطروحة العلمانية وتكشف أخطائها وزيفها وتواجهها على نحو قلل كثيرا من خطرها ، وإن كانت المناهج التعليمية المغربة والمفرغة من روح الاسلام أنشأت أجيالا لا تعرف مفهوم الاسلام الأصيل الجامع بين الروح والمادة والعقل والقلب .

يقول الدكتور محمد البهى : لقد كان فى تطبيق العلمانية فى الاسلام من جانب العلمانيين المسلمين إبعاد للاسلام ، إلغاء لوجوده من كل جانب من جوانب الحياة عدا العلاقة الخاصة فى صلة المسلم بالله ، وعدا الأحوال الشخصية فى الأسرة فيبعد عن الدوائر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والتشريعية وعلى حسب هوى السياسة التى تقود المجتمع وقد يطبق عليه فى الأحوال الشخصية كذلك .

والشباب من أصحاب هذا الاتجاه يأخذ لنفسه الحق فى نقد المبادىء الاسلامية بصراحة كى يبرر موقفه من إبعاد الاسلام عن مجالات الحياة الانسانية وربما يتأثر فى هذا النقد ببعض أقوال الغربيين من المستشرقين فى قضايا عالجوها على أساس ما يسمى بالمنهج العلمى حسبما كان ادعاؤهم ولكنهم تصدوا إلى تشويه حكم الإسلام

فيها فهم ينكرون الوحى بالقرآن لأنه جاء مثلاً بوحدة الألوهية ولم يجىء بالتثليث وهم يدعون أن القرآن مؤلف من « النصرانية واليهودية » وهذا باطل .

أول من أدخل العلمانية فى العالم الاسلامى (كمال أتاتورك) والعلمانية تعنى فصل الدين عن الدولة — وقد كانت الكمالية تجربة خاسرة لأن النتائج كانت غير مرضية بمعنى أن الأسس الفكرية التى بنيت عليها لم تكن قوية ، وقد شعرت تركيا بعد أن جربت العلمانية بفراغ شديد، ولم تجد بديلا لها عند الغرب ولا عند العرب ، لم تجد حلا إلا فى الرجوع عن معاداتها السابقة للاسلام فالانسان التركى يبحث عن مخرج وعن أسس يطمئن اليها .

٣ — والعلمانية كلمة اخترعها اللبنانيون من جذر (علم) أى الاعتماد على العلم وأن الدين خرافة ولا ينسجم مع العلم ، إذن يجب أن يفصل بين الدولة وبين الدين ومع حرية التدين لمن شاء أن تفصل الدولة كأجهزة إدارية مسئولة عن التبشير ، ولكن هذا بالنسبة للمسيحيين وهناك مقولة مشهورة فى المسيحية .

(اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله)

أما الاسلام فهو دين ودولة ، والدولة قائمة على المبادىء الدينية والفرق هو أن ليس فى الاسلام اكليروس وبالتالى لا وساطة بين المؤمن وبين الله فلا يتدخل أى بشر فى شئون ضمير الغير ، أو وجدانه ويمكن للآخر أن يؤول أو يفسر أو يجتهد ، والمسيحية لم تفصل الدولة عن الدين إلا مؤخرا وقد كانت الكنيسة متحالفة مع الملوك والأمراء والنبلاء فى عهد الاقطاع توجههم ويستعينون بها وتستعين بهم وقد جاء الاسلام لإصلاح المجتمع البشرى . وهذا الاصلاح يقوم على القول والعمل ، وأعمالنا هى المعاملات .

وعندما ننظر إلى تجربة العلمانية فى تركيا نجدها خسارة كبيرة ، فانه ما كادت تطبقها حتى بدأت التأثيرات السلبية تبدو للعيان ، وآية ذلك أن الاقتصاد التركى

لم يتقدم ، والمستوى المعيشى والثقافى يتقهقران وبدأت الاعانات الأجنبية تثقل عاتق تركيا وكانت السلبيات أكثر من الايجابيات ، فقد صنعت العلمانية قطيعة بين ماض وحاضر وأصبحت الأجيال التى أتت بعد الكمالية منفصلة تماما عن ماضى أجدادها وكان لهذا أثر عميق على الوجدان والذهن .

ومن جانب آخر فان كل أمة انفصلت عن تاريخها تدخل بمجال الشرود ، لأنه ليس للأمم فى سفرها عبر مراحل التاريخ ، إلا أن تحمل معها زاداً هو تراثها القومى فاذا انفصلت عن هذا الزاد بقيت تلهث وراء زاد مستعار واصطناعى وأجنبى وتبحث خلال ذلك عن ذاتها فلا تجدها .

قال رئيس وزراء تركيا فى الستينات : إن ما يفصل تركيا عن دول السوق الاوربية ما يعـــادل ٣٢٩٠ سنة (أى المسافة التى تفصل ما بين عصر أرسطو وأفلاطون إلى اليوم) ، ويجب على تركيا أن تشتغل كل هذه المدة لتصل إلى المستوى الذى وصلت اليه هذه الدول ، والمسافة تنمو دائما أكثر وبسرعة أكثر .

إذن ماذا ربحت تركيا من العلمانية : إنها لم تربح شيئا .

وهذا هو الوضع الواقعى لدول العالم الثالث ويا للأسف ، أنها شعوب انسلخت عن هويتها طمعا فى الاندماج فى الغرب فلا هى أصبحت غربيـة ولا هى بقيت كما كانت .

والغرب نفسه يعانى أزمات خانقة أخلاقيا وسيكلوجيا واقتصاديا فلماذا هذا التقليد الأعمى للنموذج المريض ، إننا بتقليد الغرب سنأخذ عنه أمراضه ونضيفها إلى أمراضنا ولن نستطيع أن نصل إلى إيجابياته إلا عن طريق تمسكنا بمنهجنا الاصيل فلا بد من العودة إلى المنابع : فالاسلام وحدة هو القادر على العطاء وقد فشلت تجربة العلمانية فى تركيا كما فشلت الديمقراطية والاشتراكية فى بلاد العالم الإسلامى .

٤ — وفى أطروحة الأستاذ مصطفى إبراهيم الدميرى (فى جامعة الأزهر) : عن العلمانية وأثرها فى وسائل الاعلام أكدت الرسالة أن ما تقدمه أجهزة الاعلام المرئية والمسموعة والمقروءة من برامج وأبواب لا يتناسب مع أهمية الدين الإسلامى فى حياة الانسان وقال إن العلمانية سادت معظم مناهج واتجاهات وسائل الاعلام لأنها قامت بأيدى أنصار التغريب وإن وسائل الاعلام اهتمت بالفكر المنحرف وأهملت الفكر الصحيح للاسلام وقال إن العلمانية نشأت نتيجة للصراع المرير الذى حدث فى أوربا وأصحاب الاختراعات من جهة والكنيسة ورجال الدين من جهة أخرى.

ولم تتبلور العلمانية إلا بعد إلغاء الخلافة الاسلامية فى تركيا عام ١٩٢٤ وقال إن أخطر ما فى علمانية وسائل الاعلام تكريم المغنيات والراقصات وأساليب الانحراف والهدم والقصص الجنسى .

٥ — ومع جهود حركة اليقظة الاسلامية التى قاومت مفاهيم العلمانية وكشفت زيفها نما جيل إسلامى يعتنق مفهوم الاسلامية وإن أجيال الشباب المسلم فى كل مكان اليوم هى ظاهرة عميقة الدلالة ، بعيدة المغزى ، على انتصار الاسلام عقيدة وفكراً على دعاة العلمانية والمذاهب المنبثقة منهـــا ويقابل انحسار العلمانيـة ولجوء دعاتها غالبا إلى أسلوب المراوغة والخداع وأسلوب العداء المستتر بعد العداء العلنى المكشوف كما أن هذا الاقبال يمثل المقدمة التاريخيـة الطبيعية للعودة إلى إسلام : عودة أعمق ، وأشمل فى مرحلة قادمة ، وهكذا أصبحنا على أبواب مرحلة جديدة ، يمكن أن تشهد فيها معركة أشد ضراوة لحسم قضية التطبيق الذى يريده غالبية المسلمين ومقاومة العلمانية بما بقى لها من مواقع السيطرة والنفوذ . إن فشل العلمانية على مدى عشرات السنين رغم وجود أسباب القوة ووسائل التوجيه ومقاليد السلطة فى معظم المناطق على أيدى دعاتها ومن جهود مقاومتها للاسلام بازدياد إقبال جيل الشباب عليه ليعطى دليلا واضحا على استحالة أن يفرض على هذه البلاد وأهلها ما لا ينسجم مع تاريخها الاسلامى ولا يصدر عن عقيدتها الربانية ولا يلبى إرادة شعوبها المؤمنة المسلمة .

(قراءات متعددة)

الفصل الثانى

الاسلام السياسى

كان من أقوى ما دعت اليه حركة اليقظة الاسلامية . الاسلام السياسى ، (إقامة سلطاته وبسط أحكامه وتجديد حضارته) وهو الذى أزعج الغرب كله بعد أن ظنوا أنهم تمكنوا خلال فترة الاحتلال ومؤامرته الفكرية من أن يحولوا الاسلام إلى دين عبادة وقد عزلوا جانبه الاجتماعى والسياسى .

وقد كان انشغال بال أوربا والغرب كله بالاسلام مستمرا منذ بزغ نجم الدولة العثمانية فى الشرق الاسلامى ، وفى المنطقة التى تحيط بهذا الشرق تصل فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى حتى أفل نجم هذه الدولة فى الحرب العالمية الأولى والتى أعقبها سقوط الخلافة الاسلامية على يد كمال أتاتورك (يناير ١٩٢٤) .

ولقد جرت محاولات كثيرة لتحمل لواء العلمانية فى الفصل بين الدين والدولة ، وبين الدين والسياسة ، وقد انتهت كلها إلى الفشل والهزيمة ، فان صلة السياسة بالدين مسألة طبيعية لا سبيل إلى ردها أو تجاوزها ، والاسلام دين ودولة ، فهو دين باعتباره شريعة الله ، ودولة تضع الأساس الصالح لكل النظم الاجتماعية للمسلمين صغيرها وكبيرها فليس هناك من أمر يحدث فى المجتمع الاسلامى إلا وله حكم عند الله يعرفه العلماء عن طريق القرآن الكريم أو السنة أو القياس أو توحى به المصلحة العامة (زكريا البرى) والدين بطبعه حركة إنسانية غايتها إصلاح حال الانسان والارتقاء بالجمعيات البشرية وتطهيرها من الظلم والفساد وإستغلال الضعفاء وقد يظن البعض أن الدين بحكم كونه أسلوبا للتعرف على الله والتعبد له سبحانه ، لا يختلط بالسياسة لأن السياسة تستهدف أغراض الدنيا ولكن الثابت من تاريخ الأديان السماوية وغير السماوية أن الأديان صاحبتها السياسة ولاحقتها ، لقد وجهت الأديان أكبرهمها إلى إصلاح هذا المجتمع وأهم إصلاح هو إصلاح نظام الحكم فيه (فتحى رضوان)

الفصل الثالث

الحوار

هذا مصطلح جديد انتشر فى السنوات الأخيرة ، وهو من تخريجات الاستشراق يستهدف تقريب الشقة بين الاسلام والغرب المسيحى بهدف واضح وهدف مبيت ، أما الهدف الواضح فهو خدمة الرأسمالية والحضارة واستبقاء المناطق الاسلامية تحت نفوذ الغرب ، فى مواجهة ما يسمونه الالحاد والخصومة مع الأديان .

أما الهدف المبيت فهو احتواء عالم الاسلام وخاصة فى هذه المرحلة : مرحلة الثروة والصحوة جميعا ، يقول الباحث المسلم .

إن الغرب يهدف من (الحوار) إزالة جـــدار الرفض الاسلامى العقيدى للحضارة الغربية والرأسمالية بدعوى أن العالم الاسلامى والمسيحى يواجهان عدوا مشتركا هو الشيوعية ورغم أننا نؤمن بعداوة الشيوعية ونختلف معها جذريا .

إن الاسلام يرى فى الشيوعية والرأسمالية رغم ما بينهما من تناقضات ظاهرة (وجهان لعملة واحدة) فيها الابنان غير الشرعيان لحضارة الغرب التى تعلى قدر المادة وتحط من قدر الإنسان ، سواء كان مبتنى هذه الحضارة على التبعية كالرأسمالية أو على المادية كالشيوعية .

وفى هذا المجال نذكر تصريحا لهنرى كيسنجر يقول : إن الخطر على الحضارة الغربية بشقيها الرأسمـــالى والشيوعى يأتى من خطر التعصب الاسلامى المتصاعد ويرى أن الحضارة الغربية لها شقـــان : رأسمالى وشيوعى وأنها تواجه خطرا مشتركا يتمثل فى الاسلام » .

إن حجم النفوذ والتأثير الغربى فى العالم الاسلامى اليوم يفوق كثيرا ما للمعسكر

الشيوعى من نفوذ وتأثير رغم براقع اليسارية ، إن أصابع الغرب تحرك كثيرا من هذه النظم التى تسمى نفسها يسارية ، إن الخطر الشيوعى لا يخيفنا كمسلمين لأننا ندرك جيدا أن العقيدة الشيوعية لا تستطيع مواجهة الإسلام فى صراع متكافىء يكف الحكام فيه يدهم عن الاسلام ودعاته .

ذلك أن الشيوعية لا تنمو إلا فى ظروف غير إسلامية من فقر وظلم واضطهاد قومى واجتماعى وهى غالبا ظروف زرعها الغرب فى عالمنا وتعهدها بالنماء مهيئا بذلك الفرصة للعقيدة الشيوعية أن تفرخ فى مجتمعاتنا .

والتاريخ السياسى القريب للدول الاسلامية التى ابتليت بالاستعمار البريطانى يثبت أن الحركة الشيوعية بذرت بذرتها الأولى فى هذه المجتمعات على يد عملاء السفارات البريطانية وصنائعها وما ذلك حبا من الغرب فى الشيوعية ولكن إفساداً للمجتمعات .

تحريف الكلم بضاعة الملحدين

الالحاد هو الميل عن الحق ، أو تبديل الكلام ووضعه فى غير موضعه والالحاد كلى وجزئى فالالحاد الكلى تندرج تحته كل مطاعن المستشرقين وأئمة التبشير وإيراد آيات القرآن على غير وجهها والتصرف فى تفسيرها وتناولها بطريقة تجوز على الأميين والذين لم يؤتوا نصيبا من الفقه بالدين ، أما الالحاد الجزئى فهو ذلك الخلط الذى يتماوج به أقلام بعض الكتاب من دعاوى وافتراءات على الحق ولعل من أظهر الأمثلة ما جاء فى كتاب الشعر الجاهلى ، وإنكاره بعضا من حرفية النصوص عن طريق (التأويل الشاذ) الأمر الذى دفعه إلى مأزق فتصدى كتاب العصر لمزاعمه وعلى رأسهم الرافعى ثم اعتذار طه واقراره بأنه لم يكن يقصد ما فهم من كتابه وأنه مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ولا يزال فى الساحة العربية كثيرون نهجوا هذا المنهج إما طلبا للشهرة أو زلفى إلى ذوى النفوذ . ويرى البعض أن من يعتنق المذاهب الوضعية كالماركسية والوجودية يكون فى حظيرة الملحدين.

الفصل الرابع

حاجتنا إلى إطار إسلامى

إن كل محاولات كتاب الدعوة الاسلامية فى هذه المرحلة من حياة الاسلام فى العقد الأول من القرن الخامس عشر هو تلمس الوسائل لتصحيح المفاهيم وتحرير القيم والتماس الأصالة والعودة إلى المنابع ، فيرى (مالك بن نبى) إن المشكلة مشكلة مجتمع إسلامى أسلم نفسه لنوم عميق منذ استقـــال من التاريخ بعد زوال دولة الموحدين مقابل حضارة نصرانية انطلقت أثر انتهاء الحروب الصليبيـة حاملة فى تضاعيفها ثمرة ما أفضت اليه الحضارة الاسلامية من فـكر ، آخذة فى اندفاعها خصلة الروح النصرانية التى بثتها الأديرة لتتسلم مقود التاريخ ، المشكلة مشكلة حضارة نحن فى خارجها ومشكلة ثقافة لم يتكامل إطارها فى حياتنا اليومية والانسان الذى هو خارج إطار الحضارة والثقافة معا لا يجديه تـكديس المعلومات عن النماذج المستقاة من عالم الحضارة المعاصرة ، ويرى مالك بن نبى أن الذى ينقصنا هم أولئك الذين يستوعبون البعد الفـكرى للنص ويستطيعون أن يعكسوه على جوارحهم ، القادرون على تحويل ما يحفظونه من نظريات إلى واقع عملى يمارسونه فى الحقل والمصنع والمختبر »•

وأعتقد أننا قبل أن نناقش أى مسألة لها علاقة بالنقل من تجارب الغير فى حاجة إلى « إطار إسلامى » ثابت تمر منه كل معطيات الاقتباس من الحضارات وتجارب الامم وتتوقف عندما يقبله الاسلام دون إعطاء أى اهتمام لتلك الصيحات الهستيرية التى يطلقها الغربيون حين يقولون : إننا إذا لم نلحق بركب الحضارة فاتنا القطار فتلك عبارة ساخرة مضللة ساذجة لا تزعج أصحاب المبادىء والقيم الأساسية وهل معنى ذلك فى تقديرهم أن نتجـــاوز عن الثوابت الإسلامية فى سبيل قبول واقع

حضارى مهلهل ممزق مهما كان قدره من التقدم المادى ، هذا شىء والشىء الآخر (أكذوبة ترابط الثقافة والحضارة) وقولهم أن من يأخذ الحضارة الغربية يأخذ فكرها ، وهذه دعوة مضللة لا نقبلها وإلا فتى قبل الغرب فكر للسلمين عندما نقل حضارتهم في القرن الرابع عشر الميلادى ، وليعلم هؤلاء جميعا إننا لن نضحى بذاتيتنا المتميزة وشخصيتنا ذات الطابع الخاص الذى صنعه الاسلام تحت ضغط أي هوى من أهواء الأضواء ، إننا نؤمن بأن للتقدم مفهوما إسلاميا جامعا بين الروح والمادة ويختلف عن مفهوم الغرب ولن نتنازل عنه ، ونحن نؤمن بأن المحافظة على ذاتيتنا مقدمة على الخضوع على التقاط الماديات ، كما نؤمن بأن كل معطيات الحضارة الغربية هى بالنسبة لنا (مواد خام) نشكلها فى دائرة مفهومنا الاسلامى وحضارتنا الاسلامية ولن نقبل الانصهـــار فى الكيان الغربى بشقيه أو التبعية للحضارة الغربية مهما تأخر حصولنا على معطيات العلوم والتكنولوجيا ولن تجدى وسائل الاغراء فى احتوائنا فى دائرة الحضارة المادية أو الاقتصاد الغربى .

إن هذه المحاولات لإزالة التميز الخاص والذاتية الإسلامية وتغريب فكرنا وإدخالنا دائرة الاحتواء للانصهار فى بوتقة الأممية هى من العوامل الأساسية التى كان المسلمون على مدى العصور أيقاظا حتى لا يقعون فى عقابيلها ، وفى أشد حالات ضعف المسلمين كان عامل القدرة على مقاومة الاحتواء قائما وصامداً وهم يعلمون أن هدف الغزو الثقافى والتغريب هو : إخراج المسلمين من منهج حياتهم ولم يكن واقع المسلمين يوما حجة على الاسلام .

وهذا هو مفهوم الصحوة الاسلامية .

الفصل الخامس

مراحل تطبيق العلمانية فى العالم الاسلامى

عندما أحس النفوذ الأجنبى أن الاستعمار السياسى والعسكرى لا يجدى فى سبيل السيطرة على مقدرات الأمة الإسلامية ، وذلك رغبة فى أن يظل عالم الاسلام سوقا للاستهلاك ومصدراً للخامات وتحقيق الحلم القديم فى الانتصار على الشرق بدافع من الروح الصليبية المستكنة فى النفوس ، وفى سبيل ذلك حقق ما يأتى :

١ — فى مجال الحكم نشأ النظام الديمقراطى والحزبية السياسية والقومية اللادينية .

٢ — فى مجال التشريع تم إبعاد الدين عن الدولة .

٣ — وفى مجال القانون تم إبعاد الفقه الإسلامى .

٤ — وفى مجال التربية والتوحيد تم إبعاد الأخلاق الإسلامية .

٥ — وفى مجال الاقتصاد تم إطلاق حرية المصارف الربوية وترك فريضة الزكاة .

وفى سبيل تثبيت ذلك سلك النفوذ الأصلى طريقا مزدوجا :

الأول : يقوم على تمجيد الحضارة الغربية المنتصرة خاصة فى المجال العلمى وفى مجال الغزو العسكرى والثقافى .

الثانى : يقوم على تشويه الاسلام بتشويه التاريخ الإسلامى والطعن فى القرآن وفى السنة النبوية وفى نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد سلك لذلك عدة طرق :

١ — إنشاء المدارس والمستشفيات التبشيرية فى مختلف البلاد الإسلامية .

٢ — قيام رجال الخارجية فى الدول الغربية بتكليف المثقفين بدراسة اللغة العربية والإسلام بقصد تشويهه من جانب والاسترشاد بتقاريرهم فى وضع المخططات الاستعمارية من جانب آخر وقد عرفت فيما بعد باسم الاستشراق .

٣ — وضع مناهج وزارات المعارف فى البلاد الإسلامية بحيث تفرغ من محتوى الإسلام، والدراسة تكون باللغة الإنجليزية وأول من وضع هذه المناهج هو القس دنلوب فى القاهرة .

٤ — عزل المعاهد الدينية عن مجال التوجيه والحياة العامة وقصرها على المساجد .

٥ — البعثات الدراسية إلى الغرب وذلك بالتركيز عليها حتى تعود غربية فى السلوك وفى الفكر وأكثر المشرفين على هؤلاء كانوا إما من اليهود أو من الصليبيين المتعصبين ضد الإسلام ، وفى الميدان السياسى عمل الاستعمار على تفتيت وحدة الأمة بتقسيمها إلى دويلات فى صفقة استقلالية رهيبة أبرمت بليل من قوى الشر الباغية تحت عنوان (تقسيم تركة الرجل المريض) وأخذت تنادى بالقومية اللادينية لتدخل الأمة فى صراع يستحل فيه المسلم دم أخيه وعرضه وماله ، وبذلك قضت على روح الاخوة الإسلامية وحلت محلها العداوة والبغضاء بسبب القومية اللادينية .

وقد تجمع على أمتنا ثالوث بغيض :

أولا : الجبرية : التى نشأ عنها الجمود والغيبوبة عن الوعى الذاتى وتعطلت بسببها فريضة من أقدس الفرائض الإسلامية وهى فريضة الجهاد المقدس .

ثانيا : العلمانية : التى نشأ عنها الانحلال بمؤسساته التى انتشرت فى العالم الإسلامى وعزل الإسلام عن المجتمع ، وإحلال التشريعات الوضعية محلها فى ميدان الحكم ، والعادات الغربية المخالفة لتعاليم الدين فى الجانب الاجتماعى وتعطلت نتيجة لذلك الفريضة التى من أجلها كانت أمتنا خير أمة أخرجت للناس وهى فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ثالثا : القومية اللادينية : وقد نشأ عنها اغتيال الروح الإسلامية وحلت محلها عصبية قومية تزيد على عصبية الجاهلية الأولى وظهرت بذلك القومية الطورانية والقومية العربية والقوميات الفرعونية والفينيقية والبابلية والآشورية .

وسقطت نتيجة لذلك الخلافة الإسلامية فى تركيا وبسقوطها تعطل فرض من أقدس الفرائض الإسلامية وهو فرض الخلافة الراشدة .

ثم سقطت فلسطين فى نير اليهود وقبلها سقط المسلمون فى روسيا فى يد الدب الروسى وعامل (القومية اللادينية) يساعد على وجود دويلات متناحرة ويساعد على وجود سياسيين محترفين لهم أطماع تتنافى مع عودة الوحدة الإسلامية وبذلك استطاع الإستعمار أن يثير القوميات ضد بعضها البعض منذ زمن بعيد .

(٢)

نشأ فى المجتمع الإسلامى منذ بداية هذا القرن حكام وطنيون استلموا الحكم من المستعمر ، فى مراحل زمنية مختلفة ، ونشأ مع ذلك أحزاب سياسية ونشأت مدارس فكرية علمانية من تلاميذ المستشرقين ، ومن الطوائف غير الإسلامية وكلها كانت تعمل ضد الإسلام إلا من عصم الله ، ثم دخل بجوار ذلك (الإلحاد الشيوعى) مستغلا أخطاء الاستعمار الغربى ليعد الناس بالاستقلال والأمان ويرفع شعار الخبز والسلام ويمنى المحرومين والتعساء بحياة أفضل ونشأ نتيجة لذلك :

أولا : فئات تعتنق المذاهب الإلحادية ، وترى أن الغرب والشرق لم ينتصرا علينا بالدين وإنما انتصرا بالسلاح وهى لذلك ترفض الدين جملة وتفصيلا ، وتجد هذا تعضيدا لها من الخارج ويساعدها فى ذلك تمكنها من الثراء وقربهـــا من المستعمر ، ووجود مصالح لها فى غيبة الإسلام وهى طوائف كثيرة .

ثانيا : فئات تعتنق الإسلام وهى لا تملك من مقومات الدنيا الشيء الكثير وهى طوائف :

(ا) علماء الدين ويؤخذ عليهم أنهم لم يدرسوا حقائق الإسلام من النبع الأصلي كما أنهم موظفون رسميون يعيشون تحت وطأة المعاش الشهري .

(ب) الجماعات الدينية وقد أصيب بعضها بضيق الأفق وأصيب البعض الآخر بالبدع والخرافات التى لا تمت إلى الإسلام بصلة .

لقد نشأ صراع مرير فى بلادنا بين العلمانية ويساندها الاستعمار الغربى وبين الإلحاد وتسانده الشيوعية العالمية وبين الإسلام وليس له سند إلا قوته الذاتية التي الى ضمنها إياه الحق تبارك وتعالى ، ولم يكن عندنا في الأمة فرقة لها مصلحة في عودة الإسلام بعد القضاء على حصونه الأساسية المتمثلة فى العلماء المخلصين والجماعات المخلصة ، إلا الجماهير الإسلامية الكادحة التى هدها الفقر على يد الاستعمار واضعفها الاستذلال والاضطهاد والتشريد على يد أبطال الحكم من تلاميذ الشرق والغرب على السواء ، فاضطر كثير من المتدينين من ذوى الكفايات المالية إلى التوارى عن ميدان الحياة وإظهار اللامبالاة بالدين ، وإما الفرار من الوطن الإسلامى إلى المجتمع الغربى ليعيشوا بمأمن من أن تنالهم ايدى هؤلاء الأبطال المحترفين ، أما الشعب المسلم وهو صاحب المصلحة الحقيقية فى الإيمان بالإسلام فقد عاش به حتى الآن ، ووقف فى وجه الاستعمار وكافح الظلم بالإيمان بالله وليس بشىء سواه ، ومع كل هذه المأساة التى يعيشها الشعب المسلم فى كل مكان فانه يخضع لتأثير الحرب الساخنة والباردة من الكتلتين المتربصتين عن طريق الأقلام المشبوهة ، والكتب والدوريات المأجورة ، والإذاعات الموجهة ، والجرائد اليومية ومختلف أساليب الاعلام تارة وعن طريق أسلوب الضغط الاقتصادى تارة أخرى لنشر مبادئها ، والإبقاء على امتيازاتها والوقوف سداً منيعاً فى سبيل الإسلام ، ويتمثل ذلك فى صور القروض المالية والمنح الغذائية والمعدات الصناعية والعسكرية مع إدخال جيش من الخبراء تكون مهمته الأساسية معاونة من يدينون بالولاء له داخل المجتمع المسلم وتقويتهم فى الصراع ضد الآخرين ، وإيجاد ركائز تكون أساساً للاستيلاء على السلطة فى المستقبل القريب أو البعيد .



إن علينا أمانة يجب أن نؤديها وألا نفرط فيها وهى عودة الإسلام إلى المجتمع وتحكيم شريعة الله فى كل شئون الحيـــاة ، إن الولاء لأحد النظامين الإلحادى الشرقى والرأسمالى الغربى يعتبر خيانة لله وللرسول وهو يعتبر مسروقا من الإسلام : (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين من يفعل ذلك فليس من الله فى شىء) ثم هو خيانة للدماء الزكية التى استشهدت فى سبيل هذا الدين مروراً بالحروب الصليبية إلى حروب الاستقلال فى العصر الحديث ثم هو خيانة للروح الوطنية التى جاء بها هؤلاء إلى الحكم وعاشوا باسمها والتى تجمعت باسم الإسلام لتحرير البلاد من وطأة المستعمرين . والحل : هو عودة الأمة إلى ما بدأت به ، العودة إلى المنابع .

١ — قيادة ربانية تستلهم الإسلام فى كل شئون المجتمع المسلم ، وذلك لا يكون إلا بعودة الخلافة الإسلامية الراشدة والحكومة الإسلامية .

٢ — ترجمة حقائق الإسلام إلى أسلوب علمى يعيشه المجتمع الإسلامى ليمارس فيه كل إنسان حريته الإسلامية حاكما ومحكوما .

٣ — بعث التربية القرآنية كما كانت فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم على يد مؤسسات علمية تربوية تتناسب مع العصر الحديث لصهر الأمة كلها بمختلف طوائفها العلمانية والإلحادية والشيوعية والصوفية السافية فى بوتقة الإسلام دون إفراط أو تفريط .

(دكتور أحمد خليل)

الفصل السادس

تصحيح المفاهيم

إن نهوض المسلمين وتقدمهم وردم فجوة السقوط الحضارى التى يعانون منها واختصار فترة التخلف التى لا تزال تتسع بشكل رهيب : مرهون إلى حد بعيد بإعادة فهمهم للاسلام وإدانة الكثير من المعلومات التى استغلقت فى أذهانهم وأظلوها بمظلة الإسلام فأورثت الكثير من التواكل والعجز والقعود وانطفاء الفاعلية والنكوص عن إدراك (شروط النهضة) وفهم سنن الله فى الآفاق والأنفس وحسن تسخيرها ، وكيفية التعامل معها وتسييرها دافعة عجلة الحضارة مؤدية وظيفة عمارة الأرض على الصورة التى أرادها الله ، لا كما نرى الآن من تمزيق الرؤية الإسلامية الشاملة وتقطيعها إلى أبعاض وتفاريق ، يعيشها المسلم اليوم عاجزا عن (النظرة الكلية الشاملة) الأمر الذى أفقده التوازن النفسى الذى يمكن من وضع الأمور فى نصابها وإعطائها ما تستحق من الخير والمكانة فى سلم الحياة الاجتماعية ، ذلك أن فقدان التوازن النفسى يعود بالتالى إلى ما هو أخطر ، يعود إلى عملية الانكسار أمام المجتمعات والمبادىء غير الإسلامية ، وعدم القدرة على التعامل معها ومن ثم هدايتها فيكون الانسحاب من المجتمع وتكون السلبية وبعض الممارسات الخاطئة والانخداع بأن هذا هو الفهم السوى الذى لا فهم سواه ، ولا يعدم صاحب هذه النظرة الجزئية القاصرة عن الرؤية العاجزة عن الإدراك الكامل ، أن يجد بعض الآيات التى يقطعها عن سياقها ويجردها من أسباب نزولها يبرر بها موقفه ويسوغ سلوكه وقد يحدث الوجه الآخر لفقدان حالة التوازن النفسى والاجتماعى وبسبب من النظرة الجزئية هذه يحدث الذوبان فى المجتمع وإعلان العجز وانعقاد القدرة على التعبير وانطفاء الفاعلية والاستسلام للواقع تحت اسم الواقعية ورفع شعار « إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون » .

الفصل السابع

عصر التحديات

يواجه المجتمع الإسلامى «عصر التحديات» المتمثل فى :

١ — التحديات الصادرة من الغرب والتى لا تزال قائمة وإن لم يكن لها الصبغة الدينية القديمة .

٣ — تحديات من داخل المجتمع الإسلامى ذاته ، منها هزيمة الجيوش العربية أمام إسرائيل ١٩٦٧ . الفتن التى أدت إلى تقسيم باكستان ١٩٧٢ ، وقوامها عدم قدرة المسلمين على التغلب على النزعات الاقليمية .

٣ — الصراعات والصدامات بين بلاد الغرب والإسلام .

وليس ثمة سبيل للتغلب على هذه الصعوبات سوى الرجوع إلى الإسلام والتمسك به وبتعاليمه للصمود أمام هذه التحديات .

وروح النضال فى العالم الإسلامى لها طابع دينى . ولقد كانت الروح الإسلامية وراء النضال والكفاح فهى موجودة وفعالة فى تسيير الأحداث وتوجيهها .

يقول كاتب غربى مسلم تحت عنوان «مائة وخمسون عاما من الصراع» لقد استطاع عالم الإسلام أن يتغلب على كثير من الضغوط الدينية والسياسية والعسكرية التى كان الغرب يستعملها ضده ، ولكن الغرب ما زال يشكل مصدر خطر على الإسلام يتمثل فى (ثقافة الشباب) وأخطر مظاهرها فى نوع الموسيق الصاخبة التى بدأها (البيتلز) الخنافس — والتى تملأ الآن كل إذاعات العالم

الإسلامى وانواع الملابس التى لا تفرق بين الجنسين وهى (الجينز) وخطورة هذين العاملين والثقافتين تأتى من أن تأثيرهما أعمق بكثير مما نظن ويحدث تدريجيا وبطريقة غير محسوسة ، هذه الموسيقى الغربية الصاخبة تخفى وراءها فلسفة معينة تدور حول تحدى الشباب للأسرة والمجتمع وتمردهم عليها ، فقد كانت الأسرة والمجتمع يتمتعان بقوة تأثير هائلة على حياة الفرد فى المجتمع الإسلامى ، وسوف يؤدى التمرد عليهما إلى حدوث تغييرات جذرية عميقة فى بناء القيم السائدة فى هذا المجتمع فالجينز لا يلغى الفوارق بين الجنسين بل أيضـــا كل الفوارق والمزايا والاختلافات الفردية (أى أنها تلغى شخصية الفرد تماما فى نهاية الأمر) .

ويرى (جانس) أن مثل هذه الأخطار أشد تهديدا وفتكا بالمجتمع الإسلامى من التحديات الضخمة السافرة التى تأخذ شكل زيادة الاتجاه نحو التحضير والتصنيع والتقدم التكنولوجى ومجتمع الوفرة والاستهلاك .

٢ — ليس صحيحا ما قيل من أنه كلما انخفضت عوامل التحضر، زاد تشبث الناس بالعامل الدينى ، وأنه كلما اقترنت المجتمعات بأسباب التحضر ارتفع المستوى التعليمى بها قل تمسكها بالعامل الدينى وإذا كانت نتائج هذه الدراسات صحيحة لدى العديد من المجتمعات الاوربية وغيرها من الشعوب فى البلاد التى طغت عليها الصراعات المادية وسيطرت على حياة هذه المجتمعات وأصبح العامل الدينى بالنسبة لها واحدا من أسباب التخلف الحضارى الذى يؤخر ركب التقدم العلمى والثقافى .

وإذا كان هذا صحيحا فى المجتمعات الغربية لعوامل ترجع إلى القرن السابع والثامن إلا أن هذا الموقف يختلف تماما لدى المجتمعات الإسلامية فقد قفزت هذه المجتمعات قفزات هائلة على كافة المستويات وانتصرت فى كافة المعارك .

وإذا كان شعار « الله أكبر » هو الشرارة التى أطلقتها الجيوش لتحقيق أعظم إنجاز عسكرى فى النصف الثانى من القرن العشرين فان التاريخ الاسلامى يشهد

بهذه الحقيقة الخالدة والتى تؤكد ازدهار الشعوب الاسلامية وتقدمها كلها إزاء تمسكها والتزامها بما أنزل الله وانحدارها وضياعها كلما انحرفت عن جادة الصواب وابتعدت عن أوامر الله وتعاليم الاسلام .

فالاسلام يدعو إلى تحضر المجتمعات ويمنحها الثقة بنفسها ويدفعها إلى مزيد من الجهد والانتاج والأخذ بأسباب التقدم الحضارى فى مختلف الميادين ومن هذا المنطلق فان الشعوب المتحضرة تجد ضالتها فيما جاء به الاسلام الذى يخاطب عقولها الواعية وفكرها اليقظ ويزيل الغشاوة عن عيون أبنائها .

« محى الدين عبد الحليم »

٣ — أسلوبان لمواجهة القضايا الفكرية والثقافية: الأسلوب القومى والأسلوب الاسلامى ، أما الأسلوب القومى فانه محدود الساحة ضيق المساحة ، لأنه يحصر نفسه ، فى فكرة واحدة ، فهو عمل مرحلى ، وتجربة انقضت وأثبتت الايام عدم قدرتها على العطاء الحقيق ، ولا تستطيع أن تمثل أسلوبا عاما شاملا ، لقد أخذت التجربة القومية زمنا طويلا وتحركت تحركا واسعا ، ثم عجزت عن العطاء ، لأنها ليست مؤهلة له ، وكل التجارب التى قامت باسمها فشلت وتصدعت ، وعرف فشل هذه التجربة حين حاولت أن تعتبر نفسها منهج حياة وأسلوب عمل ، بينما هى مرحلة تاريخية بعد سقوط دولة الخلافة التى كانت تحمل لواء الوحدة الاسلامية ، وقد عجزت عن أن تحل محلها لأنها أغلقت الأبواب مع جيرة الاسلام وأخذت بأسلوب الاستعلاء العنصرى وقبلت مفهوم القومية الغربى وليس مفهوم العروبة الأصيل فبدت معارضة للفطرة ، غير متقبلة عند الضمير العربى الاسلامى الوجهة والهوية .

أما الأسلوب الاسلامى فهو أسلوب واسع سمح ، مرن ، قادر على العطاء لأنه يستمد من نظرة جامعة وفكرة ربانية أصيلة ، وأخوة إسلامية عامة ، لا يتنكر للوجهة القومية ولكنه يجعلها غير محدودة العطاء .

(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

إن الهوية الثقافية للعرب والفرس والترك وغيرهم هى الهوية الاسلامية وتاريخ الاسلام هو تاريخهم ، وروح آدابهم وثقافاتهم هو التوحيد الخالص ، ومهما اختلفت الأقطار ولهاعواملها الفرعية فان العناصر الثابتة الأساسية هى العناصر الجامعة أما الفروع المختلفة التى يختلف بها الأقطار والبلاد فلا تتجاوز المسائل الفرعية فان الأهداف والغايات فى مفهوم الحضارة والتاريخ كلها واحدة ، وهذه الثوابت الكلية تجعل أوجه التقارب والائتلاف والتشابه أكثر من أوجه الخلاف ولذلك فان فكرة المستشرقين بإسلام عربى وإسلام فارسى وإسلام تركى هى فكرة مسمومة كاذبة مضللة لأن روح لا إله إلا الله قد سيطرت على الأصول العامة وجعلت فوارق الأقطار والأمم قليلة يسيرة .

الفصل الثامن

مأساة الإنسان المعاصر

مأساة الانسان المعاصر تكمن وراء أزمة الإيمان ، ومن وراء أزمة الإيمان ، أزمة الحرية وأزمة المسئولية ، ومن ثم أزمة الفن ، فلأن ذلك الإنسان قد تزعزع إيمانه بالارتباط بنظام معين ثابت فى الكون فهو لا يشعر بالمسئولية ، إذ كيف تكون المسئولية بغير حرية الاختيار وكيف تكون حرية الاختيار بغير إرادة ، وكيف يمكن الارادة بغير باعث قوى ، وكيف يقوم الباعث القوى بغير اعتقاد متين فى جدوى أى شيء ، أو إثبات أى شيء أو نظام شامل يرتبط به كل شيء ، لقد حلت الصدفـــة محل الضرورة وجلست الفوضى على عرش النظام ، لم يعد للناس ما يرجون ، الفناء يهدد كل شيء والموت نهاية كل إنسان. لقد تعددت ألوان الحصار المضروبة حول وجدان إنسان هذا العصر فهو محاصر بالتطور العلمى ، الرهيب ، الذى أفقده عاطفتـه وإنسانيته ، وأخلاقه ، ومحاصر بافلاس القيم واهتزازها ، ومحاصر أيضا بالحروب الرهيبة المدمرة ، كان التمدن النفسى الذى أصاب إنسان هذا العصر إذن راجع إلى معطيات الحضارة الأوربيـة وقيمها ومبادئها فى عصر الرجال الخوف والأرض الخراب ، ومن نمط التمزق نشأت أنماط اللامعقول ، وهى صورة أمينة لمـا يعانيه الإنسان الحديث من الضياع واللهفة والجزع .

(الأرض الخراب والرجال الخوف) قصيدتى (اليوت) اللتين صور فيهما إفلاس الحضارة المادية فى تلبية أشواق الإنسان الروحية وظمئه إلى عالم الحقيقة الخالدة ، إن العامل الإلهى وحده هو الذى يستطيع أن ينتصر على العزلة وأن يجعل الانسان مدركا للشعور بالألفة والصلة متوخيا غاية جديدة موجودة ؛ لقد أسهمت

النظريات العلمية الحديثة بطابعها المادى فى زلزلة القيم والمعتقدات وفى تمزيق نفسية الانسان ورفضه للمجتمع والعقائد والمثل — أحيانا — فنظرية النسبية غيرت مفهوم العلم وغيرت كل شىء فى مفهوم العلم ، والذرة التى كانت فى اعتقاد الناس لا تقبل التجزئة ، ومن ثم نشأ على أطلالها عالم جديد لم يزل يحبو ولكن هذا العقل استطاع أن يصنع القنابل النووية التى تهدد كل شىء على وجه الأرض بالفناء ثم جاء فرويد بنظريته فى اللاشعور ليكمل مأساة التمزق النفسى لإنسان القرن العشرين ، وذلك لأنه بهذه النظرية كأنما يبقر بطن الشخصية الانسانية المتماسكة العاقلة ليكشف عن أحشائها المظلمة التى ينكرها الوعى بذوقه ونظامه معا .

وهكذا أصبح وجدان الفرد ضائعا مغتربا بين نظم اجتماعية تضيق دائرة النشاط الفردى وبين انهيار قيم إنسانية كأصل النوع الانسانى وقداسة العائلة والبطولة والعبقرية الفردية وتمجيد العقل وقد جنى العلم كثيرا بقدر ما أسدى من أياد على الوجدان الفردى .

(دكتور سعد عبيس)

الفصل التاسع

سبب انحطاط المسلمين

إن السبب الحقيقي هو أن هداتنا الدينيين أمعنوا في الفروع إلى حد أنهم تركوا الأصول وراء ظهورهم ، ثم جاءت الفروع فحلت محل الأصول ، وتفرعت منها مئات وآلاف من الفروع واعتبرت من أصل الاسلام والحال أنها لا أهمية لها صلا في الدين . إن بنيان الملة الاسلامية أقيم في الحقيقة على هذا الترتيب : وهو أن القرآن الكريم هو الأساس والطابق الأول يتبعه وينبني عليه : السنة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام ويأتي بعد السنة اجتهاد أهل العلم والبصر في الدين ولكن سوء الحظ قلب هذا الترتيب رأسا على عقب ، وأصبح الترتيب المبتدع أن الأول هو اجتهاد ذوي البصيرة والعلم من عصر معين معلوم ، والثاني سنة النبي صلى الله عليه وسلم . والثالث الأخير كتاب الله ، هذا الترتيب المقلوب المبتدع هو المسئول عن كل هذا الجمود الذي جعل من المسلمين شيئا ساكنا لا يتحرك ، فلو أن هذا الترتيب الصحيح يقام من جديد فلا جرم أن سيتحرك القطار الاسلامي الواقف لأن السبب الحقيقي لهذا الوقوف والجمود أنه قد نحيت القاطرة الهادية من أمام القطار وجعلت في المكان الخلفي ، وكذلك أبعد السائق عن موضعه وأجلس في بعض العربات الخلفية ، ووضعت الثقة كلها في العربة الأمامية ، وأعتقد أنها ستسير بنفسها وتجر سائر القطار أيضا معها وهذا محال . وقد جاء ذلك نتيجة الانحطاط الذي لا يزال يطرأ على القوى العلمية والعقلية والفكرية لجميع الأمم المسلمة كطروه على قواها العسكرية والسياسية فهذا الانحطاط أخمد في المسلمين روح الجهاد وأمات فيهم روح الاجتهاد أيضا .

تطوير القيم

من أخطر ماطرح فى أفق الفكر الاسلامى قضية (تطوير القيم) وفكرة تطوير القيم فكرة غريبة مرتبطة بفكرة (تطوير الدين المسيحى) التى يريد تطبيقها على الإسلام ، مع اختلاف عميق بين الأمرين ، فالإسلام له منهجه القائم على ثوابت أساسية غير قابلة للتطور والتغير ، بينما يوجد هناك الفروع التى تقبل التغيير ، وإن ما يهدف اليه الغربيون هو أن يتحول العرب والمسلمون عن قيمهم وأخلاقهم على أخلاق وقيم الماسونية أو المسيحية أو الماركسية .

إن تطوير القيم يتبناه اليهود فقد دفعوا بدارون ودوركايم وفرويد لترويج نظريات قيل أنها علمية تنتهى إلى أن الأخلاق نسبية وليست ثابته وأن القيم يجب أن تتغير بتغير الزمان ، غير أن مفهوم الإسلام يختلف فالإسلام يحكم السلوك فى القول والمعاملات ، وأخلاق الاسلام ثابتة لا تخضع للتغيير والتطوير ، أما الذى يخضع للتطور والتغيير فهو الصناعة والمعمار وأحوال المدنية ، والقيم الدينية فى جميع الأديان لا تختلف باختلاف الزمان والمكان .

(الكذب — الفحش — السرقة — الدنس — الانحراف الجنسى) هذه كلها رذائل منذ آدم إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم كذلك فان النفس الإنسانية لا تتغير ولكن الذى يتغير هو وسائل الحياة والمعاش ، إن القول بأن القيم الدينية والأخلاق تتطور أو تتغير مع الزمن يجعل الدين مرتبطا بالعصر ، ويكون تبعا لمدنيته ، لقد جاء الإسلام ليحطم كل ذلك ويحرر الناس من هذه التبعية ، إن المناداة بتطوير القيم وربطها بعادات الناس وميولهم من شأنه أن يجعل الإسلام ماركسيا أو أن يكون لدعاة الجنس واللذة إسلام يجعل ممارسة هذا اللون تسبيحا لقدرة الله واعترافا بجمال الخالق كما زعم أصحاب التفسير العصرى للقرآن ومن شأن هذه الدعوة أن تحطم عقيدة الإسلام وهذا ما أفصح عنه (كرومر) فى كتابه (بريطانيا

المظمى فى مصر) حين قال : إذا أمكن للمبادىء الاسلامية أن تتطور مع الزمن المتطور عند ذلك سوف يتحرر ملايين البشر من هذه العقلية ولا فرق بين دعوى كرومر وجب ودوكايم وفرويد وجولد سبنسر وبين تلك التى ينادى بها البعض فماذا بعد الحق إلا الضلال .

ومن شأن تطوير الدين ألا يفهم الفهم الجامع الثابت ، وهى محاولة تمسيح الاسلام بإدخال المفاهيم الغربية للأخلاق التى هى فى الوقت نفسه ممثلة فى التعاليم الأخلاقية الكنسية المسيحية (وهى ليست تعاليم السيد المسيح) التى تدعو إلى تعميم الانحراف والحرب على اللا أخلاقية فى القول والسلوك .

إن المطالبة بتطور الاسلام قضية كبرى حمل لواءها المبشرون والمستشرقون لغرض لم يخفوه فهو الذى يمكنهم من إدخال مفاهيمهم وسمومهم ، ولكن المسلمين كانوا حريصين على مواجهة هذه المحاولة الضالة .

(سالم البهنساوى)

الرقم ١٩

ترددت فكرة الرقم ١٩ ووصفت بأنها معجزة للقرآن الكريم ، ولشر بعضهم نشرة مريبة تحت اسم (دلالات جديدة فى إعجاز القرآن الكريم) .

هذه الدلالات التى زعموا أنها جديدة هى عمليات حسابية من جمع وضرب لبعض كلمات القرآن أو لكلمات بعض الآيات خاصة الآيات التى هى فواتح السور ، أمثال كهيعص ، حمعسق . ألم ، ألمر ، ليعلم القارىء أن أسلوب البهائية وهو أسلوب اليهودية السرية ، وعلوم السحر قائمة من قديم الزمان على الحروف وما يقابلها من المواد وجمع هذه الأعداد واستخراج أدلتهم من حاصل الجمع والحساب ، بل إنهم يفسرون آيات القرآن بهذا الأسلوب الغريب ليتواصلوا به إلى تزييف المعانى ، ولكن الجديد فى الأمر تمشيا مع روح العصر ، هو محاولة الحديثين استخراج

أدلتهم من عد حرف معين فى آية معينة أو فى هدة آيات ، واستخراج الدلالة من حاصل الجمع وأحيانا من مضاعفاته بينما القدامى كانوا يجعلون لكل حرف أبجدى مقابلا من الأعداد وهو ما سموه حساب الجمل وهو الذى تقوم عليه رحى علوم السحر والعلوم الروحانية والبابية والبهائية وراء الرقم ١٩ .

فالرقم ١٩ ليس معجزة للقرآن ولكن تضليل عن إعجازه ، إن أصحاب هذا الرقم هم البهائية ، فقد قرروا أن يجعلوا عدة الشهور تسعة عشر شهرا والشهر تسعة عشر يوما ، وإن أكثر أحكامهم الارتجالية تدور على الرقم ١٩ الصيام ١٩ يوما ، المهر ١٩ مثقالا ، الزكاة تسعة عشر فى المائة فنحن أمام بدعة محدثة .

وفى كتاب التسعة عشر ملكا تأليف المستشار حسين محمد محى الدين ، هو أول مؤشر على ارتباط هذه الفكرة بعقيدة البهائيين ، قال محمد سيد كيلانى فى تعليق على كتاب الملل والنحل للشهرستانى إن أصل نشأة رقم ١٩ فى فكر (ميرزا على محمد) الملقب بالباب إن الباب استطاع أن يجمع حوله ثمانية عشر شخصا سماهم ثم ألقى على هؤلاء مبادئه وتعاليم دعوته أولهم حسن النشرونى (خراسان) وإن هؤلاء الثمانية عشر شخصا أسماهم الأقانيم .

التوحيد قبل الوثنية

تقرر الكتب السماوية وفى مقدمتها القرآن الكريم إن الله تبارك وتعالى أرسل الرسل إلى الناس بكلمة التوحيد ، وجاء الأنبياء يدعون إلى منهج الله تبارك وتعالى ، ولكن البشرية كانت تنحرف عن التوحيد إلى الوثنية ثم تأتى رسالات السماء لتردهم إلى الحق .

ولكن كتابات العلمانيين المعاصرين تحاول أن تصور الموقف بصورة أخرى تختلف فهى تكاد تجمع على لسان كتابها على أن بداية التدين كانت أوهاما وخرافات، ثم تطورت حتى اهتدت البشرية إلى عقيدة التوحيد ويرجع الخطأ إلى البحث عن الزمن الذى بدا فيه التدين بالبحث فى أديان الأمم البدائية ولا ريب أن نظرية

تطور الدين وبدئه من الخرافة والوثنية هى مما نادى بها أنصار مذهب التطور الذى ساد فى أوربا فى القرن التاسع عشر وحاول تطبيقه على تاريخ الأديان : سبنسر ، تايلور ، فريزر ، دوركايم .

وقد حلوا المشكلة فى ضوء تحليلهم لتطور الحياة البشرية نفسها من الأدنى إلى الأسمى .

ولكن بعض كتاب الغرب كشفوا زيف هذه الخطة ومنهم (لانج) الذى أعلن أن كافة المجتمعات البدائية عرفت التوحيد وحقيقة الله تبارك وتعالى وأنكر نظرية التطور مستندا على أدق الأبحاث وقد أشار على سامى النشار إلى ذلك فى كتابه نشأة الدين .

وقد اعتبر العلماء الماديون أن الدين تجربة تكونت فى الإنسان من قبل حواسه ، وأن الإنسان البدائى وجد نفسه ضعيفا بين الظواهر الكونية المختلفة فاعتقد أن باستطاعتها أن تضره أو تنفعه فأخذ يتقرب منها ويقدم لها سائر العبادات .

واعتبر دوركايم « التوتمية » أقدم ديانة على الاطلاق والتوتم عبارة عن رمز تتخذه العشيرة شعارا لوحدتها وقوتها ويعتقد أنه جـــدها الأعلى ومنه تناسلت فتقدس هذا التوتم حمارا أو نباتا أو حيوانا وقالوا فى الرد عليه إن هذا التأويل لا يصلح كمبدأ للعقيدة لأنه من خلال الأبحاث الكثيرة تبين أن هناك أمما بدائية كانت تعبد مع التوتم آلهة أخرى وربما لم تعبد التوتم على الاطلاق وإن كان رمزا لها وقد تأثر بعض كتاب الاسلام فى العصر الحديث بهذه الآراء .

فيقول العقاد فى كتابه (الله) : ترقى الإنسان فى العقـــائد كما ترقى فى العلوم والصناعات فكانت عقـائده الأولى مساوية لحياته الأولى فليست أوائل العلوم والصناعة بأرقى من أوائل الأديان والعبادات ، وأورد العقاد ما قاله أصحاب المذهب التطورى من أن البشرية مرت فى اعتقادها بثلاثة أطوار : هى التعدد والتمييز والترجيح والوحدانية ويقول : إن التوحيد هو نهاية تلك الأطوار كافة فى جميع الحضارات الكبرى .

والعقاد بعد سرده لرأى التطوريين يثبت هذا الرأى فيقول :

فالتطور فى الديانات محقق لا شك فيه ولكن لم يكن على سلم واحد متعاقب الدرجات ، كما قرر فى نهاية الأمر رأى التطوريين فأثبت أن عبادة الظواهر الطبيعية كانت سابقة لعبادة الإله الأعلى فقال بأن عبادة الشمس كانت الخطوة السابقة لعبادة الإله الأعلى وهذه عبارته بالنص : (ولنا أن نقول أن ديانة الشمس كانت هى القنطرة الكبرى بين عدوة التعديد وعدوة التوحيد) .

ويحاول العقاد أن يستدل لصحة ما ذهب اليه من القرآن ويستشهد بقصة إبراهيم ورؤيته : الكوكب ، الشمس ، القمر . (سورة الأنعام)

وليس صحيحا أن إبراهيم كان محتاراً منذ البداية فى الاهتداء إلى الحق وأنه كان يريد أن يصل إلى حقيقة يجهلها ففكر ونظر ، عن الكوكب ثم القمر ثم الشمس ، واهتدى أخيرا إلى عبادة الإله الواحد الأحد ، ليس ذلك صحيحا ، لأن إبراهيم عليه السلام كان من الأنبياء عصمه الله عن أن يشرك ، وسياق الآيات يدل على أن إبراهيم عليه السلام كان يريد أن يقدم الدليل المحسوس لقومه على بطلان عقيدة الشرك التى كانوا يمارسونها فاتبع أسلوب الاستدراج هنا كوسيلة من وسائل الاقناع .

وقوله (هذا ربى) هو على معنى الاستفهام والتوبيخ ، قال المفسرون المعنى (هذا ربى) أمثل هذا يكون ربا .

فاستدلال العقاد بهذه الآية باطل من أساسه لانه حاول أن يستدل على أمر باطل ومخالف لمفهوم الاسلام فى تاريخ الدين .

والخلاصة أن دين الله قد نادى بعقيدة التوحيد وعرفته البشرية منذ بدايتها على أبيها الأول آدم عليه السلام .

وفى تحليل العلمانيين والتطوريين عدة أخطاء منها :

أولا : المنطقة البدائية قد اعتبرها العلم شقة حراما حظرها على نفسه وأن الآثار الخاصة بديانة العصر الحجرى وما قبله لا تزال مجهولة تماما فلا سبيل إلى الخوض فيها .

ثانيا : الخطأ نشأ من أن المذهب التطورى يذهب إلى قياس الأديان على الفنون والصناعات والانتقال من الضعف إلى القوة .

وإن حياة الإنسان الروحية ليست بالضرورة ملازمة دائما لحياتهم المادية .

ثالثا : لقد سقط المذهب التطورى عن المرتبة العلمية بعد ما أثبته ماكس مولر عمدة الباحثين فى الأديان البشرية القديمة من أن الناس كانوا فى أول عهودهم موحدين الذات الإلهية معددين للآلهة عاشوا على ذلك التوحيد دهراً طويلا ثم طرأت عليهم الوثنية بفعل زعمائهم الدينيين .

رابعا : التاريخ يفند النظرية إذ كان إبراهيم عليه السلام وقبل المسيح بألفين وخمسمائة سنة على عقيدة التوحيد الخالص ولا يزال يوجد الآن بعد ألفى سنة من المسيح عشرات الملايين على عقيدة الشرك .

خامسا : مصادمة نظرية التطور للفطرة التى فطر الله الناس عليها : فطرة الخضوع لله عز وجل خالق الكون : وهذا ما يؤكد (أصالة التوحيد) وفطرته وأنه عقيدة الإنسان الأولى .

سادسا : الكتب السماوية متفقة على أن الجماعة الإنسانية الأولى لم تترك وشأنها تستلهم غرائزها وحدها ، بغير مرشد بل مضت تغذيها السماء بنور الوحى منذ أول يوم فكان أول البشر أول المؤمنين الموحدين .

عن ابن عباس : كان بين نوح وآدم عشرة قرون ، كلهم كانوا على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين اقرأ (كان الناس أمة واحدة) — البقرة ٢١٣ .

(محمد أحمد الحاج)

إخوان الصفا

ترددت الدعوة إلى إحياء الفكر البشرى والوثنى والباطنى فى السنوات الأخيرة وتحدث بعض الكتاب عن إخوان الصفا وأشادوا بهم والحقيقة أن إخوان الصفا ليسوا من المفكرين الأحرار ، ولكنهم جماعة سرية هدامة ، فهم كانوا يدعون إلى غاية مقصودة وهى إقامة إمام بعينه وبصراحة ولكنهم أحاطوا هذه الصراحة بلون من دقة البحث ونعومة النسيج وإتقان الصقل ، وخلاصة أمرهم أنهم أسسوا جمعية سرية هدامة ، فى مطلع القرن الرابع الهجرى ، أفرغت على نفسها هذا اللقب البراق الخادع ، ظاهرها طلب المعرفة والانتصار لأهل بيت رسول الله ﷺ وباطنها (هدم بيت محمد) أى دينه الشريف وإزالة دولته الموحدة من الوجود وإقامة دولة لها دين مزيج من إسلام ووثنية بحيث لا يستطاع فصل أحدهما عن الآخر ، لذلك كان الاقدام على ذلك المزيج إقداما على عمل خطير محفوف بكثير من المزالق وغير مأمون العاقبة .

وقد ألف هؤلاء الدجالون عدة رسائل أطلقوا عليها (رسائل إخوان الصفا) وهى عبارة عن سياحة تنتقل بك من حقيقة إلى خرافة ، ومن حق إلى باطل ، ومن منطق إلى سفسطة ، وهى ملغمة بأنماط من تعاليم مزدك ومانى وزرداشت ، وهم قوم ملحدون وزنادقة يموهون بمظاهرة كل فرقة بينهم ويجرون فى ذلك مجرى المجوس والماسونية التى استهوت مختلف الطوائف والأنماط ، فهم أعرف الناس بدس السم فى الدسم ، تارة باسم المعرفة وأخرى باسم البركات والنفحات الروحية ، وقد انخدع فى أعمال هذه الجمعية السرية كثير من رجالات الفكر والأدب والدين ، إن رسائل إخوان الصفا التى تترجم عن افكار (ابن ميمون) لم تخلص للاسلام ولا الفلسفة ، وأقل نتائجها أنها جرؤت على تحريف القرآن الكريم وإخراجه عن ظاهر التفصيل إلى بواطن التأويل .

وقدم هذه الرسائل عند طبعها الدكتور طه حسين وأحمد زكى باشا وقال طه

حسين (إنما هم مفكرون مستقلون يحاولون أن يصبغوا ما انتهى إلى المسلمين من آثار الأمم الأخرى صبغة إسلامية وكان من زعمائهم جماعة كالفارابى وابن سينا وغيرهم .

وقال محمود الملاح فى التعليق على مقدمة طه حسين :

إن هذه النحلة الهدامة تحاول صبغ الملة الاسلامية صبغة الأساليب الوثنية المتضمنة للشرك والعبودية والرجوع بالمسلمين إلى الوراء بعـــد أن ذاقوا نعمة التوحيد الخالص .

ولقد حاول طه حسين أن يتهم الغزالى بالتأثر برسائل إخوان الصفا ، بينما كان الغزالى معروفا بمحاربة الباطنية فيبعد أن يتأثر بفلسفة الجماعة المذكورة ، ولما وصف طه حسين هذه الرسائل بأنها كنز لم يقدر ثمنها قال محمود الملاح : إنه كنز مملوء بالأفاعى والعقارب وأن قيمة الرسائل بخسة الغاية والهدف وقال إن كتمان الأسماء قد نفعهم من جهتين : أنهم تظللوا بكهف التقية الكثيف لئلا تحترقها أشعة السيف وإن الرسائل التى تكتم الأسماء تكون أكثر إغراء للناس وتشوقا إلى رسائلهم .

قال أبو حيان التوحيدى : وكان أفراد هذه العصابة قد تألفت فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله ورسائلهم مبثوثة فى كل فن وهى خرافات وكنايات وتلفيقات وتزييفات وقال عنها الشيخ أبو سليمان المنطقى : تعبوا وما أغنوا ونصبوا وما أجدوا ونسجوا فهلهلوا .

فاذا وقع البسطاء تحت تأثير كتب إخوان الصفا وشراكهم وحبائلهم فلهم عذرهم ، ولكن المؤسف أن نرى بعض العلماء الأعلام والمتخصصين من رجال الفكر والدكتوراه يقعون فى شباك الهدامين وليس لهم من عذر لأن القراءة السريعة دون التعمق وسبر الأغوار توقع الناس فى المهالك .

وقال عنهم جبور عبد النور : فى تعاليم إخوان الصفا رواسب من وثنيات

قديمة مختلفة ، فتعاليمهم أشبه بقوس قزح من حيث تعدد الألوان ومن تلك الالوان مذهبهم فى الكواكب والأفلاك ، وقد اعتمدوا على الغايات الظاهرية لتحقيق الغايات الباطنية ، إننا فى وسعنا القول بأن إخوان الصفا معتزلة وفيثاغوريون وأفلاطونيون ومجوس لأن لكل هذه النزعات أثراً بارزاً فى الرسائل ولأن هذا الخليط يتجاوز فيها على غير وفاق .

ونحن واجدون فى نصوصهم فقرات مموهة تشير إلى أن فى قرارة نفوسهم ميلا إلى الوثنية معدلة ومخففة وهنات مكثفة بحيث يضيع على الدارس تعدد الأصداء » .

هذا فضلا عن اتهامهم القرآن بأسرار النقط والحروف والبسملة ، وكذلك الأرقام وفواتح السور الكريمة وأسرارها التى تفوق ما ورد فى كتاب مشارق اليقين لمؤلفه رجب البرسى عن (الجاح عن الأمير غلوس) . (ومن مراجعة حقيقة إخوان الصفا لمحمود الملاح) .

السلفية

يحاول بعض كتاب التغريب وصف أصحاب الأصالة والرشد الفكرى والذين يلتمسون منابع الاسلام بأنهم « السلفية » انتقاصاً لهم، بينما أن التزام منهج السلف هو التماس منهج أهل السنة والجماعة الذى يحمى المسلم من الانحراف نحو الفكر الوثنى والمادى وتحريرهم من فكر الباطنية والفلاسفة والاعتزال والتصوف الفلسفى ، فهى حماية من سموم الفكر البشرى الزائف الذى يجـــدده أهل الباطل ، وهى كما يقول (عبد العليم الودغيرى) حماية للفرد من الاستلاب الفكرى والحضارى ، وتحطيما للقيود والأغلال وليست خضوعا لها ، ولذلك كان السلفيون الحقيقيون فى كل مراحل التاريخ هم أصلب الناس فى الحق وأجرؤهم على الباطل ، وهم أكثر الناس شعوراً بالأمانة وإحساساً بالمسئولية ، ولم يكن كل علماء الإسلام ورجاله سلفيين ، لأنهم كانوا يجعلون العلم مطية للعيش ، فوصلوا به إلى شىء من أغراضهم العاجلة ، أما الآخرون فكان العلم طريقهم إلى إضاءة مجتمعهم وهو طريق صعب لاقوا فيه

أنواع المحن والأذى ، فما وهنوا وما ضعفوا ، ولقد ارتبط اسم السلفيين في المشرق مع نهاية القرن الماضي بالنهضة الحديثة ، والانبعاث الجديد ، إذ كانوا روادهما ، كما ارتبطت الحركة السلفية بالمغرب خلال النصف الأول من هذا القرن بتاريخ الحركة الوطنية وتاريخ الصراع مع الاستعمار الفكرى والاستيطانى ، كما ارتبط اسمها بالنهضة العلمية والوعى السياسى والتقدم المادى ، وكان مفهوم الحركة السلفية إذن على امتداد التاريخ يعنى الريادة الوطنية والفكرية والدينية دائما تحمل اللواء ودائما تتصدر الأحداث ، ثم جاء من ينكر هذه الحقائق كلها فنسب لهذه الحركة كل تقصير وأدانها بأكثر مما كان يدينها به الرجعيون والاستعمار نفسه ، حين كانت تلاقى منهم ومنه العذاب الأليم ، كان السلفيون فى زمانهم مقاومين ومجاهدين فحاكموهم بمقتضى إيدلوجيات لم يكونوا يؤمنون بها وبمعايير فكرية لم تكن موجودة إذ ذاك ، بحثوا عن كل شيء يجعلهم فى نظر الجيل الحديث متخلفين رجعيين ، متزمتين منغلقين ، متعصبين ، إلا أن الايدلوجية حجاب ، ترى لماذا تتعمد التنكر لجهود الإسلام مع أنها جزء من تاريخنا .

تزييف المصادر

لم يقتصر الأمر على تكذيب المصادر الإسلامية المعتمدة ، من المستغربين من العرب والمسلمين الذين أعانوا الأجانب وعاونوهم فى الدس والتشويه والتشكيك .

هل سيبقى المستغربون فى موقف المتفرج بعد أن وصل عبث الأجانب بأقدس مصادر المسلمين الدينية إلى أبعد حد أم سيكون لهم موقف آخر .

لا أتصور أبدا أن يتقبل مسلم مهما تكن درجة تلوثه بأدران الاستعمار الفكرى أقدام أجنبى حاقد على الإسلام والمسلمين على مصادر الدين الإسلامى الموثوق بها يشكك فى صحة ما ورد فى كتب الحديث الصحيح وكتب مذاهب الفقه الإسلامى فيرفض ما يرد فيها من أحاديث صحيحة وأحكام فقهية مجمع عليها وإلا لكان هذا المسلم ليس مسلما حقا بل مسلما جغرافيا .

لا ألوم على الأجنبي غير المسلم فى التشكيك والدس على المصادر الإسلامية تحقيقا لأهدافه المعروفة المكشوفة فى التشكيك والدس ، ولكنى ألوم المسلم الذى يروج لمثل هذا التشكيك والدس دون أن يعود إلى المصادر الاسلامية باحثا ليكون على بينة من الأمر فاذا ثبت وامتنع فان واجب الأمانة يقضى عليه أن يحكيها بلفظها الذى رآه فى مصدرها الاسلامى لتكون تبعة روايتها على راويها الأول وليخرج من عهدتها .

أما النقل من المراجع الأجنبية فى القضايا الإسلامية دون الرجوع إلى المصادر الاسلامية المتعمدة فخطأ فاحش لا مسوغ له ولا عذر لمن يفعله ويودى به إلى مادرى به نقل المؤلف العربى المسلم عن المراجع الأجنبية من خطل شنيع .

والعالم حقا هو الذى يتحرى ويثبت فيما نقول ويكتب ، هذا هو شعار علماء السلف الصالح ، يوم كان الناس يخافون الله فيتحرون الصدق .

أما اليوم بعد تنظيم الهجمة على التراث الاسلامى والمصادر الاسلامية وأصبح هذا التراث وتلك المصـــادر مطوقة من الخارج بالمستشرقين وأضرابهم ، ومن الداخل بالمستغربين وأذنابهم فأصبح التحرى والتثبت واجبا لا محيد عنه ونجاحه فى النقل من المراجع الأجنبية بدون استثناء وعن المراجع العربية الاسلامية إلا إذا كان المؤلف معروفا بالصلاح والاستقامة والالتزام بالدين الحنيف .

ازدحمت المكتبة العربية والاسلامية فى هذا القرن بالذات بطائفة تختلف ألوانها والغرض منها وتتحد فى الموضوع ، تلك هى الكتب التى ستتناول حياة النبى ﷺ وسيرته وسيرة أصحابه وعصرهم على أسلوب من (الفن) أو أسلوب من رواية التاريخ أو لون من ألوان التربية الدينية فثمة عشرات من الكتب والمقالات لعشرات من الكتاب قد اتخذوا عصر النبوة موضوعا لحديث ذى أفانين يختلف من يتناولونه ذوقا وأداء وفنا ضمنها الكتاب الذى حاول كاتبه أن يجعله للتحقيق والرأى ،

والكتاب الذى خرج للفن وامتاع المادى ، والكتاب الذى هيأه مؤلفه للحوار والمسرح والكتاب الذى أنشىء لتصوير عبقرية ، وكانت كما تصورها الكاتب لا كما كان صاحبها .

وإنى لأخشى أن عدوى عدتنا من الأدب الأوربى الغربى والشرقى ، حين خيل إلى كثير من كتاب العرب والمسلمين ومؤلفيهم أننا من تاريخ عصر النبوة بإزاء مادة يستخدمونها فيما ينشئون للفن أو للتاريخ ، أو لما يريدون غير الفن والتاريخ ، كما استخدم أدباء أوربا وأمريكا ومؤلفوها الشرقيون والغربيون أساطير الاغريق وخرافات اليونان منذ عصر مضى .

ولكن تاريخ عصر النبوة لأعز على المسلمين وأغلى .

إن للفن حريته ولكن هنا فى هذه الحقبة من تاريخ الاسلام ينبغى أن تقيد بقيوده حتى لا تكون حريته سببا إلى فساد عقيدة أو إلى مسخ تاريخ ، وقد ابتلى العرب والمسلمون بطوفان من خريجى الجامعات الأجنبية الشرقية والغربية الذين انبعثوا إلى تلك الجامعات بعد تخرجهم من المدارس الاعدادية وهم فى ريعان الشباب وذروة المراهقة ليتعلموا فى الجامعات الأجنبية اللغة العربية والتاريخ الاسلامى والشريعة الاسلامية !

ولم يكن أولئك الشباب على علم بمصادر التاريخ واللغة والشريعة الاسلامية حين أوفدوا إلى الجامعات الأجنبية وبهرهم الأساتذة الأجانب وأكثرهم أعداء للعربية لغة والاسلام دينا ومراجعهم أساسا قائمة على الدس والتشكيك ، وهم لا يعطون شهاداتهم العالية إلا بعد أن يطمئنوا كاملا إلى انحراف طلابهم وأنهم سمموا أفكارهم وصاغوهم كما يريد الأعداء لا كما يتمنى الأصدقاء .

ويعود طلاب الأمس ودكاترة اليوم إلى بلادهم وهم لا يعرفون غير المراجع الأجنبية ويجهلون مصادرهم العربية الاسلامية ، ويشكون فى سلامة ما جاء منها

ويتهمونها بالتزوير ، ويطلقون عليها الكتب الصفراء فاذا تولوا مراكز التعليم فى الجامعات العربية والإسلامية بعقولهم المنحرفة وأفكارهم المسممة ومراجعهم الأجنبية المنحرفة الخبيثة ، نقلوا انحرافهم إلى طلابهم وسمموا عقولهم ونقلوهم من صفوف الأصدقاء والأبناء إلى صفوف الحاقدين الأعداء .

ولست أذيع سرا إذا أكدت أن ثمن منح الشهادات العالية للطلاب العرب والمسلمين من بعض الأساتذة الأجانب هو الانتماء لبعض المبادىء الهدامة كالماسونية التى هى جزء لا يتجزأ من الصهيونية ، لأن من أهم أهدافها إعادة بناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى فى القدس الشريف مسرى النبى ﷺ وأول القبلتين وثالث الحرمين وثمنها أيضا انحراف رسالة الطالب انحرافا يؤدى به إلى الكفر أحيانا فلا عجب أن نجد أكثر رسائل طلابنا بقيت سراً من الأسرار لم تنشر ولم يطلع عليها أحد من المسلمين منذ كتبت ونوقشت ومنح عليها صاحبها الشهادة العالية حتى اليوم ، لذلك أرجو من المسئولين عن الايفاد ألا يبعثوا للتخصص فى اللغة العربية والعلوم الاسلامية ، لأن الأساتذة هناك لا يعلمون طلابهم إلا الجهل والدس والتشكيك والانحراف .

محمود شيت خطاب

العمارة الاسلامية

لم تتوقف العودة إلى المنابع عند مجالات الفكر والأدب والثقافة ولكنها امتدت إلى العمارة بحثا عن الأصالة فى العمارة الاسلامية وقد حمل لواء هذه الدعوة الدكتور حسن فتحى منـــذ أكثر من ثلاثين عاما ، والعمارة الاسلامية جزء من أصالتنا وتاريخنا ومفهومنا الإسلامى يقول : على أرضنا بدأت العمارة وأصبحت فنا مقدسا فالبناء إبداع يبثه المعمارى كل روحه ويمجد به الحياة وقدرة الإنسان ، والمعماريون عندنا لا يكادون يعثرون على طراز للعمارة ظهر فى الخارج إلا ويسارعون بنقله باسم المعاصرة ، وأصبحت مدننا وعواصمنا خليطا يمثل طمس

الإنسان العربى وخنق شخصيته وروحه وحبسها فى مكعبات معمارية ، وقد اتسعت المأساة وانتقلت من المدينة إلى القرية والبادية ، ولقد وقع ذلك الافتراق بيننا وبين عمارتنا مما أوصلنا إلى حالة الاغتراب التى نعيشها وبعدت الشقة بيننا وبين تراثنا المعمارى الأصيل ويمتد ذلك إلى بعيد ، إلى زمن الاحتلال عندما خضعت البلاد العربية جميعا للاحتلال العسكرى واتجه فيها التعليم نحو الحضارة والثقافة الغربيين ووصلت ثقافتنا المعمارية والفنية إلى ازدواج الشخصية ، وأظهر ما تعيشه فى حيرة إما أن تكون مجتمعاتنا عربية فتعمل على تثبيت ميراثنا وتطوير فننا ، ليس لمسايرة الزمن فقط بل وسبقه أيضا أو تكون أوربية فتسير فى طريق الغرب ، ولا أقصد أن نغلق أعيننا وندير ظهورنا لنتاج الثقافات والحضارات الأخرى غربية كانت أو شرقية ، نافعة أو ضارة ، ففى بعض منتجات الثقافة المعمارية الأجنبية التخطيط الحديث والأشكال المعمارية المبتكرة والاستخـــدامات الإنسانية التى تستخدم الخرسانة المسلحة بما يحل مشاكل قائمة فى البلدان العربية والأفريقية أكثر مما يتعلق بالبلاد الغربية ذاتها ، فاذا أخذنا ما جرى فى مصر وجدنا أن التحول من العمارة التقليدية بدأ خلال فترة الاستعمار فى عهد الخديو إسماعيل الذى نادى بأن تكون مصر قطعة من أوربا وأخذت تحل محل العمارة الاسلامية ، العمارة التى ظهرت فى عصر النهضة فى إيطاليا مما انعكس على تخطيط المدن ولعل شارع محمد على فى القاهرة من النوع الذى أقيم فى هذه الفترة شاهد على ذلك فقد نقل من شارع بوليفار هوفان فى باريس . فقدت العمارة كل أصالتها وطابعها الخاص والمميز ، وكان وصول هذا التقليد الممسوخ إلى الريف من أخطر الظواهر بعد أن احتضن الريف طويلا الطابع الخاص ، هذا بعد أن كانت العمارة هى الاضافة الحضارية لمصر القديمة ، دخلت العمارة الاسلامية إلى مصر فى مطالع القرن الهجرى وشهدت أهم مراحلها فى العصر الفاطمى وهى ما زالت ماثلة فى الأزهر الشريف ومسجد الحاكم بأمر الله ووصلت إلى ذروتها وأدق مراحلها فى العصر المملوكى ، عندما أعطيت الفرصة كاملة للحرفيين والمعماريين وعمروا حسب مواهبهم وتفجر منهم الابداع حتى وصلت العمارة العربية فى مصر إلى قمتها فى القرن الرابع عشر وبدأ التوقف فى القرن الخامس عشر ،

ثم أعقبه الاضمحلال ودخل عصر إسماعيل مرحلة الاغتراب الكامل .

وعندما كنت أدرس فى المهندسخانة لم ندرس العمارة الاسلامية فالأساتذة الذين كانوا يدرسون العمارة من البريطانيين ، درسنا العمارة الأوربية ثم النهضة الأوربية الافريقية والرومانية ، أما اللمحات التى ذكرت عن العمارة الاسلامية فكانت فى إطار العمارة التاريخية وفنون البلاد البعيدة وقضى اللورد كرومر على النقابات وتجمعات الحرفيين المختلفة فأضاع آخر ما تبقى من التراث المعمارى ، ولكن بحمد الله بقى عدد قليل من الحرفيين الذين يصنعون بعض التكوينات الزخرفية مثل المشربيات أو المقرنصات على البيت الأوربى ، وهذا ليس طرازاً عربيا فالعمارة الإسلامية هى التشكيل القائم فى الفراغ والذى تشغـــله مجموعة المبانى والطرق والساحات التى يتكون منها يقوم الإنسان بتكوينه لإيواء كافة نواحى النشاط الحضارى التى تعبر عن ثقافة وشخصية ساكنيها أى أنه تشكيل ثقافى اجتماعى اقتصادى .

يقول جوستاف تبول : قديما كان الاغتراب الثقافى والحضارى يفرض من قبل الحكام (الأمبراطور الاسكندر فى روسيا ومصطفى كمال أتاتورك) أو يفرض بقوة الاحتلال الأجنبى ولكن اليوم تحولت الظاهرة إلى ما يمكن تسميته بالاستعمار الذاتى عندما تبدأ أمة بتقليد أمة أخرى برغبتها وليس بقوة الحكام ولا بقوة الاحتلال وهو ما يشهده العالم الثالث التى تسعى إلى تغيير لون جلودها معماريا وحضاريا وثقافيا إلى تغيير ملامحها الحضارية والثقافية وهذه لا شك نكبة كبيرة ، وتؤثر تأثيراً مدمراً على الشخصية وعلى نضوب ينابيع الابداع فى هذه الدول .

نعم ، لقد ارتفعت اليوم صيحات الأصالة والبحث عن الهوية وانعكست هذه الصيحات على اتجاه جديد نحو العمارة الاسلامية ، وأقام الأمير أغا خان جائزة لأهم عمل معمارى إسلامى ، قلت للأمير إن هذه الأموال ، من الأفضل إنفاقها على البحوث العامة التى تؤدى إلى إقامة نماذج للعمارة الاسلامية التى تراعى النواحى

الوظيفية والجمالية ، ويقوم بتحليل البيت العربى ، كما سبقنا إلى ذلك دانيال دالام وأثبت بالبحث العلمى سحر البيوت ذات الصحن كمنظمة للحرارة ، وكان من الأجدر أن يقوم أصحاب العمارة أنفسهم بهذه الأبحاث وأثبت أن درجات الحرارة فى البيوت الاسلامية أقل خمس درجات مئوية على الأقل عن مثيلاتها الحديثة فى الصيف وأكثر دفئا فى البرد .

وقام الدكتور عبد الرحمن سلطان أستاذ العمارة فى طوكيو ، بدراسة النسب الجمالية للقاعة الاسلامية وأثبت أن نسبها وأبعادها الهندسية تخضع للنسبة الذهبية وأن إيقاعها منتظم مثل قطعة موسيقية .

إن البيت العربى ذا الصحن التى تفتح أبوابها إلى الداخل وبها عدد من الأحواض تساهم فى تلطيف الهواء والبيت للعربى هو بيت المستقبل ففى اسكتلندا وإيرلندا تنتشر البيوت المبنية على الطراز العربى .

إنى لا أعترض على العمارة الافرنجية بل أراها تناسب أهلها ولكنها لا تناسبنا هناك متبادلات ثقافية بين الثقافات والحضارة المختلفة والعمارة ليست من هذه التبادلات .

إننا ننقل النموذج الغربى فى الصحراء ، فتجد الزجاج الشفاف يخترق الأشعة فوق البنفسجية فإذا تعرضت واجهة غرفة مساحتها ٣ × ٣ لأشعة الشمس دخل الغرفة ما قيمته ألفا سعر حرارى فى الساعة ويحتاج بالتالى إلى (٢ طن) تبريد .

لا توجد فى الواقع دول متقدمة وأخرى متخلفة ، إنها أسطورة ابتدعتها الدول الصناعية لكى تجذب إلى فلكها الدول الصغرى فإذا صح التقدم والتخلف فى الصناعة فهو لا يصح فى الفنون والثقافة والتى منها المعمار ولكل دولة طابعها الخاص الذى تتميز به عن غيرها .

وقد صور لشعوبنا أن التطور والتقدم هو التفرنج ، وعندما ترجع لأصلك

يسارعون باتهامك بالتخلف لقد أدرنا ظهورنا لمنازل آبائنا وأصبحنا لا نبني لمتعتنا ، إنما تقيم منزل العم سام الذي كان خطوة فيه لا تخلف سوى الدوار .

إن الصفة الرئيسية التي تميز العمارة الإسلامية هي الانعكاف على الداخل وليس على الخارج ، وإذا كانت الأسرة العربية ما زالت تنظر إلى قدسية السماء ليس لقدسية الشارع بتلوثه وضجيجه وسياراته فالعمارة العربية هي الحل .

الباب الثاني

الشريعة الاسلامية

الأصالة الفقهية

أخطر ما أدخله الاستعمار فى البلاد الإسلامية هو : (القانون الوضعى) بأنظمته وقضائه والتعليم بمدارسه ومناهجه .

ولقد علت الصيحة فى العقود الأخيرة من القرن الرابع عشر إلى الدعوة إلى مراجعة التشريعات التى كانت فى عهود الاحتــــلال والحماية والتى سنها المستعمر وأعوانه لحماية مصالحه ، وقد كانت قوانينه أبعد ما يمكن من مزاجنا وتاريخنا وديننا بل لقد كان وضعها يرمى أساسا إلى محو مقوماتنا الأصيلة بالتدريج عن طريق نسخ النظام القانونى للبلاد وإن الخفى المنتشر فى مجتمعنا الذى يتجرع نفس القلق كذلك من تصدع واقعنا الثقافى الناتج عن التعليم المحدث بنفس التشويه والتضليل للقيام مقام اللغة العربية وثقافتها لتخلفهما بزعمهم عن ملائمة ضروريات الحياة المعاصرة والعلم الحديث ، وكان من الطبيعى أن تؤدى هذه المناهج الفاسدة التى تخلى فريق من المواطنين الشباب عن التراث القومى والاستسلام للثقافة الأجنبية والتقليد الأعمى ، إلى حد الانصهار لحضارة الفاتحين بدون قيد أو شرط .

ذلك أن المدارس التى أنشأتها السلطة الاستعمارية درست للشباب المسلم القوانين وأهملت الفقه المعمول به إلا فى مسائل معينة كالأحوال الشخصية وأصبح كل رجال القانون تقريبا يجهلون أحكام الشريعة ومقاصدها وأن هذا الجهل أدى إلى تفسير النصوص الفقهية عند تطبيقها حسب تأويل تمليه فى ذلك مناهج القوانين الوضعية كما أدى إلى أن تعطل معظم المحاكم العادية .

دعوة الأصالة الفقهية : التى هى فى الحقيقة دعوة إلى تصحيح أوضاع لم يبق أمرها قابلا للمماطلة والتسويف وتناد إلى استرجاع حق مسلوب ونصرة شخصية مهضومة بالاصطلاح المستعمل الآن عند الكلام على الأصالة يجرى بمعنى الالتزام بالاستقلال الذاتى دون أن يقصد بهذا المعنى الشذوذ والاعتزال .

دعوة الأصالة تقتضى الفهم الصحيح للدين ورسالتـه الشاملة للحياة وإحياء الروح الدينية الحقيقية فى النفوس وحملها على إكتشاف ذاتهـا وتعلقها بالأصول وترويضها على رفض كل سيطرة أجنبية تفرض سلطتها بالقوة أو ثقافتهـا عن طريق الحيلة والاستدراج ومبادىء الإسلام لا ترضى للمؤمن أن يكون ذيلا لغيره فى أفكاره وسلوكه .

فمعرفة الذات وفهم الواقع هما واجب الفكر الإسلامى المعاصر .

(عبد الكريم بن جلون)

الشورى ليست هى الديمقراطية

هل الشورى الإسلامية هى الديمقراطية وهل النظام الديمقراطى الآن (الاحزاب والانتخابات والدستور والمعارضة) هى المطلوب أن يكون عليه النظام الإسلامى إن كان لا ، إذن فما هى القاعدة الأساسية التى ينبنى عليها هذا كله : هى الشريعة الإسلامية ، فاذا استقر هذا كان النظر فى هذه الأنظمة يسيرا ، أما أن يقال إن هذا النظام الديمقراطى القائم وفق مفهوم العلمانية يكفى ليكون هو النظام الإسلامى فذلك خطأ بين .

إن الغربيين خصوم الإسلام وأتبـــاعهم من الغربيين يريدون أن يحتفظوا بأصنامهم وكلماتهم ونظمهم تحت دعوى أنها تمثل الإسلام أو أن الديمقراطية هى الشورى وهذا باطل ، فان تطبيق الشريعة الإسلامية يتطلب إعادة النظر فى كل هذه الهيا كل القائمة على الديمقراطية الغربية والتصرف فيها لأنه لاحاجة اليها أساسا ولماذا هذا الاصرار على أن يكون هذا الواقع الذى أعلن الغرب صاحب النظام الديمقراطى فساده ، ثم يجىء الغربيون ليجعلوه أساسا للحديث عن نظام إسلامى جديد .

إذا كانت الحكمة ضالة المؤمن فليس هى نظام الديمقراطيـة الغربى الفاسد

بشهادة أهله أنفسهم ليس أصلح الأنظمة ، وليس معارضة ضمانات الحرية والديمقراطية لمجرد أنها لم يجر العمل بها عن السلف أو أن النصوص لم تشر اليها بعبارة قطعية ، أو أن تفسير النصوص يحتمل أكثر من وجه ، إنما بسبب أكبر من ذلك وأهم من ذلك كله : ذلك أن الإسلام فى شوراه له نظام مختلف عن النظام الديمقراطى القائم على الانتخاب والبرلمان وأنه لا يرى أن اختيار ممثلى الأمة هو غاية الغايات وإنما يرى أن تطبيق القانون السماوى هو الاساس ، أما ما يتعللون به من القول بما يسمونه حصاد التجربة الإنسانية فهذا كلام لا قيمة له ، إذ أن النظام الديمقراطى كله زائف أساسا ، منذ كان يطبقه الرومان ويجعلونه وسيلة من وسائل سيطرة السادة على العبيد ، وبعد أن أخذه الغرب فضلا عن أن الذى يتحقق ليس هو تنفيذ شرع الله .

فالأساس فى الإسلام هو أن الحاكم والمحكوم يطبقان شرع الله وليس مطلوبا من الناخب أو من الحزب أن يشرع .

إن الاعتماد على عبارات تلتقط من هنا أو هناك من الشافعى أو الشاطبى أمر لا قيمة له ، لأن هؤلاء ماكان يعيشون وضعا مثل وضعنا عزلت منه بلاد الإسلام عن شريعتها عزلة كاملة وفرض عليها نظام تشريعى آخر .

أما الممارسات التى ينظر إليها فليست هى ممارسات الغربيين لتطبيق الديمقراطية الزائفة التى يحقق وصول أى ديكتاتور إلى الحكم تحت أسماء لامعة ومنظمات خادعة ، وإنما هى ممارسات المسلمين لتطبيق الشريعة .

(٢)

لم تكن الشورى مجالس خاصة مؤلفة عن طريق الانتخاب أو التعيين ، إنما كان الخلفاء حينما يرون مقتضيا للاستشارة يستشيرون أحيانا من يثقون به ويطمئنون إلى رأيه وعلمه وتجاربه وكفايته ويطلبون أحيانا أخرى عن اجتماع عام

فى المسجد أو فى مكان ما فيعرضون عليهم ما يودون الاستنارة بما يراه المجتمعون بشأنه ، كذلك أن الخليفة كان إذا اقتنع برأى عمل به ولو كان مخالفا لرأى من استشارهم لأن الخليفة هو نفسه مجتهد وله الحق فى أن يستنبط الأحكام الشرعية من مصادرها وأن يطبقها على ما يجد من القضايا ، وقد حفظ لنا التاريخ حوادث كثيرة عمل فيها الخلفاء الراشدون برأيهم مع مخالفته لرأى الآخرين وتحملوا تبعة أعمالهم وأظهر مثل لذلك تصرف الصديق رضى الله عنه فى الحروب التى اشتهرت فى التاريخ باسم (حروب الردة) وهى الحروب التى أعلنها الصديق عقب وفاة الرسول عليه السلام على عدة قبائل من العرب ارتد بعضها عن دينه وامتنع كثير منها عن أداء الزكاة مع بقائه على عقيدته وإسلامه ، فقد كان رأى من استشارهم الصديق من الصحابة أنه لا طاقة للمسلمين بمحاربة هذه القبائل ، وأنه لا يجوز محاربة من امتنع عن أداء الزكاة مع بقائه على عقيدة الإسلام ، محتجين بقوله عليه الصلاة والسلام : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فان قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم ولكن الصديق رأى أنه من الواجب محاربتهم جميعا حتى يرد للإسلام هيبتــه ويحفظ قدسية شعائره وأركانه فلا تفتح ثغرة للاستهانة بتعاليمه ، وقال فى شأن من امتنعوا عن الزكاة قولته المشهورة : (والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونها لرسول الله لقاتلهم عليه متى استمسك السيف بيدى ، لقد كمل الله وتم الوحى أو ينتقص وأنا حى .

عقال بعير : كان على واقع زكاة الانعام أن يقدم إلى جامع الزكاة عقال ما يدفعه إليه من أنعام حتى لا يتحمل بيت المال ثمن هذا العقال .

(٣)

يقول الدكتور جمال الدين محمود : اختلاف عميق بين مفهوم الشورى ومفهوم الديمقراطية ، الشورى فى الإسلام : لغة : طلب الرأى وإظهاره وفى الاصطلاح الذى يعتمده البعض أنها استطلاع رأى الامة أو من ينوب عنها فى الأمور العامة

المتعلقة بها ، وأن موضوع الشورى أمر يهم المسلمين (والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون) فالشورى تعد الفريضة السياسية للمجتمع ، وقد توسطت الفريضة الدينية وهى إقامة الصلاة والفريضة الاجتماعية وهى الانفاق فى سبيل الله (الزكاة) وينبغى أن لا نتصور الشورى فى النظم السياسية فحسب ، أو أنها النظام السياسى للإسلام ، فان ذلك التصور هو الذى يقود إلى أنها البديل الإسلامى للديمقراطية وحكم الأغلبية ، فالواقع أن الشورى أهم وأوسع من أن يكون نظاما للحكم فحسب ، بل هى فريضة إجتماعية قبل أن تكون صورة لنظام سياسى . ذلك أن المفهوم الإسلامى للشورى يتسع للمسائل السياسية والعلمية والدينيـــة فطلب الرأى والاستعانة بخبرة الغير ورأيه فضيلة إسلامية على المستوى الفردى والجماعى وفى كل مؤسسات المجتمع العلمية أو السياسية أو الدينية .

ويدل التطبيق الإسلامى الأول لمفهوم الشورى على أنها كانت تطبق على أوسع نطاق ولم يقتصر على ما بعد الآن فى مسائل نظم الحكم والمسائل السياسية بوجه عام ، بل تعدى التطبيق إلى كل مسألة يكون استطلاع الرأى فيها مفيدا قبل اتخاذ القرار .

ومن هنا كان اختلافها عن مفهوم الديمقراطية الغربية .

فقد نشأت هذه الديمقراطية على أساس التراث الاغريقى فى الفلسفة ، ويبقى أن نبين أن أهم سماتها حكم الأغلبية ولم تكن واردة فى ذلك التراث بل كان الامر على العكس ، كان المجتمع الاغريقى أبعد ما يكون عن الديمقراطية بمفهومها المعاصر وكان لا يعتز إلا بطبقة واحدة من المواطنين لها حق مناقشة مسائل الحكم جميعا ، وهذه الطبقة هى الأحرار السادة وكانت نسبتهم إلى الناس واحد إلى خمسة تقريبا مع التطور الاجتماعى والسياسى الطويل استقرت الديمقراطية الغربية بمعنى حكم الشعب للشعب .

ومن هنا فان مبدأ حكم الأغلبية ، والحق في المعارضة لا يتفرعان من مبدأ الشورى الإسلامية فى الأصل ، فالشورى هى ميزان الحق ، أما مبدأ الكثرة فهو ميزان الأمن إذ يقصد به اتباع رأى الأكثرية مطلقا عند التنازع حفظا للأمن (الاعتداد بالكثرة وتعليلها عند النزاع وليس عند البحث عن الحقيقة) .

فاذا كانت الشورى تضمن التوصل إلى الحق فان الأغلبية تضمن الوصول إلى الأمن ومن هنا تظهر أهمية مبدأ الأغلبية فى النظام السياسى الإسلامى الذى رفض وقوع الفتنة فى المجتمع رفضا حاسما .

والحق فى المعارضة مضمون فى الإسلام بنصوص يكفله كالولاية المتبادلة بين المؤمنين التى قررها القرآن الكريم ، والحق فى التناصح كما تبينه السيرة النبوية ونبتعد عن المفهوم الإسلامى الأصيل حين نصف هذه الولاية المتبادلة .

والحق فى التناصح بأنه معارضة والاسلام يمنح ذلك لكل الأفراد فى المجتمع وبصفتهم أفراداً وليس من اللازم أن يقوم حزب أو هيئة معينة لممارسته ، والولاية المتبادلة وحق التناصح فى الاسلام يفرض كلاهما التسوية بين الآراء حتى يتبين للعقل التمييز والاختيار بينهما ، وقد قبل النبى (ﷺ) الرأى فى مسألة أسرى بدر وقبل عمر رأى إمرأة ناقشته فى التغالى فى المهور .

وهذا أدخل فى باب الولاية المتبادلة وحق التناصح من المسلمين منه فى باب المعارضة بمفهوم النظم السياسية المعاصرة .

فالمعارضة فى الاسلام ممتنعة بحكم الشرع والآيات تقرن طاعة الرسول وطاعة الله (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) الآية .

(٤)

الشورى الاسلامية والديمقراطية الغربية

إن أهم الأخطاء التي يقع فيها دعاة الاصلاح فى الشرق الاسلامى هو استعمال المصطلحات السياسية الغربية للدلالة على فكر الاسلام والدولة الاسلامية وذلك حرصا منهم على إبراز الاسلام كفكر متقدم ، ولكنهم يسيئون وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فتارة يصفون الاسلام بأنه نظام ديمقراطى وطوراً ينعتونه بأنه نظام اشتراكى ومرة يقولون أنه نظام الحزب الواحد وأخرى يسمونه نظاما برلمانيا ، ووصف الإسلام بالديمقراطية مثلا أو سواها من الألفاظ السابقة ينطوى على خطر أكيد ، ويدل على سطحية فى التفكير وضيق فى الأفق لدى من يصفون الاسلام بهذه الأوصاف ، وذلك لأن هذه المسميات جميعا غير دالة فى نطاق نظرة الاسلام العامة ولا مرت بتاريخه أبداً ، حيث أن إطلاق أى لفظة من الألفاظ التى تستعمل لوصف الاسلام بها كالديمقراطية أو البرلمانية أو الثيوقراطية أو غيرها بعيدة كل البعد عن حياة الاسلام وفكره وتاريخه ، وأن الغربى عندما يستعمل هذه الألفاظ يكون فى ذهنه أحداث تاريخ الغرب التى صنعها فى الماضى والحاضر ، والتى أدت إلى هذه المصطلحات ، فمن هنا فان هذه المصطلحات جزء لا يتجزأ من تاريخ واضعيها وماضيهم وحاضرهم ، فعندما هزمنا الهزيمة الفكرية المريرة أمام الغرب ، أخذ بعضنا بحسن نية أو بسوئها هذه الألفاظ كحقائق مطلقة تحمل معان ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ، وأنها كما صلحت لدى الغرب تصلح لدى الشرق ، وقد تغافل عن نقل مثل هذه المصطلحات من المراحل التى مرت بها فى التاريخ الغربى . بينما كل مصطلح من هذه المصطلحات هو جزء من تراث أمة ولا تصلح لأن يعبر بها عن الإسلام فلفظ (الديمقراطية) هذا الذى يستهوى الكثيرين قد أصبح وكأنه الحل الوحيد والأمثل وهو العدل المطلق ، هذا اللفظ يستعمل فى الغرب هذه الأيام بالمعنى الذى أضفته عليه (الثورة الفرنسية) وهذا المعنى هو المساواة فى الحقوق

السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ويكون ذلك عن طريق هيئة نيابية تشرع لجميع الامور العامة وتقوم بالرقابة على الحكومة ، هذه الهيئة سيدة نفسها ولا تسأل أمام غيرها أبدا وما يقال عن الديمقراطية يقـــال عن أغلب المصطلحات السياسية والاقتصادية التى هى جزء من التفكير السياسى الغربى بمعنى أن جذورها تمتد إلى أعماق تاريخ الغرب ولا يمكن فصلها عنه ، فمحاولة وصف الإسلام بها أمر فيه خلط وإبهام وشذوذ ، لأن هذا العمل كمن يركب شجرتين فى فصيلتين مختلفتين . أما الإسلام فله تصوره المستقل الواضح عن الكون والإنسان والحياة وعن الدولة ونظامها ، وتحقق العدل والمساواة لمواطنى دولة الإسلام ، وكذلك عن كيفية معالجة النظام لها لما يستجد من أحداث ، فالإسلام نظام يختلف كل الاختلاف عن (الديمقراطية الغربية) فبينما يقدم جوهر الديمقراطية على انتخاب هيئة تمثل الشعب وتسن القوانين للحكومة وتراقب الحكومة ، وهى سلطة ليست مسئولة أمام سلطة أخرى ، يقوم تصور الإسلام على أن أفعال العباد جاء تنظيمها من الله تبارك وتعالى ، لذلك لا محل فى الإسلام لسن قوانين من قبل الناس لتنظيم علاقاتهم ، لانهم مأمورون أصلا بالتقيد فى الاحكام الشرعية قال تعالى :

(ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه) .

وقال تعالى : (ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) فنظرة الإسلام إذن هى أن الإسلام هو الذى شرع الاحكام وليس الناس أو السلطان وهو الذى أجبرهم وأجبر السلطان على اتباعها فى علاقتهم وحصرهم بها ومنعهم من اتباع غيرها وأن مهمة استنباط الاحكام من مصادرها الأساسية لمعالجة ما يستجد من أحداث هى لفقهاء الإسلام والامام هو الذى يتبنى من آراء الفقهاء الأقوى دليلا والأنسب لمعالجة الحدث المستجد ، وإن مجلس الشورى فى الإسلام هو لأخذ الرأى والاستشارة فى الأمور العامة للدولة على المستوى الداخلى والخارجى والتى تستدعى أخذ الرأى والمشورة ، لا لسن القوانين والتشريع ويمكن لأى فرد فى مجلس الشورى أن يجتهد فى المسألة المعروضة كغيره من المجتهدين

خلاصة القول أنه من باب التضليل المؤدى إلى أبعد الحدود أن يحاول الناس تطبيق المصطلحات التى لا صلة لها بالإسلام على الاقطار والأنظمة الإسلامية : لأن للاسلام نظاما متميزا يختلف فى جوهره عن الأنظمة الغربية ، ولا يمكن للاسلام أن يفهمه إلا فى حدوده وأحكامه ومصطلحه ، وأى خروج عن هذا الأمر يؤدى إلى التخبط وإلى مزيد من السطحية التى أدت إلى غموض وعدم وضوح مفاهيم الإسلام بشكلها المشرق الوضاء .

(الدكتور محمد سماره)

(٢٣)
تطبيق الشريعة

يقول العلامة الشيخ محمد أبو زهرة : إن من يريد أن يعرف منزلة الشريعة الإسلامية وأنها درجة قوى مستوى العقل البشرى فليوازن بينها وبين القانون الرومانى لأن القانون الرومانى قد استوى على سوقه وبلغ غاية كماله فى عهد جوستنيان ٥٣٣ بعد ميلاد المسيح وكان فى ذلك الوقت صفوة القوانين السابقة وفيه علاج لعيوبها وسد لخللها من يوم أن أنشئت روما ٧٤٤ ق . م إلى ٥٣٣ بعده ، اى أنه ثمرة تجارب قانونية لنحو ثلاثة عشر قرنا ظهرت فيها الفلسفة اليونانية وبلغت أوجها وقد استعانوا فى تلك التجارب القانونية بقوانين سولون لاثينا ، وقوانين ليكورغ لاسبرطه أو نظام اليونان بعامه ، المناهج النظامية والفلسفة التى فكر فيها الفلاسفة اليونان ليسا أمثل النظم التى يقوم عليها المجتمع الفاضل . إن القانون الرومانى هو خلاصة ما وصل اليه العقل البشرى فى مدى ثلاثة عشر قرنا فى تنظيم الحقوق والواجبات فاذا لو قارنا بينه وبين ما جاء على لسان محمد النبى الامى وأنتجت الموازنة أن العدل فيما قاله محمد ليس من صنع بشر وأنه من الله العليم الحكيم — كان الرق فى الحضارة اليونانية حقيقة مقررة ثابته ، أقر فلاسفة اليونان نظامه وعدوه عادلا لا ظلم فيه وقرر أرسطو أن الرق نظام الفطرة لأن من الناس ناسا لا يمكن أن يعيشوا إلا

أرقاء وآخرين لا يكونوا إلا أجراء فجاء النبي فقرر مساواة الناس جميعا : المساواة القانونية .

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

كما دعا الإسلام إلى تخفيف المعونة على الأرقاء بينما يضاعف قانون الرومان عقوبة الضعفاء ، وبينما جعل القانون الرومانى الدائن يسترق المدين إن عجز عن الوفاء بينما قرر القرآن إن على بيت المال تسديد ديون المدينين إذا عجزوا كليا عن سدادها .

(٢)

واضعو القوانين ليسوا أعلم من الله بطابع البشر .

قال ابن تيمية : إن إقامة الحدود من العبادات كالجهاد فى سبيل الله ، وينبغى أن يعرف إن إقامة الحدود رحمة من الله بعباده فيكون الوالى شديداً فى إقامة الحد ، لا تأخذه رهبة فى دين الله فيعطلها .

يقول الأستاذ حسين خليل : إن الإسلام لا يعرف الواقعية ويفترض أن بعض الأفراد يمكن أن تجمح به الشهوات فيتعدى على الأعراض والأموال أو الطريق العام أو النظام العام الإسلامى أو غير ذلك ، والذى خلق النفوس يعلم داءها ودواءها ومهما تفتقت العبقريات عن القوانين فان واضعيها ليسوا أعلم من الله تبارك وتعالى الذى يعلم طبائع البشر وليسوا أعلم بما يصلح أحوالنا فالله يعلم وأنتم لا تعلمون :

إن الإسلام الذى اعتبرنا جسما واحداً يريد أن يحمينا من ذئاب الأعراض بما شرع من حد القذف وحد الزنا ويريد أن يحمينا من لصوص المال ، بما شرع

من حد السرقة ، ويريد أن يحمينا من قطاع الأرض البغاة بما شرع من حد الحرابة ويريد أن يحمى عقولنا من كل ما يغتالها بما شرع من حد الخمر ، ويريد أن يحمينا من كل ما يهدم الكيان الإنسانى من سفك الدماء وإزهاق الأرواح ، بما شرع من القصاص . ومن مزايا الشريعة الإسلامية .

* الاهتمام بالنص على الأساسيات وذلك يحميها من قصور الفكر البشرى .

* اهتمامها بالفرعيات فى تركها لمقتضيات الزمان والمكان وما يتفتق عنه العقل المؤمن من مقترحات ومبتكرات .

(٣)

دأب المستشرقون فى الغرب والشرق على القول بأن الفقـــه السياسى المحلى والدولى لا مكان له فى الفكر الإسلامى ، وأعانهم على ذلك أن الفقه الإسلامى لم ينل حظه من الابراز والدراسة كما ينبغى ، تركناه فى كتب التراث منثوراً ولم نعمل على تجميعه وصياغته فى نظرية واحدة نعيد كتابتها بلغة العصر ومصطلحاته

ما كتبه الماوردى وأبو يعلى : الأحكام السلطانية .
ما كتبه ابن تيمية : السياسة الشرعية .
ما كتبه ابن القيم : الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية .
ما كتبه ابن خلدون : فى المقدمة .

وفى العصر الحديث ما كتبه عبد الوهاب خلاف ، وشلتوت ، وأبو زهرة ، ومحمد عبد الله دراز ، وضياء الدين الريس .

واليوم نجد أن القانون الدولى العام والقانون الدولى الخاص يدرسان فى كليات الحقوق فى الجامعات وفق مناهج الفكر الغربى ولا نصيب فيها يذكر للفكر الإسلامى وهناك كتاب الدكتور محمد حميد الله الحيدر أبادى (جامعة السربون)

[الوثائق السياسية فى عصر النبوة والخلافة الراشدة]

هذا الكتاب وحده كفيل بأن يشكل لنا النظرية السياسية فى القانون الدولى وهناك دراسة عن العلاقات الدولية فى القرآن والسنة للدكتور محمد على الحسن حيث يشير إلى أن الحقل الدولى ربما كان العمل فيه قليلا وأمامنا مشكلة السلام العالمى التى تواجهها البشرية جميعا ونواجهها نحن ضمنا فهل للاسلام موقف منها إن ربط القرآن بالواقع هو أهم ما يبحث فيه إنسان .

— الدولة والعلاقات الدولية .

— العلاقات الدولية حالة الحرب (مفهوم الجهاد فى الإسلام) .

— العلاقات الدولية حالة السلم .

— المعاهدات .

— هل الحرب الإسلامية دفاعية فحسب أم هجومية فحسب أم دفاعية وهجومية معا ، ومن رأى الكاتب أنه لا مساغ لتقسيم الجهاد إلى هجومى ووقائى لأن هذا التقسيم لا يصح إطلاقه على الجهاد الإسلامى وإنما يصدق هذا المصطلح على الحروب القومية والوطنية .

(٤)

مقاصد الشريعة تدور على حفظ النفس والعقل والدين والعرض والمال والاجتهاد فى أمور الشرع لا يخالف معلوما من الدين بالضرورة ، ولا يصادم نصا قطعيا فى ثبوته قطعيا فى دلالته وممارسة الاجتهاد يحتاج إلى معرفة واسعة شاملة بالواقع الجديد بكل عناصره .

وقد حددت الشريعة العقوبات مقدما لجريمتين من الجرائم التى تعتبر اعتداء على المال وهاتان الجريمتان هما السرقة والحرابة ، فى السرقة يتمحض الاعتداء على المال وفى الحرابة تكون ارتكاب الجريمة بقصد الحصول على مال الغير .

(٥)

الأمور الخمسة فى قانون العقوبات الإسلامى :

١ — فرض حد الردة لحماية الدين .

٢ — شرع القصاص حدا للمحافظة على النفس (القتل أفدح اعتداء عليها) .

٤ — قنن عقوبة السرقة حداً لرعاية الأموال لأنها أقصى اعتداء عليه .

٥ — أمر بحد الزنا لتنقية النسل وهو أفحش اعتداء عليه .

٦ — جعل حد شرب المسكرات لصيانة العقـــل لأنه أكبر ما يفتك به ثم ترك سبحانه لكل شعب ما دون ذلك من مظاهر الاعتداء على الأمور الخمسة مما لا يبلغ مقدار هذه الجرائم شرع فيه وفق مصالحه وهذا ما أطلق عليه «التعزير» فالحد إذن هو عقوبة مقدرة لجريمة محددة ، والتعزير هو العقوبة التى لم تقدر لجريمة لم تعين وترك أمر تعينها وتقدير عقوبتها للمشرعين المستوعبين لكتاب الله وسنة رسوله القادرين على الاجتهاد والاستنباط منهما .

ويقول محمود شريف فهمى : اتفق الفقهاء بالإجماع على أن الأساس فى الحدود النصوص فلا ينبغى أن يكون هناك اجتهاد رفع النصوص وهى حدود الله تعالى أقامها فى المجتمع فاصلة بين الفضيلة والرذيلة وبين الصلاح والفساد فلم يتركها لوال أو إمام وإنما تولاها الشرع بالنصوص ابتداء لكى تخضع لها الأزمان والأحوال والأعراف قال تعالى : (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم) .

(٦)

إن تطبيق الشريعة الإسلامية ليس أمراً عسيراً ولا يحتاج إلى قلب القوانين الحالية رأسا على عقب وأنه يتصور أن يمر أمر التقنين على مرحلتين : (المرحلة الأولى) يرفع فيها التصادم العنيف بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية بتعديل قانون العقوبات المصرى وذلك بوضع القواعد الخاصة بالحدود الشرعية

المقررة فى الكتاب والسنة محل مثيلاتها الموجودة حاليا فى هذا القانون . وإن هذا الأمر قد تم فعلا . بمشروع قانون قدمه الدكتور إسماعيل معتوق إلى مجلس الشعب عام ١٩٧٥ وأن هذا الأمر احتاج إلى تعديل حوالى أربعين مادة فقط من مواد قانون العقوبات وقانون المخدرات التى تقرب من ألف مادة ، ومن جانب آخر فانه يجب إلغاء القوانين الربوية الموجودة فى القانون المدنى وأن تحل محلها مواد المشروع الخاص بالغاء الفوائد الربوية « أن يكون الاتفاق على نسبة الأرباح والخسائر ليس بالنسبة لرأس المال وإنما من الأرباح والخسائر » .

(الحوة دعبس)

(٢٤)

أصدر المؤتمر الثانى لمجمع البحوث الإسلامية (١٣٩١ — ١٩٧١) قرارات بشأن المعاملات المصرفية منهـــا أن الفائدة على أنواع القروض كلها ربا محرم ، ولا فرق فى ذلك بين ما يسمى بالقرض الاستهلاكى وما يسمى بالقرض الإنتاجى لأن نصوص الكتاب والسنة فى مجموعها قاطعة فى تحريم النوعين وإن كثير الربا قليله حرام كما يشير إلى ذلك الفهم الصحيح فى قوله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة) .

وقال مجمع البحوث إن أعمال البنوك والحسابات الجارية وصرف الشيكات وخطابات الاعتماد والكمبيالات الداخلية التى تقوم عليها الفصل بين التاجر والبنك فى الداخل كل هذه المعاملات المصرفية جائزة وما يؤخذ فى سبيل هذه الأعمال ليس من الربا .

هذه القرارات كانت بمثابة استجابة للذعر الذى ساد ميدان الاجتهاد الإسلامى حين صدر ١٣٨٠ — ١٩٦٠ استجابة لفضيلة الشيخ محمود شلتوت لبعض المحاولات العقلانية جرته معه إلى اجازة التعامل الربوى فى بعض صوره ، وهى الفكرة التى

تصدر من هيئات عامة ذات مالية مشتركة وترتب على هذا فورة فى نفوس الغيورين على الإسلام والمسلمين سجلها تاريخ الجهاد الإسلامى المستنير فى ندوة مجلة لواء الإسلام الغراء فأصدرت ملحقا خاصا بهذه الندوة فى رجب عام ١٣٨٠ ، ديسمبر ١٩٦٠ موضوعها :

(٨)

الربا والنظريات الحديثة فى الاقتصاد وموقف الإسلام منها

وقد تحدث الدكتور عيسى عبده إبراهيم وعارض هذا الرأى الخطير وهذه بالمنطق العقلانى الحديث والمنطق الإسلامى الأصيل وأبدى الشيخ محمد أبو زهرة إعجابه بما قال :

قال الدكتور عيسى عبده : إن الاقتصاد الغربى بزعامة كينز وغيره يسمى التخلص من هذا النظام الربوى الوليد فى عالمنا المادى الحديث وأشار إلى بدائل قال عنها شيخنا أبو زهرة إنها بمثابة (تطويع الاقتصاد للقرآن) :

إننا الآن نبنى أعمالنا وأمورنا على أسلوب الصناعات وتشجيع الإنتاج وذلك لا يكون بأن ندفع وننتظر جالسين فى المقاهى إنما الإنتاج أن أدفع وأراقب وأنتج وأعمل ، والربا والإنتاج على هذا النحو نقيضان ثم انتقد بشدة من يتحدثون عن التجاوز عن الربا باسم الضرورة قائلا : إن الضرورة كما قررها الرسول فانها تظهر فى قوله ﷺ :

(أن يجىء الصبوح والغبوق ولا تجد ما تأكله) .

وقال إن النظام الاقتصادى المالى نظام فاسد .

(دكتور سعد الشناوى)

(٩)
الفكر السياسى الإسلامى

الفكر الإسلامى له طابعه الخاص والمتميز وأهم الخصائص التى يجب أن نقف إزاءها لنلمس مدى الطابع المتميز للفكر الإسلامى تدور حول عناصر ثلاثة :

(أولا) الطبيعة الأخلاقية .

(ثانيا) فكرة التوفيق بين الفردية والجماعية

(ثالثا) عالمية وشمولية النظرة إلى الإنسان بغض النظر عن جنسه ودينه .

وهنا نلحظ أن الفكر السياسى الإسلامى يختلف عن جميع التيارات السياسية الأخرى ، فهو يرفض التقاليد الأوربية فى بغضها للفردية ويرفض الماركسية فى تأكيدها لسيادة العنصر الإجماعى وإلغاء الفرد ويرفض النازية أو الفاشية كنتيجة لمبالغتها فى تأكيد العنصرية . هذه الطبيعة المتميزة هى التى تفسر لماذا التراث الفكرى الإسلامى مؤهلا لأن يؤدى وظيفة خطيرة فى الأعوام القادمة ، والواقع أن ما يبدو لنا فى هذه اللحظة أنه يقظة فجائية للعالم الإسلامى وأنه دفعة غير متوقعة لاتباع التراث الإسلامى من سبق وتنبأ به علماء المستقبليات فى الغرب نذكر مثلا (وات) العالم الانجليزى منذ بداية الستينات وقبله بخمسة عشر عاما الأمريكى (سميث) وقبلهما منذ بداية الحرب العالمية الأولى أحد كبار المفكرين السوفييت التى ظلت كتاباته غير معروفة فى العالم العربى نفسه حتى الأعوام الثلاثة الماضية ، الجميع يتحدث اليوم عما يسمونه نهاية الايدلوجيات . هذا هو السبب الحقيقى فى أن التراث الإسلامى بعصريته الكائنة فى طبيعته سوف يقدر له وظيفة معينة لو استطاع الواقع الإسلامى المعاصر أن يطور نفسه ليواجه مقتضيات العصر الذى يعيشه .

وأهم عناصر التطويع تدور حول متغيرين أساسيين :

(الأول) بناء نظام فكرى ينبع من القيم الاسلامية ويخاطب رجل الشارع في عصر التجمع الجماهيرى الذى نعيشه .

(الثانى) قدرة الواقع الاسلامى على أن يخلق لنفسه ذلك التنظيم القادر على بناء مسالك الاتصال الصالحة للتغذية المعنوية للقوى السياسية والاجتماعية على أن تمثل الأرض الصالحة لاتباع الفكر والقيم الاسلامية :

القول بأن الفكر الاسلامى يتقوقع حول نفسه منذ العصر العباسى الأول صحيح وغير صحيح : صحيح فى العالم العربى ولكنه غير صحيح سواء فى العالم الاسلامى غير العربى أو العالم غير الاسلامى أى الأوربى، فى العالم الاسلامى غير العربى انتشر الفكر الإسلامى بشكل أو بآخر ويكفى أن نذكر أن حركات المقاومة الحقيقية للاستعمار البريطانى انطلقت من المفاهيم الإسلامية ، ولكن من الطبيعى أن الفكر لا يؤكد وجوده إلا فى المجتمع القوى ، وأنه أحد ملامح القوة الاجتماعية — والمجتمعات الاسلامية غير العربية بدورها خضعت لموجات غزو وتحلل فكان لا بد معها من أن تتراجع معها موجة الفكر الإسلامى ، على أن النجاح الحقيق والانتشار الذى يجهل علماؤنا وقعه هو المرتبط بالفكر السياسى الإسلامى فى العالم الغربى والأوربى فالفكر الإسلامى أساس الفكر الأوربى .

وتثبت الوثائق والأبحاث الحديثة أن الفكر السياسى الأوربى إبتداء من القرن الثالث عشر لم ينهل إلا من الفكر الإسلامى وأن مصادر الفكر (ابن سينا وابن رشد فى لحظة أولى) وفى لحظة ثانية (ابن خلدون) وإن الفكر السياسى فى حضارة عصر النهضة ما كان يستطيع أن يبنى إطاره للتنظير السياسى لو لم يقدر له الاطلاع على الفكر الاسلامى فى أسبانيا وصقلية وعلى الفكر اليونانى من خلال الفكر العربى لابن سينا وابن رشد ولا يعنى هذا أن الفكر الأوربى لم يقدم جديداً، ولكن البذرة وضعها الفكر الإسلامى بل ويمكن القول أنه أحد أسباب إخفاق يسة الكاثوليكية فى أن تؤدى وظيفة أساسية فى القرن ١٦ والقرن ١٧ الأمر

الذى انتهى إلى الثورة الفرنسية وحركات الإلحاد المعروفة باسم العلمانية فى القرن ١٩؛ هو نتيجة بعيدة وغير مقصودة لتلفت العالم الأوربى للتراث الإسلامى فى مواضع أخرى متخصصة أبرزها فى نواح ثلاث :

١ — القديس توما الاكوينى أولهم .

٢ — ثم جروسيس ثانيهما .

٣ — ثم مدرسة فقه الشرح على المتون فى بولونيا وفى فرنسا ثالثهما .

ورغم ذلك فلا تزال الكنوز المتعلقة بالوثائق بهذا الخصوص لم تثر اهتمام الباحثين العرب وهى تمتلىء بها الكنائس والأديرة فى أكثر من مكان فى أوربا الوسطى ولما كان تنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم هى ضرورة أساسية فاننا نلحظ أن تقاليدنا الإسلامية رغم القرن التاسع بين مجتمع القرن العشرين ومجتمع القرن الأول الهجرى كانت تقوم على أساس فكرة التنظيم . إن الدراسة الواعية لوثائق الحضارة الإسلامية تبرز أمرين :

(أولا) مبدأ الطاعة ليس بمعنى الخضوع الأعمى وإنما بمعنى احترام الأمر عندما يكون مشروعا .

(ثانيا) التماسك السياسى .

والتماسك يعنى العصبية ويعنى رابطة الدم ويعنى التكتل خلف الإرادة القائدة عندما حدث الخلاف بين معاوية وعلى حاول امبراطور الروم أن يستغل ذلك الخلاف فأرسل إلى معاوية يبدى إستعداده لإرسال جيش الروم لمساندته فكانت إجابة حاكم الشام وهو ليس بعد خليفه رغم كل ما يوصف به من أنه أعاد النعرة القرشية ليست فى حاجة إلى تعليق « اصمت وإلا أرسلت لك جيشا يبدأ فى المدينة وينتهى فى بيزنطه يقوده على » .

والواقع أن النقص الحقيقى فى المسلمين كقوة دولية فى عالمنا المعاصر هو أنهم

لا يملكون « التنظيم » ، صحيح أنه من آن لآخر ينعقد مؤتمر باسم الشعوب الإسلامية حيث يتلاقى الوزراء والحكام ويتحدثون عن مصاعبهم ويدخنون السيجار ولكن أين الشعوب الإسلامية وأين الاستمرار المؤسس ، فالفاتيكان يملك وجودا حقيقيا منتشرا خفيا فى جميع أنحاء المعمورة بما فى ذلك داخل الدول الإسلامية ، وهو قادر على أن يحرك القوى الضاغطة بما فى ذلك الدول الاشتراكية ، وهو الذى فرض كندى (أمريكا) على الحكم وهو القادر على أن يرعب أى قيادة عالمية فى الشرق والغرب والسبب فى ذلك هو أنه يملك تنظيما سافراً أحيانا ومستترا أحيانا أخرى ولكنه دائما صاحب الفاعلية .

أما فكرة فصل الدين عن الدولة فهى مرفوضة رفضا قاطعا وكل تفسير حقيق للتراث الإسلامى يرفض ولا يقبل الفصل بين الدين والدولة بل الواقع أن الحضارة الغربية التى تعود البعض أن يميل إليها لم تعرف ذلك الفصل إلا فى خلال فترة إستثنائية هى عقب الثورة الفرنسية ، وكان ذلك نتيجة لفشل الكنيسة الكاثوليكية فى أدائها لوظيفتها وهو فشل سرعان ما أعقبه فى نهاية القرن الماضى شعور بخطورته فجاء مايسمى باعلان الأشياء الجديدة للبابا فى عام ١٨٩٧ مؤكداً أن الكنيسة لن تقف منذ تلك اللحظة بمعزل عن الأحداث السياسية والواقع أن المشكلة ليست فى الفصل بين الدين والدولة وإنما هى تنظيم العلاقة بين عالم الدين ورجال الدولة ومن هنا يجب أن نفهم معنى (إعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله) بغض النظر عن أن هذه العبارة تعود إلى الفترة التى كانت تعيش فيها الكنيسة فى الخفاء والتى كانت فقط دعوة أخلاقية وليست دعوة مدنية خلال القرنين الأولين عقب وفاة المسيح وقبل أن يدخل فى الديانة الكاثوليكية أمبراطور روما ، فانها إما تعنى عملية تنسيق لعلاقات قد تترابط وقد تستقل ولكنها دائما تؤثر فى الأخرى وتتأثر بها ، على كل فان تراثنا الإسلامى يأبى ذلك .

إن الدين الإسلامى هو سياسة دينية ، والسياسة الإسلامية هى دعوة عقائدية وأحد العناصر الأساسية التى يقوم عليها النظام الإسلامى هو دعوة الفرد لأن

يضحى بحياته إن لزم الأمر لنشر التعاليم الإسلامية ومن ثم فأى محاولة لفصل الدين عن الدولة هى مغالطة للتراث والحضارة الإسلامية ، والمبدأ يظل قائما وهو أن السلطة واحدة وأن شرعية السلطة هى الالتزام الدينى .

والواقع أن تراثنا الإسلامى أساسه أن قواعـد الممارسة فى الحياة اليومية واحدة ومتناسقة تنبع من قيم ثابته ومطلقة لا فرق بين الحياة الخاصة والحياة العامة — آداب الممارسات سواء فى الحياة العائلية أو الجماعية هى دائماً تنطلق من مثاليات واحدة ، ومن ثم فاذا تعددت العلاقات فان هذا يمنع من وحدة القيم بل إن حضارتنا أبت إلا أن تجعل القيم واحدة لا فى التعامل بين المسلم والمسلم فقط بل فى التعامل بين المسلم وغير المسلم ، والشهامة الإسلامية المعروفة أثناء الحروب الصليبية التى أذهلت الجانب الأوربى كانت تعبيراً طبيعيا عن تقاليدنا الإسلامية ، وإن وحدة قيم الممارسة لا بد أن تؤدى إلى التشابك بين الحياة الدينية والحياة المدنية .

(دكتور حامد ربيع)

(١٠)
القوانين الوضعيه

القوانين الوضعية تستجيب دائما للتغيرات الاجتماعيـــة ولو كانت أمراضا وانحرافات تصيب المجتمع ، فانه إذا أصاب الناس غرام باللذة غير المشروعة أو بالشذوذ الجنسى أو باللهو وشرب الخمر فان القانون الوضعى يسارع إلى تلبية هذه الشهوات فيقننها ويجعلها سائغة مشروعة وفى هذا خطر كبير على المجتمع إذ أنه يحطم كل سياج أو إطار من القيم والمعنويات التى تحفظ المجتمع من التدهور نزولا على سفح ناعم إلى قاع الفساد ومما يزيد الأمر خطورة أن الداعين إلى ذلك يفلسفون هذا التدهور باسم الحرية والارادة العامة للشعب وأنه مصدر السلطات وصدق قول الله تبارك وتعالى :

(ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا) المائدة ٨٠ .

نزلت فيمن كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، فأولئك كانوا يلجأون إلى أهل السوء من أصحاب الرأى أو القوة يحتمون بهم فيتولونهم لرد حملات أهل الحق عليهم ، فأدى ذلك فى بعض البلاد إن شرع للعم أو الخال أن يتزوج من إبنة أخيه أو إبنة أخته وكذا هو يتزوج من عمته وخالته ، وشرع فى بعضها الآخر أن يتزوج من أخته غير الشقيقة ، وفى بعضها أبيح الشذوذ الجنسى لما رأوا من تمسك الناس به حتى صار جزءاً من حياتهم ، وتدور هنا فى مصر أحاديث فى بعض المجالس الخاصة عن أن حرمان الإنسان من الشذوذ هو اعتداء على حقوق الإنسان باعتبار أن الإنسان حر فى أن يتمتع بعرضه ولذته كيف يشاء ، ولولا عدم شيوع الشذوذ الجنسى فى مصر لظننت أننا لا نأمن فى أى وقت عن أن تسفر هذه الدعوة الخبيثة عن وجهها فان كثيرا جدا من القوانين غير الخلقية صدر بتأثير حفنـــة قليلة من المستفيدين عرفت كيف تصل إلى غرضها بالوسائل الملتوية ، وقد ذكر دوفرجيه أكبر فقهاء القانون الدستورى فى هذا العصر ، أن القانون الوضعى كان خادما للسلطة الحاكمة تستخدمه لأغراضها مخالفة بذلك الأوضاع الطبيعية فهى إن أرادت أمرا فانها تبادر إلى إصدار قانون تقيد به الحريات وتأكل به أموالهم وتحل لهم الحرام .

أما النظام الإسلامى لتكامله فانه يحيط المجتمع بسياج وإطار يمنعه من التدهور ويحفظ عليه قيمه ومبادئه فيظل المحظور دائما محظور ، والحلال دائما حلالا ولا يأتى على الناس وقت يجدون فيه المحظور أصبح مبـــاحا ولا العيب أصبح مشروعا ولا الحلال أصبح حراما ، فتختلط عليه حياته كما هو ملاحظ فى المجتمعات العصرية التى سادها الاضطراب والقلق فأفرغوا ذلك فى نزوات الطيش والرقص المحموم والعودة إلى العصر الحجرى والانتحار وفى ظل النظام الدينى لا تبديل لأصول الحياة الاجتماعية وذلك مع المرونة الكافية فى فروعها وبذلك يظل المجتمع صلب

العود مستقيم الظهر قوى البنيان مهما تبدلت عليه التطورات فيأخذ بأصلحها وينبذ الفاسد منها ، كما أن النظم الدينية هى نظم حرة بطبيعتها أن تصل الإنسان بما يعتقد فيتيح له فرصة التصرف كما يشاء طبقا لما يعتقد أنه صحيح ، ولا شك أنه ليس أذل على الإنسان من أن يفرض عليه حياة تخالف عقيدته وهو ما يؤدى إليه نظام القوانين الوضعية التى لا تراعى عقائد الناس فى سبيل المبادىء السياسية التى قامت عليها الحكومات التى فرضتها ، ولا شأن لها بالعقائد لأنها تنظر إلى الأمور من زاوية معينة هى إرضاء أنصارها واستقرارها السياسى ، ولذلك قال بيردو — وهو أكبر علماء النظريات السياسية فى هذا العصر — إن الوضعية لا بد أن تتجاهل المثالية والقيم ، والوضعيون لا يعترفون على الإطلاق بأى مصدر غير النص الذى يصدر به القانون .

وهكذا فان القوانين الوضعية تتصف بخصيصية استسلامية تعايش بها الفساد وتتبناه مهما بلغ من النزول والاسفاف بينما تتصف الشريعة الإسلامية بخصيصية حافظة تحمى المجتمع من التدهور والنزول وقد كان من آثار الاخذ بالنظام الوضعى فى مصر أن تشكلت عقليات الجيل القانونى الناشىء وقتها بقالب صلب من اعتناق الأصول التى قامت عليها القوانين التى سنها الخديو توفيق ١٨٨٣ ، وهذه الآثار المتصلبة ما زالت إلى الآن مسيطرة على العقلية القانونية ، حتى أن أكثرية رجال القانون لا يقبلون إلى الآن إلا الأفكار التى بنيت عليها أصول القانون المدنى والجنائى والمرافعات والإجراءات التى أخذت بها هذه القوانين الوضعية ، ويظنون أنها لا تخالف الشريعة الإسلامية ومضوا يدافعون عنها على هذا الأساس وهو زعم بعيد عن الواقع بطبيعة الحال ، إذ يقوم بين هذه الأنظمة وبين الشريعة الإسلامية فوارق جوهرية تجعل كل منهما مختلفا عن الآخر اختلافا شديدا ، فعلى الأقل فان هذه النظم رأسمالية عنيفة بينما الشريعة الإسلامية نظام تضامنى حر .

وكان من نتائج هذا التطور أن يغير شكل المجتمع المصرى تغييرا عظيما فى ذلك الوقت لم يكن يقدر الحصول على المؤهلات الجامعية غير أبناء الطبقة الراقية ممن

يستطيعون تحمل أعباء السفر إلى الخارج للدراسة والحصول على هذه المؤهلات ، وذلك إلى جانب قلة قليلة من المتفوقين الذين توفدهم الدولة فى بعثات إلى الخارج، من حواشى الطبقة الراقية ، وترتب على ذلك أن أصبحت الطبقة المثقفة والطبقة الحاكمة من أنصار هذه النظم الوضعية المتشبعين بها ، وكان لدراسة القانون وقتها سحر خاص يجذب الناس إليها وأصبح إدراك النظم الغربية عنوان الفهم والإدراك للقيم الذى يجب أن يتحلى بها (الجنتلمان) فى مجتمع المجون الذى ساد ذلك العصر ، وبذلك تركزت القوى الاجتماعية فى أنصار الثقافة الغربية الجديدة ، وعلى العكس فان الثقافة الدينية أصابها التدهور والانحطاط بسبب المستشارين الانجليز فقد عمد المستشار المالى إلى جعل الوظائف المدنية سريعة الترقية والتقدم وتؤهل لاحتلال مراكز وكلاء الدواوين والمديرين ، بينما قصر الوظائف الدينيه على خدمة المساجد والمؤذنين والمعينين خارج الهيئة أو بصفة مؤقته بمكافآت كالعدم ، وعمد مستشار التعليم إلى شحن المعاهد الدينية بعلوم تنوء بها ظهور الجمال ، فلا يكاد يتم طالب التعليم الدينى دراسته إلا وهو على أعتاب الكهولة ثم لا يجد أمامه فرصة سوى أدنى الوظائف فى المساجد والأوقاف وغيرها .

وبذلك انصرفت الطبقة القادرة عن التعليم الدينى واتجهت إلى التعليم العام وصار أهل الدين عنوان التخلف والتأخر وهدفا للسخرية وبخاصة وأنه — بسبب إقبال الفقراء عليها — ظهرت نوازع خلقية غير حميدة فى هذا الوسط .

(١١)

قانون الأحوال الشخصية

منذ سنوات طويلة تجرى المحاولات لضرب مفهوم الإسلام فى الأحوال الشخصية ثم تجدد ذلك عام ١٩٧٦ بجعل الطلاق فى يد للقاضى ومن حق الزوجة طلب الطلاق إذا تزوج بأخرى وعلى حق الأخيرة طلب الطلاق إن لم تعلم بأن زوجها متزوج من أخرى وقد أحيل المشروع إلى مجمع البحوث الإسلامية (وراجعه الشيخان فرج السنهورى وعلى الخفيف) .

هذا المشروع الخطير الذى أطلق عليه مشروع (عائشة راتب) الذى سبق أن رفضته الأمة منذ أكثر من ثمانين عاما ، عادت اليه عائشة راتب عام ١٩٧٤ حيث قدمت فى إحدى اللجان الخاصة بالإصلاح الاجتماعى :

١ — تقييد الطلاق .

٢ — تقييد تعدد الزوجات .

٣ — المساواة فى الميراث بين الرجل والمرأة .

وهى محاولة لتطوير أحكام الشريعة الإسلامية وقد راجعها الشيخ محمد أبو زهرة وبين لها مخالفة ما تقترح وتقول لأحكام الشريعة التى لا يملك مخلوق أن يعدلها أو يطورها .

وقالت : نحن لا نشق على أستاذنا الجليل الشيخ محمد أبو زهرة فى ضرورة حضور جلسات هذه اللجنة رعاية لسنه وصحته ، وأعدت المشروع فى الخفاء .

— ألا يتم الطلاق إلا أمام القاضى وبمعرفته .

— أن يكون للزوجة الحق فى طلب الطلاق خلال مدة معينة من علمها بالزواج الثانى .

— أن يكون للزوجة الحق فى نفقة متعة لمدة سنة من كل خمس سنوات .

وفى الخفاء أرسل المشروع إلى مجلس الدولة ، وفوجئت الأمة بالمشروع يعرض على مجلس الوزراء فثارت الأمة وغضبت وانطلقت المظاهرات المعروفة التى أحاطت بمجلس الشعب عام ١٩٧٤ وانتهى الأمر بسحب المشروع ووعد المسئولون بأن أى مشروع يتعلق بهذا الموضوع لن يفرض أو يعتمد إلا بعد موافقة الأزهر عليه . هذه إحدى المحاولات لها تاريخ طويل كان من ورائها الاستعمار والتبشير وأعداء الإسلام فمنذ دخل الاحتلال البريطانى إلى مصر وحركات التشكيك فى سلامة نظام الإسلام والحض على التمرد عليه وتبديله لا تهدأ ولا تفتر .

بدأت محاربة نظام الإسلام فى ١٨٩٤ بدأها محام مسيحى هو (مرقص فهمى) فأصدر كتابا إسمه (المرأة فى الشرق) وضمنه خمسة مقترحات :

١ — وجوب رفع الحجاب عن المرأة وسفورها أمام الناس .

٢ — إباحة اختلاط الجنسين .

٣ — تقييد الطلاق ووجوب وقوعه بيد القاضى .

٤ — إباحة زواج المسلمة بغير المسلم .

بل لقد دعا فى إحدى مرافعاته فى قضية زنا إلى وجوب عدم تحريم الزنا لأن البلاد الراقية والمتمدينة كانجلترا وأمريكا وغيرهما لا يعتبرون الزنا جريمة وهم يمثلون أغلبية سكان العالم . ولقد روج لهذه الدعوة المستعمرون والمبشرون (كرومر ، اتين لامى ، زويمر) فى مؤتمراتهم .

وفى سنة ١٨٩٩ دعا قاسم أمين إلى السفور واختلاط الجنسين وتقييد الطلاق ومنع تعدد الزوجات وكان هذا باشارة من الأميرة نازلى فاضل التى كانت ترتبط بروابط الود والتفاهم مع كرومر ممثل الاستعمار وجرى فى الطريق هدى شعراوى (إبنة سلطان باشا الخائن الذى رافق جيش الاستعمار فى زحفه على مصر) وقامت

اتصالات واسعة مع المستعمرين وكونت عام ١٩٢٣ الاتحاد النسائى الذى كان من أهم أهدافه تعديل قانون الطلاق ومنع تعدد الزوجات .

وفى عام ١٩٤٥ تقدم أحمد على علوبه بمشروع قانون لتقييد الطلاق وتعدد الزوجات إذ كانت زوجته وكيلة الاتحاد النسائى الذى ترأسه هدى شعراوى ولكن الأمة اعترضت عليه وسقط المشروع ، وكان من الذين اعترضوا عليه الشيخ محمد مصطفى المراغى ، ثم احتضنت الفكرة الدكتورة دريه شفيق التى كونت حزب (بنت النيل) فأيدتهما السفارتان الانجليزية والأمريكية بالمساعدات المادية الكثيرة

وفى عام ١٩٥٨ تقدم حسين الجعرانى عضو مجلس الأمة بمشروع قانون تقييد الطلاق وتعويض للمرأة المطلقة الفقيرة فرفض باجماع الآراء ثم جدد المحاولة على صبرى الذى كان وراء تعيين أول وزيرة فى تاريخ الحكومات المصرية بعد تعيين السيدة حكمت أبو زيد وزيرة للشئون الاجتماعية فرفض الاقتراح والواقع أن حجم هذه القضية لا يحتاج إلى ذلك كله فان إحصائيات ١٩٦٠ تشير إلى أن نسبة تعدد الزوجات هى (٢ فى المائة) وفى ١٩٧٠ وصلت إلى نصف فى الألف ، وأن نسبة الطلاق فى مصر حسب الإحصائيات الرسمية تتناقص وأعلى نسبة تجدها فى القاهرة بسبب إنتشار المدنية الغربية التى تهدم الأسر وتزلزل الثقة بين الزوجين .

وتجددت المحاولة بعد ذلك فالمشروع الذى قدم ١٩٧٤ أعلن مجمع البحوث مخالفته للنصوص القرآنية والأحاديث النبوية والاجماع الذى انعقد فى عهد الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم ومخالف للفقه الإسلامى بإجماع فقهائه فى بعض المسائل ونشر مجمع البحوث بيانه الذى كتبه الشيخ محمد أبو زهرة وجاء فيه :

« تقييد الطلاق وتعدد الزوجات زيادة فى الشرع وبدعة فى الدين ومناهضة للقرآن وسنة النبى ﷺ وإجماع المسلمين » .

ثم يعود المجمع فيناقض نفسه ويقرر أن تقييده للطلاق وتعدد الزوجات عمل مشرف للمجمع (١٩٧٦) .

وكان أن تحقق المشروع فى عهد أنور السادات بتأثير جهة معروفة وموافقة للشائخ ، (النمر ، بيصار جاد الحق) . (محمد عطيه خميس)

(١٢)

قانون الأحوال الشخصية بعد أربع سنوات من تطبيقه ١٩٨٣

صدر القانون عام ١٩٧٩ فى غيبة مجلس الشعب وبقرار من رئيس الجمهورية (أنور السادات) ورغم عاصفة الغضب التى ملأت نفوس جميع فئات وطبقات الشعب من نصوص وأحكام التشريع الجديد ورغم معارضة علماء الإسلام من غير الحكوميين ورجال القضاء والقانون للتشريع الملفق من أضعف المذاهب الإسلامية .

وقد بدأ بعد تطبيق القانون اتجاه جديد المحاكم يكشف عن رأى خطير لرجال القضاء .

فلا يزال القانون يحظى بكراهية نادرة من القوانين الاخرى من أبناء الشعب المصرى ، وقد أصبح ملموسا وبوضوح أن انهيار وفساد العلاقات الإنسانية داخل الأسر المصرية يعزى تماما إلى هذا التشريع الذى منح القوامة للمرأة دون الرجل ، حتى أصبحت النساء المتزوجات تلوح بأحكام القانون الجديد فى وجه أزواجهن تهديدا ووعيدا وتفشت ظاهرة خطيرة داخل مجتمعنا لم يألفها من قبل هى ظاهرة الزواج العرفى .

وأخطر ما تضمنته أحكام هذا القانون (أولا) هو استغلال الزوجة لمسكن الزوجية عند تطليقها وطرد الزوج منه حتى يتجاوز أبناؤه سن الحضانة فيسترد شقته ويطرد منها الزوجة .

(ثانياً) مسألة تعدد الزوجات التى أباحها الإسلام بصريح النص القرآنى وفى السنة النبوية القولية والفعلية معا . ثم جاء القانون الجديد لتقييد هذا التعدد .

(ثالثا) نفقة المتعة طبقت فى مصر لأول مرة .

(رابعاً) مسألة الحضانة وهى تكشف عن سوء ورداءة تلك النصوص التى هددت الصغار والمحضونين بدلا من رعايتهم وإنصافهم .

• قال المستشار موسى الشيخ : هذا قانون اقيط ، فقد صدر بقرار جمهورى قبل انعقاد مجلس الشعب بيومين إثنين فقط ودون حاجة ملحة إلى أن يستخدم رئيس الجمهورية هذا الحق الذى خوله له الدستور فى حالة الضرورة القصوى كالتعبئة العامة وقت الحرب مثلا ، فلم تكن هناك حاجة ملحة أو خطر داهم ليصدر القانون بهذا الشكل ومن أخطر نصوص هذا القرار بقانون استقلال الزوجة الحاضنة بمسكن الزوجية (المؤجر) ما لم يوفر لها مطلقها مسكنا آخر مناسبا وفات المشروع أنه بهذا الوضع يحل مشكلة مؤقته بحسبان أن الزوجة تستقل بهذا المسكن بصفتها حاضنة فاذا انتهت هذه الحضانة تفقد هذه الزوجة حقها فى البقاء بمسكن الزوجية وهكذا تثور مشكلة جديدة : أين تذهب الزوجة ؟

كما أن المشروع لم يعالج مشكلة هذا الزوج الذى لا يملك سوى تلك الشقه .

(الدكتور أحمد كامل سلامه)

رغم أن الشرع الإسلامى أعطى الزوج حق تطليق الزوجة بارادته المنفردة ووضع شروطا دقيقة عندما تطلب الزوجة الطلاق أهمها وقوع ضرر مادى أو معنوى من الزوج عليها فان قانون الأحوال الشخصية قد جاء بجديد مؤسف مخالفا أحكام الشرع ومنطق العدالة إذا لاحظنا فيه وفى باب التحكيم نصا يعطى للزوجة حق الطلاق ولو كانت الإساءة من جانبها ومعنى ذلك أنه يعطيها حق الطلاق فى جميع الحالات ومعنى أن يعطيها حق الاستقلال بمسكن الزوجية فمعنى ذلك أن لها أن تطالب بالطلاق والاستقلال بمسكن الزوجية فى أى وقت تريد ولأى سبب كان .

وهذا مما يعد فى نظرنا منطقا مقلوبا لا يقبله عقل ولا يقره ضمير كما يتنافى مع روح التشريع الإسلامى لحصول الزوجة على الطلاق أصبح أمراً ميسوراً لها فى كل الحالات حتى وإن ثبت للمحكمة أن الإساءة للعشرة الزوجية كانت من جانب الزوجة ، كل ما تحتاج إليه الزوجة أن تطالب الطلاق لتحصل عليه .

(٣)

أخطاء فى قانون الأحوال الشخصية

لقد جاء ذلك القانون بما يخالف القرآن الكريم ، وقد وضع لخدمة الطبقة الارستقراطية ، وأثبتت السنوات التى انقضت على صدوره أنه ملىء بالثغرات وقد زاد من تفسخ العلاقات الأسرية بعد أن ساعد على جر المنازعات الزوجية إلى ساحة المحاكم وهو الأمر الذى يندر أن ينصلح شأن البيت بعد حدوثه .

ومن أهم الثغرات التى تتعارض مع الشريعة :

١ — الزواج بالأخرى ٢ — شقة الزوجية ٣ — الحضانة

٤ — خروج الزوجة بغير إذن زوجها .

(الدكتور موسى شاهين لاشين)

إن فى قانون الأحوال الشخصية الجديد ثلاث مواد لم يقل بها فقه مسلم فى أى كتاب من كتب الفقه فهى مخالفة لنص القرآن ولنص الحديث ومخالفة للفقه الإسلامى بجميع فقهائه ومذاهبه ولم يقل بها أحد من العلماء قبل اليوم ، وقد ركزت على هذه النقاط الثلاثة مخافة أن يقال أننا نأخذ بالرأى الأضعف للمصلحة الاجتماعية ، لأنه لا يوجد ولا حتى رأى ضعيف لدرجة أننى تحديت وقلت لواضعى القانون : نريد قصاصة ملقاة فى الطريق تقول ما قلتم .

أولا : يعتبر القانون الزواج بالثانية إضراراً :

هذه المادة مخالفة لكتاب الله لأن معنى ذلك أن الله أمر بالإضرار والإضرار

حرام ، فمعنى ذلك أن الله أمر بالحرام فالقرآن الكريم يقول :

(فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) وهذا أمر .

فاذا كان نكاح المثنى والثلاث والرباع إضراراً وبالقياس المنطق فاذا قلنا فيه إن الزواج بالثانية إضرار وكل إضرار حرام تكون النتيجة أن القياس بالثانية حرام وهو أمر فعله الرسول والصحابة والمسلمون إلى يومنا هذا فكيف يستقيم الأمر

ثانيا : الذين وضعوا القانون من العلمـــاء قالوا أنهم أخذوا من فقه المالكية والحقيقة أنهم أخذوا سطراً من فقه المالكية وتركوا السطر الذى يليه ففقه المالكية هو الفقه الوحيد الذى أباح التطليق للاضرار وبه أخذت محاكم الأحوال الشخصية فى مصر منذ زمن طويل (ولو قرأوا السطر الثانى بعد هذا لوجدوا تعريف الإضرار عند المالكية فى نفس الكتب) والنص يقول :

(والاضرار فعل ما لا يؤذن فيه شرعا وليس فيه الزواج بالأخرى) ففقه المالكية الذى أباح التطليق للإضرار نص على أنه ليس من الإضرار الزواج بأخرى بالنص .

ثالثا : بالنسبة للمادة الثانية . أنه لا تترتب آثار الطلاق إلا بعد علم الزوجة به بأحد طريقين : إما بحضورها لدى الموثق وإما باخطار على يد محضر . ومعنى تحديد هاتين الوسيلتين أنه لا تترتب آثار الطلاق على وسيلة أخرى غير هاتين فاذا افترضنا أنه طلقها فيما بينه وبينها فاذا طبقت هذه المادة فحملت بعد العدة من غيره وولدت فالقانون لا يعترف بآثار الطلاق ومعنى هذا أن الولد سينسب اليه وهو منه برىء لأنه طلق منذ فترة طويلة فمعنى هذا أن القانون ينسب الأولاد غير الشرعيين إلى آباء غير شرعيين .

النقطة الثانية : والتى لم يقل بها أحد من العلماء : أن خروج الزوجة بغير إذن زوجها لا يسقط نفقتها ، ولم يقل أحد من العلماء أن خروج المرأة بغير إذن زوجها لا يعتبر نشوزا بل الكل على أنه نشوز والكل على أنه يسقط النفقة .

الإسلام والسياسة

فى المناخ العقلى السائد فى الغرب الحديث ، أصبح فى حكم البديهى أنه ليس من شأن الدين — أى دين — أن يتدخل فى الحياة السياسية وبينما يربط مبدأ الدنيوية (Seca Larism) ربطا آليا بالتقدم ، حتى كأنه لا فكاك لأحدهما عن الآخر ، فان كل محاولة لبحث السياسة العملية فى ظل الدين تنمى إلى بعض تلقائيا دونما تفكير على أنها رجعية جوانب هذا النقاش فى كل ما يختص بالغرب ويتعلق به ، بيد أنى سأحاول أن أبين كيف أن مبدأ فصل الدين عن السياسة — سواء كان ذلك سليما أو غير سليم بالنسبة لمتطلبات الاجتماع والسياسة فى الغرب — ليس له من مكان يمكن أن يستمسك عليه ضمن كيان الإسلام والعالم الإسلامى . ولذلك فان المسألة الحقيقية بين أيدينا ليست هى كون إصرار الكثيرين من المسلمين — إصراراً لم يكن يمكن إنكاره — أن يدخلوا الدين فى السياسة على حد مفهوم المصطلح الشائع ، مقبولا من وجهة النظر الغربية . وإنما المسألة هى كون هذا الاتجاه له ما يبرره فكريا (إيديولوجيا) وتاريخيا وكونه قادراً على التحقق العلمى وفى سبيل الوصول إلى جوانب يجب علينا أن نوضح هذا السؤال ، أو بالأحرى هذه الأسئلة .

أولا : هل بنى الإسلام على نحو يجعله يطلب حقيقة من أتباعه موقفا إجتماعيا سياسيا محدداً — وأعنى بذلك منهجا محدداً فى العمل السياسى الجماعى — فى نطاق المفهوم الشامل للقيم الدينية ، أم أنه يترك مثل هذا الموقف وهذا العمل للوازع الفردى فى كل شخص .

---

(١) ان كلمة (Seca Larism) التى تعنى الاهتمام بشئون الدنيا واسقاط الاوامر الدينية من الاعتبار تماما والتى يترجمها المترجمون بالعلمانية ليلقوا عليها ظلالا من سلطة العلم يفهمها أدعياء التقدم فى بلادنا العربية والاسلامية بأنها تعنى (اللادينية) بل ومحاربة الدين بكل الوسائل .

ثانيا : هل تعاليم الإسلام الاجتماعية والسياسية متينة وممكنة التطبيق لدرجة تمكن المسلمين من أن يتصوروا بوضوح وضعا سياسيا فعليا يقوم على قواعدهم في إطار القرن العشرين .

ثالثا : وإذا افترضنا أن هذه الأسئلة قد أجيب عليها بالإيجاب فهل الاعتقادات الدينية عند مسلمي اليوم ما زالت حيوية بدرجة تكفي لتجعلهم يبذلون جهوداً حركية في الاتجاه الذي تتطلبه هذه المعتقدات .

إن الحوار الواضح على السؤال الأخير من هذه الأسئلة الثلاثة سيؤدي إلى تقدير الوضع المعاصر — فكرياً كان أو سياسيا أو عاطفيا — في العالم الإسلامي وبالتالي إلى التنبؤ بتطورات المستقبل ، ومثل هذا التقدير ومثل هذا التنبؤ يتعديان مجال هذا المقال إلى حد بعيد ولذلك فانني لا أرى أن أسهب في التحدث عنهما هنا الآن . بيد أني قد أذكر رغم ذلك أنني في خلال المدة التي تقارب الاربعين سنة التي أمضيتها مسلما أعيش بين المسلمين ، لم أزل أزداد اقتناعا بأن الإسلام في الحقيقة وإلى يومنا هذا قوة بالغة العظمة والحياة ، قادرة تماما أن تنتج بين الملايين التي تفوق الحصر من الناس ، ذلك الانبعاث الروحي والعقلي الاسمى ، الذي يستطيع أن يحول مصائر الامم ، هذا الاقتناع الشخصي من جانبي قد لقي شاهداً من التاريخ في السنوات الأخيرة بإنشاء باكستان — الدولة المسلمة التي لم تقم على أساس التوافق القومي أو حتى الثقافي ، ولكن على أساس الفكرة الإسلامية ، وهذا في حد ذاته شهادة حية على رغبة شعبها في تأسيس بناء سياسي تستطيع به النظرة الاسلامية في أفقها العالي أن تثمر ثمارها العلمية .

إن المستقبل فقط هو الذي سيبين إذا ما كان شعب باكستان سيكمل العمل الذي أقامه بنفسه ، وان أي حكم تقديري في هذا الصـــدد إنما ينتمي إلى فئة للتخمينات والتنبؤات التي قررت أن أتجنبها هنا ، ولذلك فاني لن أفعل أكثر من أن أحاول توضيح السؤالين الأخيرين اللذين طرحتهما ، هل إن تعاليم الاسلام

توجب حقا هذا التكامل والتفاعل بين معتقــدات الانسان من ناحية وعلاقاته الاجتماعية والعملية من ناحية أخرى . وثانياً : هل أن التشريع الاسلامى يكفل حقاً أسسا متينة يمكن على قواعدها استشراف معالم دولة حديثة .

إن الارتباط العميق بين الدين والسياسة ، ذلك الارتباط الذى يميز التاريخ الاسلامى بصفة عامة ، يبدو غريبا إلى حد ما ، فى نظر الرجل الغربى الذى طال تعوده على اعتبار أن مسائل الاعتقاد ومسائل الحياة العملية تنتمى كل منهما إلى مملكة مغايرة لتلك التى تنتمى اليها الأخرى ، ومن ناحية ثانية فان من المستحيل الحصول على تقدير صحيح للاسلام دون الانتباه الكامل لهذه المسألة : فأولا وقبل كل شىء ، ينبغى على المرء أن يدرك أن الإسلام لا يهدف إلى مجرد التأثير فى علاقة الانسان بالله وتوجيه هذه العلاقة فحسب ، بل هو كذلك يهدف إلى التأثير فى العلاقات المتبادلة بين الناس وتوجيهها ، والحاجة هنا لا تقل عن الحاجة هناك ، وانطلاقا من الاعتقاد الأساسى بأن جميع جوانب الحياة الطبيعية قد تقررت بمشيئة الله . وهى لذلك ذات قيمة معنوية خاصة بها ، فان رسالة القرآن الكريم لا تقف عند حد الاهابة الروحية بل وتشمل حقل النشاط الانسانى بأسره ، الفردى والاجتماعى كليهما ، ومثل هذه النظرة تمنع بطبيعة الحال الفصل بين أمور الحياة الدينية والدنيوية ، وتمنع الفصل بين ما لقيصر وما لله ، إن هدف كل إيمان صادق — فى نظر القرآن الكريم — هو التأثير فى سلوك الفرد والمجتمع بطريقة تجعل مثل الحق تجد تعبيرها فى الموقف الأخلاقى للمجتمع بكامله ، فى تشريعه القائم وفى مؤسساته الاجتماعية والسياسية .

وغنى عن البيان أن النداء النهائى للدين فى الاسلام — كما هو فى أصل المسيحية موجه نحو (الفرد) ، لا نحو التجمع الخارجى للأفراد الذى نطلق عليه وصف (المجتمع) وبالرغم من ذلك فان الاسلام يأخذ بعين الاعتبار وبطريقة واقعية اعتماد الانسان على بيئته الاجتماعية .

إن الانسان لا يعيش فى فراغ ولكى يتمكن من أن ينمو روحيا وأن يستفيد من مواهبه الذاتية على أحسن وجه ينبغى أن يدفع عنه قومه ويساعدوه وهكذا فان للعلاقات الداخلية بين أعضاء المجتمع — وللشكل الخارجى للمجتمع كذلك تأثيراً مباشراً على التطور الروحى لأى فرد فيه ، ولذا فان الحاجة إلى تشريع اجتماعى أمر ملازم بالضرورة للاستقامة الروحية المطلوبة من الانسان .

ولهذا الغرض يضع التشريع الاسلامى مبادىء اجتماعية واقتصادية معينة دقيقة التحديد ، يقصد منها توكيد تكافؤ الفرص لجميع أعضاء المجتمع ومنع الاستغلال الاقتصادى للضعفاء من جانب الأقوياء ، إن حقوق الملكية الفردية معترف بها على أساس أنها مرغوب فيها إجتماعيا وأن لها ما يبررها خلقيا ولكن بتحفظ مهم فالقرآن الكريم يقرر بوضوح أن جميع الملك مرده فى النهاية إلى الله سبحانه وأن الانسان بوصفه خليفة الله فى الأرض ، له فقط حق استغلاله ، شريطة مراعاة مصالح الجماعة ككل . وبالتالى فان الاسلام لا يشجع على تجميع الثروة المفرطة فى أيدى أفراد ، كما أن مجموعة دقيقة جداً من أحكامه تؤكد أن كل ثروة فردية تم تحصيلها بطريقة شريفة ينبغى أن يفيد المجتمع كله كذلك ، إن بعض هذه الأحكام تمثل مساهمة إسلامية فريدة فى علم الاقتصاد وهى لذلك جديرة بأن تلقى منا عناية خاصة ، إننى أشير على وجه التحديد إلى نظام الضريبة الدينية الاجبارية التى تسمى « الزكاة » والتى هى دخل مستمر وضريبة على رأس المال بنسبة ثابتة ينبغى أن تجمعها الحكومة الاسلامية ، ثم إننى أشير إلى التوزيع الاجبارى لكل تركة بين أقارب المتوفى ، ليس بين أبنائه فحسب ، بل وبين زوجته أو زوجاته ووالديه وأخوته وأخواته ، وأشير كذلك إلى التحريم القاطع لإعطاء أو أخذ فائدة على رأس المال المقرض مهما كانت نسبة الفائدة صغيرة ، والتحريم الكامل لكل أشكال المقامرة ، بما فى ذلك (المغامرة التجارية) بالبضائع التى يتم تسليمها فى وقت متأخر عن يوم الشراء وكذلك (الاحتكار) وجمع البضائع المتداولة فى السوق للتحكم فى أسعارها ثم إلزام صاحب العمل بأن يسمح لعماله بالافادة المناسبة من

حصتهم من أرباح العمل أخيرا ذلك المبدأ الذى ينص على أن الارض كلها ملك لله ، وإن الانسان تبعا لهذا ، له الحق فى دخلها ما دام يفلحها أو يديرها بنفسه مباشرة ، وإذا مانفذ هذا الحكم — الذى ذكرته أخيرا — بحزم ودقة فانه يقضى تلقائيا على جميع القطاعات الزراعيه ويجعل نظام التأجيرمن جانب المالك الكسول يمتص من عمل الآخرين دخلا لا يكتسبه بكده عملا غير مشروع اليه .

وينبغى أن يضع المرء فى حسبانه أننا نتكلمهنا عن أحكام الشريعة الاسلامية لا عن المخالفات التى تعرضت لها هذه الأحكام من قبل مسلمى اليوم أو الأمس ، إن رغبة ملايين المسلمين فى إنشاء مجتمع تحكمه روح ومبادىء الاسلام تجد فى حد ذاتها شهادة بينة بأن كثيرا منهم يحسون بتقصيرهم ويتوقون إلى الخروج من وهدة السقوط الدينى والاجتماعى التى عاشوا فيها هذه المدة الطويلة .

ومن الواضح أن نظاما إجتماعيا كهذا الذى ابتكره الاسلام لا يمكن حمايته بمجرد النصح والارشاد ، إن الاسلام بواقعيته المتميزة التى لا تأخذ فى حسابها طاقات الانسان الروحية السامية فحسب ، بل ونقاط الضعف الطبيعية فيه بكاملها يشترط احداث أداة سياسية محددة تضطلع بمسئولية المحافظة على الأحوال الاجتماعية كما رسمت خطوطها العريضة رسالة النبى (صلى الله عليه وسلم) وبعبارة أخرى فان وجود « دولة إسلامية حقيقية » هى ضرورة لا يستغنى عنها النظام الاجتماعى الاسلامى ولا يمكن أن يتحقق فضلا عن أن يستقر إلا فى ظلها .

إن وظيفة التشريع اليومى فى الدولة الاسلامية هى إيجاد إطار سياسى تكون فيه الشريعة الاسلامية كاملة الفعاليـــة (ثانيا) حماية مصالح المجتمع السياسية والاقتصادية من التعرض للهجوم من الداخل والخارج (ثالثا) إنشاء وصيانة نظام إجتماعى يتمتع فيه كل مواطن بأقصى مايستطيع أن يحصل عليه الانسان من الطمأنينة الروحية والاقتصادية ونظراً لأن الدول الاسلامية تكون مسئولة مسئولية مباشرة عن حماية وسائل المعيشة — بأوسع ما فى العبارة من معنى — لجميع

مواطنيها ،وهكذا فالتعبير الحديث يجب أن تكون الدولة الإسلامية ، دولة تتوفر فيها الأحوال الصحية والاقتصادية والاجتماعية الطيبة وأن تخضع فيها مصالح الفرد الاجتماعية والاقتصادية لمصالح المجتمع ككل . وبالرغم من ذلك فان تعاليم الإسلام توضح بدرجة كافية إن مصالح المجتمع ليست لها السيطرة العليا بشكل مطلق ، بل أن لها الأفضلية فقط فى نطاق الحدود الأخلاقية التى قررها القرآن الكريم لأعمال الإنسان وباختصار فان الدولة الإسلامية كما يصورها القرآن الكريم وأحاديث النبى (صلى الله عليه وسلم) يجب أن تكون منظمة فكرية مبرأة من كل ما يخالف عقيدتها ، وينبغى ألا يسمح فيها للشعور بتفضيل القومية أو العنصر أو الإخلاص لأى منهما أن يلعب أقل دور كما ينبغى أن تكون جميع مجهودات المجتمع خاضعة للاعتبارات الأخلاقية لا للمصلحة الوقتية .

ربما يقول أحد الغربيين : إن كل هذا يبدو جميلا ولكن أليس من المنتظر أن يقودنا السعى إلى إنشاء دولة إسلامية إلى الثيوقراطية وبينما يترامى لى أنى أسمع هذا السؤال ، فانى أشعر أيضا بالقلق الذى يكمن وراءه وهو قلق مرتبط بذكريات فترة معينة فى ماضى أوربا فى العصر الوسيط .

وجوابى على هـــذا السؤال المتعسف هو « نعم » ولا « نعم » إذا تصورنا الثيوقراطية وفهمناها على أنها شكل من أشكال المجتمع يكون فيه كل التشريع وحتى ذلك الذى يفرضه الوقت — نابعا من للمبدأ الدينى بصفته المرجع النهائى أى أنه فى هذه الحالة يأتى من خلال أوامر القرآن الكريم التى يعتبرها كل مسلم مؤمن فوق مستوى الخلاف ، ومن ناحية أخرى فان الجواب هو « لا » مؤكدة ، إذا كان السؤال يعنى مقارنة الثيوقراطية الإسلامية بحكم الكنيسة فى أوربا الوسطى . إن الإسلام لايوجد فيه ما يماثل الكنيسة المنظمة إذا لم يكن مرد ذلك لسبب آخر ، لأن تصور الأسرار المقدسة ووظائف القيام بطقوس تلك الأسرار ، غريب تماما عن تعاليم القرآن الكريم وفى مجتمع كمجتمع الإسلام الاى يحق لكل شخص

بالغ أن يقوم بأى عمل دينى لا يوجد مكان ولا حاجة إلى كهانة أو اكليروس ولذا فلا محل لخطر قيام منظمة كهنوتية دينية بممارسة نفوذ سياسى .

وهكذا فإن عدم الثقة فى النظام السياسى الدينى (الثيوقراطى) الشائع فى الغرب يصبح غير موضوعى عندما نطبقه على مسائل الإسلام ، إن الكثيرين من المسلمين الذين يجاهدون اليوم فى سبيل الهدف السامى المتمثل فى الدولة الإسلامية ، لا يريدون أكثر أو أقل من منظمة سياسية تمكنهم من التعبير عن إيمانهم بالله ، ليس فى المساجد فحسب ، بل وفى أمورهم العملية والاجتماعية أيضا . ولا أعتقد أن مثل هذه الفكرة ينبغى أن ترعب العالم الغربى الذى بات فى هذه الأيام يحس بعمق بالحاجة الملحة التى تواجهه قوى المادية العادية غير الإنسانية ، بقوى الإيمان الروحى ، وعلى العكس من ذلك فإنى أعتقد أن كل مسيحى يؤمن بدينه إيمانا جديا يجب أن يرحب بمساعى جماعة دينية أخرى — جماعة تحمل الآراء الأخلاقية ذاتها — لتنشىء مجتمعا ودولة تقوم على أساس إيمانها بالله سبحانه وتعالى .

محمد أسد (ليوبولدفايس)

تعليق الأستاذ عبد الله أبو عزه :

لا يسوغ وصف الإسلام بأنه نظام فردى لأن النظام الفردى فى المفهوم الحديث يرتبط بالفلسفة الفردية التى نشأت فى الغرب الأوربى ويحمل فى طياته إيحاءاتها ، وهى التى بلغت ذروتها فى نظرية فرويد وكتابات الوجوديين وحتى المجتمع الأوربى — وما يزال يجنى — ثمراتها المرة ، ولا نستطيع أن نصف الإسلام بأنه « نظام جماعى » لأن هذا الآخر له إيحاءاته الخاصة .

والإسلام يختلف عن كليهما فى روحه الموجهة وفى منشئه وواضح — كما يقول المؤلف — إن الإسلام يركز على الفرد ، وهذا التركيز لا يعنى التدليل والإفساد بل يعنى التربية والصقل والتكاليف ، وذلك أن المجتمع ماهو إلا الأفراد مجتمعين ، فإن صلحت تربية الفرد صلح المجتمع ومن ناحية أخرى فإن سعادة الفرد هى أساس سعادة الجماعة ولا سعادة لمجتمع أفراده أشقياء مستعبدون .

(١٥)

النظام الإسلامى

النظرية العامة الإسلامية تقوم على ضرورة الدين لأن الإنسان عابد بطبيعته ، وإن لم يعبد الله الحق سبحانه وتعالى تورط فى عبـــادة ما يضره كعبادة الذات وعبادة المـال وعبادة الهوى أو الأطماع (كالأوثان قديما أو المبادىء المادية الوضعية الحديثة) وهياكلها التى تقام لهـا فى المراسم من محافل ومنظمات سياسية واقتصادية ونحو ذلك واقتضى ذلك أن تكون هذه العبادة على سبيل التوحيد لله تعالى ولما كان التوحيد ليس نية أو قولا فقط بل هو عمل بما يصادق هذه العقيدة فإن أساس النظام الإسلامى و نظريتـه العامة هو ما يسمى : التوحيد والعدل أى اتخاذ التوحيد أساسا للعدل فـكل ما يطابق ما أمر الله به مما يوجب التوحيد اتباعه يعتبر مناطا للعدل وكل ما يخالفه يعتبر مناطا للظلم ، وكل ما يطابق أمر الله فهو قرين الوجوب والإباحـة وما يدور بينهما وكل ما يخالف أمر الله ويصدق عليه بهذه فهو قرين التحريم والحظر وما يدور بينهما ويواطىء البطلان والفساد .

وهذه النظرية العامة مستقلة بذاتها ولا تمت إلى الرأسمالية أو الديمقراطية أو الشيوعية الاشتراكية أو غيرهما من الأفـكار والنظريات الحديثة بصلة ولا يصلح معها أن يوصف الاسلام بأنه رأسمالى أو ديمقراطى أو شيوعى أو اشتراكى ذلك أن الأساس العام للاسلام لا يتصل إطلاقا بالظريات والأصول التى تقوم عليها هذه الأفـكار .

ومن الناحية السياسية فإن الاسلام محكوم بمـا نسميه بالسياسة الشرعية وهى تولى الأمور بما يصلحها طبقاً للشريعة الاسلامية ، وهذه السياسة شاملة لجميع فروع الحياة وتنطوى تحتها أصول الأوضاع الادارية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها فإن الاسلام خلافا للنظريات الوضعية لا يعرف تعدد النظم وهى كلها تؤدى لأصل واحد هو التوحيد بالعمل بما أمر الله به ومنع ما نهى الله عنه .

وبذلك فإن ما يسيطر على الاقتصاد مثلا فى الاسلام هو إخضاع المادة والنفع للدافع الإلهى الربانى فالمال ما هو إلا وسيلة لتحقيق الأغراض الربانية وأمرنا أن نجاهد به فى سبيل الله وأن ننفق لله مما جعلنا مستخلفين فيه ونحن فى ذلك نقيم المصالح المأمور بها فى الدين والنفس والنسل والعقل والمال ، فننفق أموالنا فيما فيه مصالح ديننا ونفوسنا وأولادنا وتنمية عقولنا وتثمير أموالنا لا أن نجعل المال هو الهدف الأول . ومن ثم فقد اختلفت نظرة الاسلام إلى الاقتصاد عن نظرة المذاهب الوضعية له اختلافا جوهريا ولم يصح أن نقتبس النظم الرأسمالية كوسائل إسلامية وهى التى تجعل المنافسة الحرة أساس الجهد الاقتصادى ولا الوسائل الاشتراكية التى تصادر الغرائز الانسانية وتسخرها للوسائل الاجتماعية العامة .

فالنظرية العامة الاسلامية تنبع من التوحيد كأساس للعمل وهى تنهض على ثلاثة عناصر :

العنصر الأول : هو عنصر العقيدة والايمان فان المعاملات والأحكام والعادات وكل الأوضاع والحقوق والوسائل فى الجماعة الاسلامية إنما تتأسس على العقيدة الاسلاميه وهى عقيدة التوحيد .

ولذلك فان الاسلام كعقيدة وشريعة يتميز بهذا الارتباط الكلى الذى لا يتجزأ فى أى أمر من أموره وقد نادى البعض بجواز ما سماه (سياسة مدنية) أو إصلاحية أى غير مستمدة من الأحكام ولكن هذه الدعوى اندثرت ولم يقدر لها النجاح .

العنصر الثانى : وهو عنصر التكليف وهو يقابل فى مكانته وبروزه عنصر الحرية فى النظم الحديثة فان المجتمع الاسلامى هو مجتمع من المكلفين والتكليف له مكانة بارزة فى كتب أصول الفقه وأساس ذلك أن الحرية مسئولية ونحن لا نعطى

الحرية لمن يفسد بها ولكن لمن يتوجه بها نحو الاصلاح وبذلك فان عنصر التكليف والمسئولية يسيطر على كافة القدرات الارادية ومواضع الاباحة والاختيار ، وهذه بطبيعة الحال نظرية أخرى مكملة للنظرية الأولى لأن الحكم هو خطاب الله سبحانه وتعالى للمكلفين وحيث تكون القدرة يكون التكليف ويكون الحكم .

العنصر الثالث : هو عنصر التضامن وأساسه هو أنه ما دام هناك إيمان واحد فان ذلك يترتب عليه فهم واحد ، والفهم الواحد للوسائل الواحدة وهى أحكام الله تعالى التى تلزمها جميعا ويؤدى حتما إلى وحدة العمل ووحدة التصرف مما يؤدى إلى ظاهرة التضامن الأكيد الأصيل فكلنا نحمى الضعيف ونساعد المحتاج ونكفل اليتيم ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر والخير والمعروف عندنا واحد والشر والمنكر عندنا بمفهوم واحد وهذه نظرية ثالثة تنطوى تحت النظريتين السابقتين .

فإذا أردنا أن نصف النظام الاسلامى بوصف عام واحد فانه يوصف بأنه (حرية بلا فردية وتضامن بلاجماعية) مما يجعله لاينتمى لا إلى الرأسمالية ولا إلى الاشتراكية لا أصلا ولا أساسا ولا تفريعا .

إن للاسلام ذاتية خاصة وله أصوله الخاصة وأنه ليس اشتراكيا ولا رأسماليا

أولا : فى المجال السياسى أصبح من المقرر الآن أن هنك مشروعية إسلامية عليا تفوق جميع الأوضاع والنظم والنصوص الوضعية وهذه المشروعية العليا تستمد من التوحيد لأن التوحيد ليس قولا فقط بل هو عمل يصادق القول ، وهذا العمل هو تنفيذ ما أمر الله به ومنع ما نهى الله ، وهذه المشروعية العليا هى مناط الحق والعدل والصحة والاباحة فى الاسلام وما عداها باطل وظلم وفساد وإجرام .

هذه المشروعية العليا تؤدى إلى توحيد الفكر والوسائل والمراكز والأوضاع عند المسلمين ، وأنها من أهم أسباب التضامن بين المسلمين يضاف إلى ذلك التزامهم

جميعا باقامة المصالح على وجه فروض الكفاية بحيث أنه يوجد « إثم عام » لدى التخلف عن هذه العروض وأصبح من المقرر أن للعدالة الاسلامية معالم خاصة تحددها مصادر الشريعة وخاصة نصوص الكتاب والسنة المعتمدة والمصالح بأسمائها المختلفة فى المذاهب .

ثانيا : من الناحيـة الاقتصادية ، أصبح من المعترف به أن النظام الاقتصادى الاسلامى يقوم على المصلحية حسبما تقررها المقاصد الشرعية فى المصالح الخمس على درجاتها من الضرورية ، والحاجية ، والتحسينية ولا يقوم على النفعية كما هو الحال فى الاقتصاد الوضعى .

وأصبح من المعروف أننا مقيدون فى الاقتصاد بالحلال والحرام فلا يمكن أن نعترف بظاهرة اقتصـــادية كالعرض والطلب ولكننا نتقيد بألا نستعملها إلا فى الحلال ، وأصبح من المقرر أن الاقتصاد الاسلامى نظام حر لأنه يعتمد على الجهود الفردية وليس نظاما فرديا كالرأسمالية لأنه لا يستهدف المصالح الخاصة بل يستهدف المصالح الشرعية الخمس وهى غايات إجتماعية تفوق المصالح الشخصية .

وأصبح من المقرر أن الاقتصاد الاسلامى يقوم على أسس نظامية بسبب التضامن الاسلامى فإن التماسك يؤدى حتما إلى تنظيم الأوضاع الاجتماعية ولكن هذه النظامية ليس معناها الجماعية التى تعرفها الاشترا كية ، أى الاعتماد على الدولة والأدوات الاجتماعية فى إدارة الأوضاع الاقتصادية وهذا بسبب اعتماد الاسلام على الجهود الفردية والروح الشعبية (بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) الذى تبدو بوادره فى جميع مرافق الحياة الاسلامية .

ومن هنا فقد أصبح من المحتم الذى لا مفر منـه على كل من يبحث فى البلاد الاسلامية فى النظام الدستورى والنظام الإقتصادى أن يتعرض لـكلمة الاسلام .

القانون الرومانى والشريعة الإسلامية

لعب القانون الإسلامى فى الجزيرة العربية دوراً كان غاية فى الأهمية والفعالية ، وأنه كان نقطة انطلاق لنهضة عربية شاملة اجتماعيا وسياسيا وماديا وأدبيا . فكيف كان دور القانون الاسلامى فى الغرب .

كان القانون الرومانى مفروضا على طبقة الأحرار من سكان الامبراطورية وحدهم دون بقية السكان من المعتقين والأجانب المستسلمين وكان يعد من هذه الطبقة الأخيرة جميع المصريين ما عدا سكان الاسكندرية وجميع السوريين ما عدا سكان بيروت وصور ، فقد فرض القانون الرومانى والجنسية الرومانية على الأحرار الأصلاء دون غيرهم من سكان الامبراطورية وهو إخضاعهم لضريبة التركات التى كانت مفروضة من قبل على المواطنين الرومان . وقدرها خمسة فى المائة من كل تركة ، وهكذا كان الدافع لهذا الاجراء دافعـــا ماديا صرفا لصالح الخزينة الامبراطورية ولم تمله الاعتبارات الانسانية المجردة ، واستمد التمييز بين طبقات السكان قائما معمولا به فى الامبراطورية الرومانية حتى فى هذا العهد .

وقد أنشأ هذا لدى سكان الأقاليم الشرقية من هـذه الامبراطورية شعور مرير بالتمييز العنصرى والفوارق الطبقية ، مما جعل تلك الأقاليم تنطوى على نفسها وتتمسك باعرافها وتقاليدها .

ويقول الأستاذ بول كولينى كبير أساتذة القانون الرومانى فى جامعة باريس المتوفى ١٩٣٨ فى كتابه (الطابع الشرقى لعمل جوستيان التشريعى) إن القـانون الرومانى الذى ندرسه اليوم إنما هو قانون شرقى مكتوب بأيدى الشرقيين وخاصة منهم أساتذة بيروت ، وأكد نفس الرأى الأستـاذ الايطالى ادوارد وفولتير فى كتابه (القانون الرومانى والقانون الشرقى) .

هذه هى الحالة القانونية لسكان الأقاليم الشرقية قبل ظهور الاسلام .

فقد نادى الإسلام منذ فجر اليوم الأول بأربع وحدات :

(١) وحدة خالق الخلق رب العالمين .

(٢) وحدة الكون لسائر أجزائه ومظاهره .

(٣) وحدة الجنس البشرى بكافة سلالاته وعناصره .

(٤) وحدة الإنسان ذكراً كان أو أنثى وانطلاقاً من عقيدة الوحدة التى نادى بها الإسلام شرع قانوناً واحداً لجميع المنتمين إليه دون تفرقة بين عنصر وآخر ، ولا بين طبقة وأخرى ، ولذلك لم يوجد فى الإسلام (قانون عربى) خاص بالمواطنين العرب على غرار (القانون الرومانى) الخاص بالمواطنين الرومان ، وإنما هناك قانون إسلامى يطبق على العرب وغير العرب ويبسط سلطانه على الحاكم وعلى المحكوم ، وبذلك أصبح أبناء الأقاليم التى دخلت فى الإسلام منذ البداية مواطنين عاديين فى الدول الإسلامية لا فرق بينهم وبين العرب الذين وفدوا عليهم ليبلغوهم رسالة الإسلام .

<u>الملاحظة الثانية</u> : إن القانون الإسلامى لم ينظر إليه على أنه قانون (دخيل) فى هذه المنطقة فهو من الشرق وإليه وهو يلتقى فى كثير من النقط مع التشريعات المحلية القديمة التى ظهرت فى جنوب الجزيرة العربية والعراق وسوريا ولبنان ومصر على يد عرب الجنوب والبابليين والكلدانيين والمصريين والفينيقيين ، ذلك قبل أن يبدأ الاحتلال الرومانى بقرون عديدة مما لم يستطع الرومان والبيزنطيون أن يقضوا عليه .

<u>الملاحظة الثالثة</u> : إن القانون الإسلامى منذ نشأته الأولى كان ذا طابع واقعى وعملى بحيث تبنى الأعراف والعادات المحلية الجارى بها العمل فى المعاملات وأدمجها فى صلبه دون أدنى تحفظ ، ولم يشترط فى تبنيها سوى شرط واحد ، وهو ألا تكون مناقضة لمبادئه المنزلة ولا معارضة لقواعده المؤصلة وبذلك أبقى سلطان الأقاليم التى دخلت فى الإسلام فى الجو المألوف لديهم والمتعارف عندهم أبا عن جد .

الملاحظة الرابعة : أن القانون الاسلامى فتح الباب على مصراعيه لتوسيعه وتنميته ، حرصاً منه على أن يستوعب واقع الحياة فى الأقاليم التى دخلت فيه ، وبذلك أعطى فرصة ثمينة لأبناء تلك الأقاليم ممن دخلوا فى الاسلام ليساهموا بنظرهم واجتهادهم فى هذا العمل الجليل فكان لمساهمتهم الفعالة أثر كبير فى التوفيق بين مبادىء القانون الاسلامى العام وحاجيات أقاليمهم ، وإيجاد الحلول المناسبة لمشاكلهم الخاصة وبذلك أصبح القانون الاسلامى ، بالاضافة إلى طابعه العام ، متكيفاً فى قسم من تفاصيله بالطابع الاقليمى الخاص .

الملاحظة الخامسة : إن القانون الاسلامى منذ ظهوره كان يحمل طابع التحرر ، فقد حرر المرأة من سيطرة الرجل واعترف لها بكيانها الخاص وبحقوقها المدنية اعترافاً كاملا ، وحرر الابناء من تعسف الآباء ، فاعترف لهم بشخصية مستقلة وحرر جماهير الفلاحين من سيطرة ملاك الأرض فنظم العلاقات بينهما على أساس النفع المتبادل فى نطاق عقود عادلة استحدثها لهذا الغرض ، وحدد فيها حقوق الطرفين وواجباتهما وحرر صغار التجار والمتداينين من استغلال المرابين ، فحرم الربا تحريماً قاطعاً ، وحرر العمال من عنت مستأجريهم وأقام العلاقة بينهم على أساس إنسانى مقبول وفتح باب الحرية فى وجه الأرقاء الذين وجدهم أمامه ، وأباح تزوج المسلم بغير المسلمة ، وتزوج الحر بالأمة ، وخصص (ثمن) واردات بيت المال من الزكاة ، لتحرير الرقاب وجعل تحريرهم قربة إلى الله وكفارة عن كثير من الذنوب ، ومن ذلك كفارة القتل الخطأ وكفارة اليمين ، وحرر اتباع المذاهب المسيحية واليهودية المختلفة من اضطهاد بعضهم لبعض ، ووكل إلى رؤساء طوائفهم النظر فى شئونهم الزوجية وأحوالهم الشخصية دون أدنى تدخل ، مكتفياً فيما يخص غير المسلمين ببسط تشريعه المدنى والجنائى التام عليهم كبقية رعاياه المسلمين سواء بسواء نظراً إلى أنهم يتعايشون جميعاً فى مجتمع واحد جنباً إلى جنب ويتعامل بعضهم مع بعض على قدم المساواة فى ظل الدولة الاسلامية ، شعاره فى ذلك [لكم دينكم ولى دين] [لهم ما لنا وعليهم ما علينا] وأباح لهم فى نفس الوقت تحكيم أشخاص

من خلافاتهم فى النزاعات التى تنشأ بينهم ، عسى أن يصلوا فى شأنها إلى صلح فإذا استمر النزاع قائماً بين الطرفين رفع الأمر إلى القضاء الإسلامى الوحيد ، كما أنه لم يحكم بإبطال المعاملات التى تجرى بينهم فيما يحرم التعامل فيه بين المسلمين ، كالتعامل على الخمر والخنزير ، وذلك مراعاة لعقائدهم وعوائدهم الخاصة .

<u>الملاحظة السادسة</u> : إن القانون الإسلامى لم يكن قانون استغلال مادى بقدر ما كان قانون عدالة اجتماعية ، وبذلك كانت التكاليف العامة التى يطلبها من رعاياه خفيفة ومحدودة جداً ، لم يفرق فيها بين المسلم وغير المسلم ، فكما أوجب على غير المسلم دفع ضريبة سنوية تسمى (الجزية) أوجب على المسلم دفع ضريبة تسمى (الزكاة) وذلك ليساهم رعاياه كافة فى تكاليف دولتهم مقابل حمايتها لهم وانتفاعهم جميعاً بمرافقها العامة ، وكما أعفى المسلم من أداء الزكاة إذا لم يحصل على النصاب الموجب لها أعفى غير المسلم من أداء (الجزية) إذا كان عاجزاً عن دفعها لسبب من الأسباب .

واحترم القانون الاسلامى التركات فلم يمسها واحتفظوا بها كاملة للورثة الشرعيين ماعدا إذا لم يكن هناك وارث للهالك أصلا فإن بيت المال هو الذى يتولى دفنه وتركته .

<u>الملاحظة السابعة</u> : إن القانون الاسلامى وكل تقرير العقوبات المترتبة على مخالفة تقرير القضاء تبعاً لحالة المجرم ونوع الجريمة ، ماعدا العقوبات المتعلقة بالجرائم الكبرى التى فيها اعتداء على الحق العام فقد حدد نوعها وقدرها تحديداً تاما ، ونظراً لأن هذه العقوبات يقصد منها أن تكون عقوبات مثالية لتحول دون وقوع تلك الجرائم فإن القانون الاسلامى من جهة إختار أن يكون عقوباتها عقوبات قاسية فى الظاهر ، ومن جهة أخرى هيأ الظروف الملائمة للتخفيف منها عند ما اشترط لايقاعها شروطا صعبة قلم تتوفر فى الأحوال العادية .

أما الجرائم السياسية فإن القانون الإسلامى انطلاقا من نزعته الإنسانية

الحرة - لا يجد فيها ما يبرر الحكم بالإعدام ، وانداف هذا الموقف الظر الفرنسى لويس ميليو فكتب فى مؤلفه (مدخل لدراسة القانون الاسلامى) ، يقول إن التشريع الاسلامى أبطل الحكم بالإعدام فى الجرائم السياسية قبل تشريعاتنا الأوروبية بزمن طويل جداً .

الملاحظة الثامنة : إن القانون الاسلامى مطبوع بطابع التيسير ورفع الحرج ، وفيه استعداد خاص للتجاوب مع الفطرة الانسانية والالتقاء معها فى منتصف الطريق وهو من أجل ذلك ينظر إلى العلاقات الاجتماعية نظرة واقعية ويدخل فى حسابه رغبات الانسان وميوله الطبيعية فلا يقف حجر عثرة فى طريق انطلاق الشخصية الانسانية بل يمهد السبيل المشروع لترضية حاجات الإنسان المادية والروحية ، وكم من عقد نفسية ومآسى اجتماعية كانت موجودة فى المجتمع قبل ظهوره ، فوضع لها حداً وعالجها العلاج المناسب .

ولا غرابة فى ذلك فالقانون الاسلامى يتضمن فى صلبه المبادىء الثابتة والدائمة التى فطر الله عليها الناس [فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم] وتتجلى هذه الحقيقة فى أمره [بالمعروف ونهيه عن المنكر] وتحليله للطيبات وتحريمه للخبائث ودعوته إلى إنفاذ الحسنات واجتناب السيئات وترغيبه فى الصالحات وتنفيره من الفواحش .

وقد اكتشف فقهاء الاسلام الدعائم التى انبنى عليها (القانون الطبيعى) المشترك بين كافة الملل وحصروا تلك الدعائم فى خمسة أشياء على أساسها يقوم كل نظام صالح فى العالم - ألا وهى (١) حفظ الدين (٢) وحفظ النسل ويلحق بها حفظ العرض (٣) وضبط النفس (٤) وحفظ العقل (٥) وحفظ المال وعلى هذه الدعائم نفسها يقوم صرح القانون الاسلامى بجميع فروعه وتفاصيله وكما حافظ القانون الاسلامى على هذه الدعائم بالنسبة للمسلمين من رعاياه حافظ عليها بالنسبة لغير المسلمين منهم سواء بسواء ، وبذلك استطاع أن يكسب

ثقة الجماهير الساكنة فى الأقاليم التابعة له على اختلاف سلالاتها وأديانها إذ أنها وجدته ملائما لفطرتها محققا لرغبتها ضامنا لمصالحها .

• • •

هذه جملة من الملاحظات حول القانون الاسلامى ومن خلاله تبرز أهم العوامل التى جعلت هذا القانون هو القانون السائد فى جميع الأقاليم الاسلامية وكما ساعدت على أنه تقوم فى ظله حضارة فريدة وازدهار مزدهر لم تعرفهما الانسانية من قبل ، بالاضافة إلى ما تميزت به معطياته القضائية من التبسيط وعدم التعقيد ، وما تميز به قضاؤه من سرعة البت والتنفيذ ، وقد استمر القانون الاسلامى مستويا على عرشه خلال قرون طويلة دون أن ينافسه قانون سابق ولا قانون لاحق ولم يتزعزع عن مركزه التقليدى الممتاز إلا تحت الضغط السياسى عند ظهور (نظام الامتيازات) أو تحت وطأة الاحتلال العسكرى عند ما وجهت بعض الدول الاستعمارية ضد الأقطار الاسلامية فى العصر الأخير ولولا ظهور هذا العامل الغريب لتطور القانون الاسلامى فى إطاره الطبيعى الأصيل ، على أن القانون الاسلامى لايزل يقوم فى الوقت الراهن بدور مهم فى عدة مجالات ينفرد فيها بالاختصاص بالرغم من التشريعات المستحدثة التى قامت إلى جانبه والتى عنده من الوسائل الفعالة ما يساعده على إيجاد تشريع لها فى نطاقه الخاص وهذه التشريعات المقتبسة من القوانين الأجنبية هى بالنسبة للقانون الاسلامى لا تعدو أن تكون مجرد (تدابير تنظيمية) صيغت بشكل يتفق مع مبادئه ولا يخرج عن نطاق قواعده فإن القانون الاسلامى لا يمنع من تبنيها وإدماجها فيه باعتبارها تفاصيل جزئية لا تخرج عن أصول تشريعه العام وكثير من المدونات القانونية الجديدة التى ظهرت فى العالم الاسلامى تنص على أنه عند عدم وجود نص فيها من أمر من الأمور يلزم الرجوع إلى القانون الاسلامى للاهتداء به فى الموضوع وأحيانا تنص على الرجوع إليه إلى القانون الطبيعى أيضاً .

أما المدونات المقتبسة من الفقه الاسلامى نفسه التى صدرت على الطريقة الحديثة فهى تسجيل عصرى الشكل لنفس المبادىء والقواعد .

ومجمل القول أن القانون الاسلامى فى الفترة الانتقالية الراهنة يعتبر بالنسبة للسلطة القضائية مصدر إرشاد وتوجيه ، بحيث يستوحى منه مايساعدها على تحقيق العدل التام وبالنسبة لبقية السلطات يعتبر إرادة رقابة وتنبيه بحيث تتجنب تلك السلطات فيما تتخذه من تنظيمات وما تصدره من قرارات كل ما يصطدم مع القانون الاسلامى ، ولا ينسجم معه أى انسجام وبذلك يتفادى إثارة الرأى العام .

محمد مكى الناصرى

الباب الثالث

تحرير الاقتصاد الإسلامي

من قبضة النفوذ الأجنبي

(١)

عاش الاقتصاد الإسلامي مرحلة تبعية خطيرة وواسعة استمرت أكثر من قرنين من الزمان وذلك منذ بدأت جولة الاحتلال الغربي للبلاد الاسلامية ، بريطانيا للهند وهولندا لأندونيسيا والفرنسيين والبريطانيين والإيطاليين للبلاد العربية ، بدأت بالجزائر وتونس ومصر والسودان ، ثم العراق وسوريا وفلسطين ولبنان .

ونحن فى مطالع القرن الخامس عشر نجد أن هناك خطوات واسعة ترمى إلى العودة إلى المنابع وتصحيح مسار الاقتصاد الإسلامى بعد هذه المرحلة الواسعة من التبعية والسيطرة ، فقدكان معروفاً أن الاستعمار الغربى قد سيطر على الموارد الإسلامية ونهبها وصدرها إلى بلاده لتصنيعها وحرم منها أهلها ومضى على خطة عدم تمكينهم من امتلاك إرادتهم فى إقامة الصناعات الوطنية التى تؤهلهم من تصنيع مصادر ثرواتهم ، ولقد تكشف للمسلمين خلال هذه المرحلة الآثار الخطيرة التى كانت نتيجة فرض النهج الغربى الربوى الذى غرقت فيه البلاد الاسلامية حيث أصبحت تتعامل بالربا والقروض مما أضاع كثيرا من ثرواتها مع وقوع هذه الثروات من أراضى وأملاك فى أيدى الأجانب الذين فتحوا باب الاستدانة ، ليس للأفراد فقط ولكن للحكومات فقد عمل القناصل الأجانب على اغراء الملوك والخديويين والأمراء وتشجيعهم على الاستدانة والاقراض تحت اسم التمدن وبناء القصور والمسارح والمراقص مما أدى إلى السيطرة على اقتصاد هذه الأمة بصفة عامة وإنشاء ماسمى صندوق الدين الذى فرض نفوذه على موارد البلاد فى مجالات الزراعة والصناعة والتجارة ؛ هذه التجربة التى كانت واضحة فى إيران ومصر وتونس وكانت مقدمة للاحتلال والسيطرة السياسية والعسكرية .

كما مكن النفوذ الأجنبي مجموعة ضخمة من أولياء الاستعمار من السيطرة على مقدرات الاقتصاد في القرى ذلك بتوزيع أراضي السلطان قبل الدائرة السنية في مصر عليهم وخاصة غير المسلمين من اليهود والأرمن والنصارى الذين اختيروا ليكونوا أعواناً للاستعمار وهي تجربة خطيرة يجب أن تدرس وبذلك أصبح المجتمع الاسلامي عبارة عن مجتمع روماني تماماً سادة فوق القمة وعبيد يفلحون الأرض ويعاملون أسوأ معاملة .

وكان الهدف الرئيسي من هذا التغير الاجتماعي الذي أحدثه النفوذ الأجنبي هو السيطرة على أملاك المسلمين ومقدرتهم عن طريق إغرائهم بالمطامع والأهواء وفتح باب الاستدانة أمامهم ورهن محاصيلهم وثرواتهم التي كانوا ينفقونها في الملاهي وبيوت الخنا ومن ذلك :

١ — إحضار الراقصات والمغنيات والمفسدات في الأرض حتى يبيع الثري محاصيله وينفقها في الأماكن اللاهية في العواصم مثل شارع عماد الدين وغيرها .

٢ — وجود المرابي الصغير في كل قرية من اليونانيين ، دكان صغير يبيع الخمور ويقرض بالربا .

٣ — فرض القانون الوضعي الذي يبيح مختلف عمليات الاغتصاب الجنسي بدون محاكمة مما يشجع كبار الزراع والملاك على تبديد ثرواتهم .

٤ — الدعوة إلى أن الاسلام دين عبادة ولا علاقة له بالاقتصاد أو السياسة وهي محاولة لاغراء ضعاف الايمان بأنهم إذا غامروا في ميدان الربا فليس هذا مما يؤاخذ عليه .

وقد حققت هذه المؤامرة نتائج خطيرة إذ أنه — حسب تقرير لكرومر في مصر بعد عشر سنوات من الاحتلال البريطاني لها أصبح ربع الأراضي في أيدي المستعمرين ، ومثل هذا جرى في فلسطين حيث استطاع الصهيونيون الاستيلاء على مواقع استراتيجية كثيرة في البلاد هذه النتائج الخطيرة كشفت عنها حركة اليقظة الاسلامية ، وأبانت مدى الخطر الخطير على التبعية لأسلوب امبراطورية الربا

فى السيطرة على مقدرات البلاد الاسلامية ومن ثم انطلق كثير من الباحثين المسلمين لكشف هذا المخطط والدعوة إلى العودة إلى المنابع : إلى منهج الاسلام فى الاقتصاد وتحرير الارادة المسلمة من سيطرة النفوذ الأجنبى .

وقد أعان على ذلك أن كثيراً من الباحثين الغربيين حذر من هذا الخطر وأعلن فى وضوح وصراحة عظمة المنهج الاسلامى فى الاقتصاد .

يقول الأستاذ : الدكتور عبدالله العربى

إن تجربتى فى ميدان الاقتصاد بينت لى أن كثيراً من البديهيات التى تنتشر فى معظم الكتب الاقتصادية التى يتربى عليها لجان الجامعات الغربية ومنسوخاتها فى الجامعات العربية تقوم بدور الطعم الطيب الذى يمتزج مع أدوية الأطفال لكى يجعلها مستساغة المذاق دون أن يكون لها علاقة بفعالية أو وظيفة الدواء انها تمنح الحرفى ثقة كاذبة بالنفس وقدرة ظاهرية لاجدال فيها على خدمة أهداف أصحاب القرار الذى يهتمون قبل شىء بالاجراءات الشكلية .

فهل ينظر علم الاقتصاد إلى السلع ، وهل هى ضارة أو نافعة ، وإلى المشروبات هل هى محرمة أم غير محرمة، وإلى المواد المخدرة،هل تتفق دوافع السلوك الاقتصادى للفرد والجماعة أو تتنافى مع المبادىء الأخلاقية القويمة (كالجشع أو المخادعة أو الانتهازية فى عمليات المبادلة أو الربا الفاحش فى عمليات الاقتراض فالاقتصادى لا يعنى إلا بالسلعة بوصفها سلعة تشبع رغبة إنسان بعينه ، دون تقدير للنواحى الأخلاقية التى لا تهم الاقتصادى فى قليل أو كثير ، هذا التمييز بين ماهو أخلاقى وبين ماهو غير أخلاقى فى أى سلوك اقتصادى لا يدخل فى دائرة اختصاص العالم الاقتصادى ، فهؤلاء لا يهمهم ما تعود به حركة الاشياء من إنعكاسات على حياة الانسان والمجتمع فهم يعملون على تحسين الحسابات القومية ، دون النظر إلى المشكلات الحقيقية لفقر الجماهير ، وفى بلاد كثيرة تحقق معدل عال للنمو فى فترة طويلة ولكن هل أحدث هذا المعدل أثراً عميقاً فى مشكلات الفقر الجماهيرى .

فالاقتصادى الحديث مجرد من أية التزامات اجتماعية أخلاقية سوى التزام واحد وهو تنفيذ مآرب السياسى دون منافسة ، فهو التزام بالأشياء وأفكار الإنسان وسلك تبعية الاقتصادى لقوى مهيمنة تعيش على المصالح والأوهام السائدة

ومن ثم فإن هذا كله يعمل على إعاقة وضع أى إصلاح ينفع عملية التنمية فى اتجاه تحقيق إنجازات حقيقية فى البلدان المتخلفة ، إنها قبل كل شىء تحاول إشاعة وتشجيع الفساد والاتجاهات المضادة للإصلاح الاقتصادى فى تلك البلدان ومن هنا نشأت أخطار الرشوة والفساد وأثاره المدمرة فى عملية التنمية .

ويقول جونار : إنه لرسوخ الفساد فى البلدان المتخلفة سبب عام هو عادة تقديم الرشوة إلى السياسيين والموظفين التى تلجأ إليها الشركات الغربية من أجل الحصول على أسواق لها وتمرير أعمالها بدون أن تلاقى عقبات كشهرة ، أن البلدان الغربية دعمت الرجعية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية من النوع الأشد شوقا فى البلدان المتخلفة : هذا الانحراف كان مرضيا ليس للأقليات الحاكمة فى هذه البلدان وحسب بل كان مواتياً أيضا للسياسات التى تنتهجها بالفعل البلدان المتطورة .

هذا عن فساد أخلاقيات الاقتصاد .

كذلك فقد أشار كثير من الباحثين إلى إخطار رأس المال الأجنبى وأثره فى تحقيق التنمية فى العالم الثالث ، وأنها فكرة استعمارية وطعم ابتلعته الدول النامية وما هو فى الحقيقة إلا أداة الاستعمار الجديد ، وقالت هذه الأبحاث إن رأس المال المتدفق إلى خارج البلاد النامية فى صورة فوائد وأقساط يفوق معطيات رأس المال إليها ، وقال أحد الخبراء إن العالم الثالث كان سيكون فى وضع أفضل لو لم تقدم إليه القروض التى قدمت إليه .

وكتب كثير من الباحثين المسلمين عن فساد المخططات الاقتصادية فى العالم الإسلامى ، ومن ذلك قول الدكتور مصطفى السعيد : الذى قال إن مبدأ (التنمية) والإنتاج السائد حالياً لا يستمد جذوره من قيمنا لأنه يقوم

أن تراكم رأس المال وحده هو القادر على زيادة الإنتاج ومن ثم تحقيق (التنمية) وهذه النظرة لا تتمشى مع المبدأ الإسلامى لأنها مبنية على أساس مادى متجاهلة عناصر الأخلاق والكسب المشروع وحقوق العمال والعدل والإنصاف والقيم الإسلامية الأخرى .

وقال : إن الإسلام فى مجال توزيع الثروة يأمر بالتوزيع على أساس العدل لا على أساس المساواة ويعطى كل مجتهد نصيباً من الناتج حسب جهده وفى نفس الوقت لا يهمل الضعفاء بل يحض على الاحسان إليهم ، كما أن الاسلام يمنع الاستغلال بصورة حازمة ولا يثقل على المحتاجين بأعباء دفع الربا كما يحدث فى النظم الاقتصادية الحديثة وقال إن الصيحة العالمية المطالبة بنظام عالمى جديد أصبحت تجد استجابة فى عالم الغرب بعد أن كانت تحت تأثير اعتقاد جازم بأنه بتقدمه المادى المضطرد قد شارف حد الكمال ، غير أن هذا الرقى المادى لم يحقق السعادة الدائمة للجنس البشرى ، فمازالت الشعوب المتخلفة مغلوبة على أمرها تستغلها الدول الصناعية المتقدمة وضاعت روح التمييز بين الحق والباطل وأصبحت الأنانية والعبث بحقوق الآخرين وعدم الاكتراث بالمسئوليات الأدبية والحفاظ على حرية الضعيف وهى نفس السمات المميزة لهمجية العهود الأولى .

(٢)

إن القول بأن قضيتا الشيوعية والرأسمالية تتقاسمان السيطرة الفكرية والاقتصادية على بلدان العالم الاسلامى هى حقيقة واقعة ، فإن قضية نهب موارد البلاد الاسلامية من كل القوى المسيطرة الآن فى العالم هو حقيقة واقعة ، سواء من القوى الرأسمالية أو القوى الشيوعية ، بينما تجد القوى اليهودية الصهيونية خلف العمليات فى كلا المعسكرين ومن أجل نهب ثروات الأمصار الاسلامية واستغلال المسلمين بأجور زهيدة فان هناك شتى الخلافات والفتن بين الدول الاسلامية لاستدامة تفرقها وحتى لا تتمكن من امتلاك إرادتها ، وقد أسفرت الحرب

العالمية الثانية عن بروز الولايات المتحدة زعيمة قوية للعالم الرأسمالي ومارست دورها بديلا لبريطانيا وفرنسا على نفس طريق المساعدات والمشروعات وسياسة الأحلاف والاعتماد على الكيان اليهودي مع فلسطين لابقاء الدول العربية مفككة وضعيفة ومتحللة .

ولما كانت القوى الكبرى تنظر إلى العالم الثالث كاحتياطي ضخم لتصريف أزماتها وتصديرها إليه ، وقد أصبحت ديون العالم المتقدم على العالم المتخلف ٤٠٠ مليار دولار وقد كانت الموارد التي نهبتها بريطانيا من الهند وهولندا من أندونيسيا واليابان من الصين مصدراً هاماً من مصادر التصنيع والتقدم الذي حققته الدول المستعمرة بينما تركت الشعوب المنهوبة في حالة من الركود والجمود عطلت تقدمها مئات السنين وقد تضاعفت أسعار النفط أكثر من أربع مرات خلال عام واحد (حرب رمضان) وتبعها ارتفاع أسعار المواد الخام والزراعة التي تصدرها الدول النامية الأخرى ، هذه الثروة لم تكن ثمرة طاقة إنتاجية حقيقية وإنما هي استنزاف لثروة ناضبة خلال سنوات قليلة ولا تعويض بعدها .

وقد كانت هناك ولا تزال متوافرة مخططات لابتلاع فائض المال الاسلامي وبيع السلاح هو واحد من الأسلحة التي تمتص بها الثروات فالسلاح كما يقولون منهار مثلث الأطراف من الذهب والدولار والأوراق المالية وامتصاص الفوائض المالية هدف واضح للحيلولة دون تمكين المسلمين من بناء صناعات نقدية كما كان ارتفاع أسعار الذهب وسيلة لالتهام هذه الفوائض ، وقد تضاعفت قيمة الذهب أكثر من عشرة مرات

والمخطط الثلاثي (الذهب - الدولار - الأوراق المالية) يدار من الدول الرأسمالية الكبرى وخاصة الولايات المتحدة بخطة مسيورة دقيقة تهدف إلى تحقيق ما يمكن ابتلاعه من الفوائض المالية المستثمرة في تلك الدول .

ولنبدأ القصة من أولها :

يقول دكتور شاكر مصطفى : إن الحضارة الغربية قامت على أسس الفكر

الإسلامى تبجحت وادعت أنها لا تدين له بشىء ، ثم قامت على دماء وأقوات الشعوب الأخرى ، وعلى سواعد هذه الشعوب التى أخرجت الثروات .

هذه الحضارة تمت على ثلاث مراحل وكل مرحلة منها كانت كارثة إنسانية :

أولا : مرحلة الإبادة الجماعية والرقيق الأسود والتوسع المسيطر .

ثانياً : مرحلة النهب العالمى .

ثالثاً : مرحلة تنمية التخلف .

أولا : مرحلة إبادة الرقيق : لقد بدأت الحضارة الغربية بأداتين أخذتهما أوروبا الغربية من المسلمين : البوصلة والبارود ، البوصلة أساس السفينة الضخمة المتعددة الأشرعة والتى فتحت الباب للقوة البحريه والانتقال من البحار إلى المحيطات والبارود أداة القتل عن بعد بامتياز ، ثم وضع كولومبس قانون العمل : [الزحف إلى الغرب لتطويق الشرق ونهبه] ، وما زال الزحف والنهب هما هدف الغرب إلى اليوم .

وفى سبيلها دمرت قارات ثلاثة : أربعة قرون ظل يدمرها ، أما الأولى فسح من وجها كل من عليها من البشر ، حملة البنادق والكتاب المقدس بمجرد زلوج ، هل لهم من روح ، قوافل من العبيد ، وهكذا ذبح الغرب أربعين مليون إنسان فى الأولى (أمريكا) واسترق مائة مليون فى الثانية (أفريقيا) وامتص دماء خمسمائة مليون فى الثالثة (آسيا) .

وقد سلطت الأساطيل الأوربية على الشواطىء الأفريقية تصطاد منها الزنوج ليكونوا آلات الحرث والتعدين والخدمات فى أمريكا .

كانت أفريقيا فى القرن السادس عشر والسابع عشر بلدا للحضارة الإسلامية والممالك الواسعة والثقافة والانتاج ، بعد امبراطورية غانا الشاسعة التى تقوم على قاعدة من الذهب وهناك جاءت أمبراطورية الماندنمو الاسلامية فى مالى ، عاصمتها تمبكتو ، وكانت تزدحم بالعلماء والمساجد والمواكب والقصور

والثروات والذهب والنحاس وفى أراضيها القطن والزراعات وجاءت أمبراطورية سنغاى : الدولة النيجرية بملوكها وجيشها المنظم وفعلت الأساطيل الأوربية بهذه البنى الحضارية فعل الزلزال لم ترم تسعة أعشارهم فى البحر موتى ، وترمى الباقى السياط وراء البحر ولكنها أصابتها بالركود ، وشوهت نظامها الانتاجى ودمرت العلاقات الاقتصادية منها ، بينما صارت النخاسة تجارة أوربية كبرى من أربح التجارات .

ثم مد الغرب نقاط الدخول ومراكز الاتصال والامتصاص إلى شواطىء آسيا كلها وحين انتهت هذه المرحلة بعد حوالى القرنين كانت أوربا سيدة البحار والنظام البحارى فى العالم كله .

وجاءت بعد ذلك مرحلة النهب العالمى : إنهم يسمونها مرحلة الاستعمار : بلغ التنين الغربى من القوة الدرجة التى لم يعد فى العالم قوة تقف فى وجهه وقد تزايد جشعه فى الوقت نفسه ، وبينما كان ينشر على موائده الأوربية أفكار التقدم والحرية والأخوة والمساواة ، كان نظام التحرك الاستعمارى يتوطد ويتوطد مع نظام النهب العالمى .

قافلة (المبشر ـ الجندى ـ التاجر) كانت أداة التحرك .

يدخل المبشر ليتعرف إلى الأرض ويلحق به الجندى ليدمر كل مقاومة ثم يصل التاجر ممثلا بالشركات الكبرى ، ليبدأ عمليات ضخ الخيرات إلى أوربا ، تكرر ذلك فى كل مكان ، فى الصين كما فى موزامبيق ، وغانا وفى شواطىء الشام كما فى الجزائر والخليج

توطد نظام النهب بإقامة الاقتصاد الخام : الاقتصاد الذى يقدم فقط المادة الخام للمصانع الغربية على حساب الانتاج الغذائى وتشغيل الأيدى العاملة المحلية بالسخرة والسياط بدل نقلها عبيداً إلى ماوراء البحر وبينما كان الانتاج الاستعمارى (من الزيت أو القطن أو الذهب أو الماس) يباع أحياناً بعشرة أضعاف سعر الشراء أو بعشرات الأضعاف ، كانت الكروم والخمور رغم إسلام الجزائر تصبح موردها الأول والقطن فى الهند ومصر يدير مصانع مانشستر

كان أهل البلاد يستوردون الطعام ويتساقطون على دروب الجوع ، كان شيء أخطر من ذلك يتم على المستوى الثقافى : هو تدمير الهوية الحضارية لهذه الشعوب ، هو « التغريب » : إلغاء اللغة القومية وإحلال الاستعمارية محلها واستغلال الجهل الدينى وازدراء بالحضارة المحلية وقيمتها ونقلها إلى المتاحف الاوربية .

كان توجيه التربية من أجل التخلف ، التعليم كان هدفه تخريج الحد الأدنى من المدجنين ليكونوا الجهاز المحلى للمصالح الاستعمارية ، فبعد أربع قرون من الاستعمار الأفريقى والإسلامى ظلت نسبه الأمية فى القادرين تزيد على ٨٦ فى المائة .

خلال ذلك كانت الأساطيل الغربية المتزايدة القوة والعدد ، تسوق دماء القارات الثلاث وخيراتها إلى أوربا لتزيد من قواها التكنولوجية والحربية وتمنحها التفوق الساحق :

وكان تزايد القوى الغربية يؤدى إلى تزايد الاستغلال الاى يؤدى إلى مزيد من الضعف والتخلف فى المستعمرات الذى يؤدى إلى تزايد القوة الغربيـة من جديد .

هذه الأسماء التى عرفت وكونت ثرواتها الأسطورية من أصحاب الجلود السوداء والسمراء والصفراء ، باركليز ، روتشلد ، الماس ، الخ .

الاوربيون الذين نزلوا أمريكا الشمالية مارسوا النهب نفسه ضد الأخلاط البشرية التى نزلت أمريكا الجنوبية .

المرحلة التى تعيشها اليوم : تنمية التخلف ، ظهور التنين الامريكى ، النوى ، التكنولوجية والنووية التى تفجرت من أيدى الغرب تستخدم اليوم بكامل طاقاتها ، لا لتطريق العالم الثالث ونهبه فقط ولكن لتنمية التخلف فيه التحكم فى الشعوب عن طريق تكويناتها الضعيفة ، كل قوى الدنيا أثيرت ضد العرب حين ارتفعت أسعار البترول سنة ١٩٧٤ مع أن الدخل البترولى العربى

كله لا يساوى الانتاج العربى لإيطاليا وحدها ، إحدى الشركات ميزانيتها ٤٤ مليار دولار ٣٢٢ مليار دولار ، تعود إلى منتجى الموز (٦ فى المائة) ، ومنتجى الشاى ١٠ فى المائة ومنتجى الكاكاو (١٣ فى المائة) ، والبترول ١١ فى المائة فقط .

الهدف هو امتصاص خبرات المبشرين الناشئة لئلا تتكون قاعدة تنمية قوية ، والربط بعجلة الاستهلاك لتكون أكثر تهديداً بتأثير الجوع ، إثارة جميع عوامل التمزق الاجتماعى والدينى واللغوى والسياسى والاقتصادى ، فى المجتمعات النامية لتكون أضعف من أن يستغل خبراتها أو ترفض الجوع .

٣ — النفـــط

يعتمد الاقتصاد الإسلامى فى هذا العصر على عدد من المصادر فى مقدمتها (النفط) ولا ريب أن للنفط أهمية كسلاح استراتيجى وسياسى ولكن الغرب يحاول دائماً التأثير على هذا السلاح وتعطيل إمكانية استخدامه مستقبلا ومن ذلك سعى الغرب لتحطيم أسوار البترول وتحويل سوق البترول من سوق يتحكم فيها البائع إلى سوق يتحكم فيها المشترى فالغرب الاستعمارى يرى فى ارتباط مصير صناعته وبالتالى حضارته المادية بمصير تدفق البترول من أرض هى فى الاعتبار الاستراتيجى خصم سياسى وحضارى أمراً بالغ الخطورة يضع الغرب تحت رحمة هذه البلدان ، وقد يرد على ذلك التصور بأن الغرب مطمئنين إلى ترتيب الأوضاع فى هذه المنطقة وإلى صلاته الظاهرة والخفية ، منها بما يمكنه من استبعاد أية مخاطر تنشأ من احتمال قطع البترول ، وأن العرب ليسوا جادين فى ذلك ولا يمكن أن يقدموا على عمل من هذا القبيل وأنهم قد صرحوا مراراً بأن النفط مورد وليس سلاحاً والرد على هذا الاعتراض بأن الغرب فى حساباته ومشاريعه لا يحسب حساب اليوم بل حساب الغد : « إن الغرب الاستعمارى بشقيه الرأسمالى والشيوعى رغم مارتب من أوضاع فى المنطقة وما غرس فيها من قيادات فكرية وسياسية مرتبطة به ، وما زرع من ألغام وبذور من تفرقة ، واصطنع من أحزاب وواجهات لايزال غير مطمئن إلى أوضاعها ، وهو يعيش هاجس الخوف الدائم من الانبعاث الإسلامى المرتقب فيها ، لا يغره ما يشاهد أو يلمس من عوامل ضعف أو تفكك ، ولذلك يريد تجريد المنطقة من كل عوامل القوة التى يمكن أن تعينها فى نهضتها المرتقبة أو يمكن أن تكون سلاحا فى يدها تشهره فى وجه أعدائها إذا تغيرت الظروف وتيسرت لها القيادة المخلصة التى يمكن أن تفكر فى ذلك أو تلجأ إليه .

إن هذا المعنى السياسى والاستراتيجى يجب ألا يغيب عن أذهاننا مطلقاً ويجب ألا يطمس وسط الحسابات الاقتصادية ، فهو الحقيقة الأولى الجديرة

بالاعتبار ويزداد خوف الغرب وتوجسه عند مايشاهد العالم الإسلامى (غير العربى) يشارك العالم العربى نعمة حيازة هذه الثروة فأكبر البلدان المنتجة خارج الوطن العربى هى أقطار ضمن الوطن الإسلامى الكبير ، وهى (إيران ونيجيريا وأندونيسيا) وهى دول إذا نمت المحاولات يوما وتوحدت المشاعر وأصبح للعالم الاسلامى قيادة موحدة مؤثرة يمكن أن نلهب الإحساس الإسلامى الواحد فيه ، من الطبيعى جداً أن يكون مع العالم العربى فى مواقفه قلباً وقالبا

فأوربا الغربية رغم العداء السياسى العميق لروسيا فهى تبحث عن بدائل البترول العربى أكثر أماناً ، وأكثر ضماناً فى التدفق من بترول العرب (خط الانبعاث الروسى إلى أوربا) وهكذا نثبت بوضوح وجلاء المخاوف المسيطرة على عالم الغرب من مستقبل العالم الاسلامى ومستقبل علاقاته مع الغرب .

بل إن انفجار أسعار النفط عام ١٩٧٣ لم يكن بعيداً جداً عن بصمات الغرب ومخططاته ، والحقائق توضح كثيراً من المفاهيم المتداخلة ، فحرب ٧٣ وهى الحدث الذى فجر الاسعار أثبتت نتائجها والأحداث التى أملتها أنها كانت حرب (تحريك) وحرباً محسوبة لكى يحصل بعدها الذى حصل من مفاوضات واعتراف بإسرائيل تحت مظلة نصر اكتوبر وما تلاه فى رفع الأسعار ، لا يقول إن الغرب فعله بل استسلم لرفع الأسعار ، هذا مخطط لتحويل آثاره لصالحه مع وجود التخطيط والقدرة على كسر هذا الارتفاع والتخفيض مجردا حين يحين الوقت المناسب وتقتضى الظروف .

كان الغرب بسكوته على رفع الأسعار يهدف إلى :

(أولا) : إصابة البلدان المنتجة بنمط اقتصادى يقوم على البترول وحده وربط مصيره به بحيث يؤدى ضعف أو انقطاع هذا المورد فى المستقبل إلى دمار اقتصادى محقق لهذه الدول ، بحيث يصبح تأمين تدفق النفط واستمرار ضخه إلى الدول الغربية : الطريق الوحيد الذي لا تستطيع الدول المنتجة

التخلى عنه ، مما يعنى ضمانا وأمنا أكثر فى استمرارية تغذية البترول لآلة الغرب الصناعية وحتى لايستخدم البترول كسلاح سياسى للضغط على هذه الدول .

إن هدف الغرب من استراتيجية البترولية :

أولا : ضمان استمرار تدفق البترول .

ثانياً : ضمان الحصول على البترول بأسعار تعتبر مقبولة بالنسبة له والهدف الأول يفوق فى الأهمية الهدف الثانى ، وأن الغرب مستعد لقبول بعض التضحيات المؤقتة فى الهدف الثانى لضمان تحقيق الهدف الأول .

٢ — إن الغرب أدرك من الطبيعة السياسية للدول المنتجة وتفكير النخبة فيها أن بنوك الغرب ومؤسساته ستكون المكان المفضل لعائدات البترول وأن الغرب سيسترد باليد اليسرى مادفعه باليد اليمنى ، أما مااصطلحت صحافة الغرب على تسميته بالفوائض فستقبع فى خزانات مصارفه لتتحول إلى رقم سرى يدير ماكينة الغرب الاقتصادية كما يدير البترول ماكينة الصناعات .

أما تفكير الاستعمار فى داخل العالم الإسلامى والعربى حيث المسلمون الجياع واليد العاملة الرخيصة وحيث الأرض الغنية فى فيافى السودان أو سهول البنجاب وغيرها فقد أدرك الغرب جيدا أن مابين العالم الإسلامى والعربى وقادته من صراعات وخلافات ومخاوف وهواجس يمنع أن يكون الاستثمار داخل الوطن العربى المكان الطبيعى لهذه الأموال .

وما زاد عن ذلك من فئات الأموال فإنها لن تساهم سوى فى مشاريع تنفذها شركات الغرب وصناعاته حيث التكنولوجيا تباع بأفدح الأسعار ، وحيث التلاعب والغش والخداع فى هذه المشاريع ، وحيث الامتدادات غير الطبيعية لهذه المنشئات فى شراء الذمم والأعوان والسماسرة مما يخلق طبقة ترتبط مصالحها بمصالح الغرب وترى العلاقة بينها وبينه (زواجاً كاثوليكياً) حيث تشاركه الركوب فى سفينة الرخاء .

أما الشعوب فما أصابها من رذاذ الثروة فترف تتعود عليه ولا تستطيع الانفكاك عنه حيث تصبح بعدها التضحية أو المطالبة بها ضرباً من الخيال ، وتنشأ فى ظل ذلك طبقات اجتماعية مستفيدة مرتبطة بأنظمة الحكم راغمة لها وأجهزة قمعية ينفق عليها ميزانية الدولة حيث (فتات الفوائض) وما تبق من سقط (البترودولار) وبذلك نرى أن ما كان من ارتفاع أمر العوائد النفطية لم تكن أمراً محضاً لا بالمقياس الاقتصادى ولا بالمقياس السياسى وأن الغرب لم يكن غافلا عن هذه الآثار بل عارفا بها مدركا لها تمام الادراك ، وقد استغل الغرب فرصة زيادة الأسعار لتزيد جامعاته ومراكز بحثه سعيها الحثيث لتطوير البدائل معتقداً أنه كلما زادت معاناة المواطن الغربي من رفع أسعار البترول شكل ذلك عامل تحفز له للبحث وتطوير البدائل على أساس قاعدة (الحاجة أم الاختراع) .

إن الدور الذى لعبته بعض الدول المنتجة فى خلق مايسمى بالأزمة اليوم فهذه الدول هى التى خلقت مايسمى بفائض السوق بضخها ملايين البراميل وبحدود تزيد كثيراً عما كانت تمثله من أرقام عن إنتاجها الفعلى .

هذا مع التنافس على زيادة الإنتاج وخفض السعر لترغيب المشترين حتى يمكن القول أن مسئولية الأزمة الحالية يقع على عاتق الدول المنتجة وخاصة الدول التى ساهمت فى بدايات الأزمة وأغرقت السوق بفائض إنتاجها ، وهناك الدور الذى تلعبه بريطانيا فى بعض الأسعار وإغراق السوق بنفط بحر الشمال ، مما جعل بعض دول العرب تهدر مصالحها كدولة منتجة للدول مقابل مصالح الغرب الاستراتيجية العليا ، أن هناك تخطيط بين الدول الغربية فى إطار استراتيجية غربية متكاملة توزع فيها المصالح والمنافع والمغانم من حقوق الشعوب الضعيفة المغلوبة على أمرها .

إن هذه الأزمة الحالية فى سوق النفط عام ١٩٨٣ كان مخططا لها منذ يوم بدء أسعار النفط فى الارتفاع عام ١٩٧٣ وعند ماجاءت ساعة المد العكسى

لتخفيض كان الأخير أن الغربى من الجبهة السياسية للدول المنتجة وليس من الجبهة الاقتصادية ، حيث أن المخاوف التى تحيط ببعض الدول المتقدمة من الظروف السياسية المحيطة بها تدفعها لإنتاج مزيد من النفط لتأمين احتياجاتها أو احتياجات غيرها الدفاعية وحيث اختلافات المواقف والاتجاهات السياسية للدول المنتجة تدفعها لمزيد من التنافس على البيع بأسعار مخفضة وهكذا سارت الأزمة كما خطط لها الغرب لإنهاء سلاح البترول كلية وإخراج الغرب من حالة الكساد الاقتصادى الذى يعيشه وربط اقتصاد الدول المنتجة بالدول المستهلكة كلية ، بعد أن تعودت على النعمة وكيفت اقتصادها كله على النفط ، وانعكست الآية فبدلا من أن يفرض المنتجون شروطهم يحاول الغرب أن يجعل المستهلكين هم الذين يفرضون شروطهم فى المرحلة الأخيرة من المخطط الغربى ، ولتتحول القوامة إلى المستهلك على البائع وتنشأ عنه تبعية اقتصادية سياسية (...)

(٤)

لقد ارتفعت الصيحة منذ وقت قريب إلى العودة إلى الاقتصاد الإسلامى وتحرير المسلمين والبشرية جميعاً من لعنة الاقتصاد اليهودى ، يقول الأستاذ أحمد حسين : لم يصل اليهود إلى ما وصلوا إليه من خديعة البشر إلا من خلال أوربا وأمريكا وما انتهينا إليه من كفر بالمعنويات (الدين) وعبادة المال يستوى فى ذلك الشرق (الشيوعى) والغرب (الرأسمالى) السر فى الاتفاق بين الشيوعية (عدوة رأس المال) والرأسمالية (عابدة رأس المال) وأن الطرفين لهما إله واحد هو المادة ، وعندما كانت الحضارة الإسلامية هى المهيمنة والمسيطرة ، لم يستطع اليهود أن يصلوا برأيهم فى دنيا المال (الاقتصاد) إلا بعد أن فقد المسلمون سلطانهم وتفوقت عليهم أوربا ، ونجح اليهود فى أن يصبحوا ملوك المال وأن يخضعوا الدنيا وبما فيها العالم الإسلامى نفسه لسلطانهم ، بحيث أصبحت شركات التأمين والبنوك تغمر العالم الاسلامى من مشرقه إلى مغربه دون أن يتصور الكثيرون أنهم يغرقون فى الأذقان فى خطة شبيهة فى الاسلام بالكفر حيث توعد الله المرابين بحرب من الله . حانت الساعة التى تواجه الدنيا فيها باقتصاد إسلامى مبرأ من لعنة الاقتصاد اليهودى (الربا) و

لقد فشلت النظريات الرأسمالية والشيوعية والاشتراكية ونجحت النظرة الاسلامية ، أن علماء الغرب يعترفون بأنه لو طبقت الزكاة على مستوى العالم الاسلامي لما وجد فقير ، وهى دعوة لاقامة مؤسسة الزكاة .

لقد وضع آدم سميث (اليهودى) أصول النظام الرأسمالى وكان يعتقد أن هذه الأنظمة ستحقق العدالة وأن الأفراد سيكونون سعداء لأنه يسمونه (المذهب الحر) يعطى للفرد الحرية أن يربح كيف يشاء وينتج كيف يشاء ، وينفق كيف يشاء وكان يعتقد أن نتيجة ذلك كله هو إسعاد المجتمع كله ، وأن المنافسة بين التجار وبين أصحاب المصانع والشركات هى التى سوف تحقق عدالة الأسعار وسوف تظل الأسعار فى خدمة جماهير الشعوب على أساس المنافسة الحرة بين الرأسماليين ، كان من نتيجة هذه الحرية وجود طبقة الرأسماليين ، هذه الطبقة التى اتجهت إلى رعاية مصالحها واتجهت بالتالى إلى الظلم والطغيان على طبقة الفقراء والعمال واستغلت جهود الفقراء والعمال فى تنمية ثرواتها فتكون المنافسة الاخرى أقوى وأشد

فى النظام الرأسمالى العمل سلعة فى السوق بين عرض وطلب وشراء وبيع ، العامل محكوم بهذه السوق يفرض عليه الرأسمالى الأجر الذى يحدده ، الرابح فى الرأسمالية حر يربح كيف يشاء : التوزيع أو الانفاق مطلق ، أما النظرية الشيوعية فهى تمتلك كل شىء ولا تبيح الحرية الفردية ، لقد فشل كلا النظامين فى تحقيق العدالة ، ا . هـ

لقد كان طغيان المال وغروره هو المعول الذى قوض الأمبراطوريات القديمة والحديثة على السواء من حضارة بابل ومصر القديمة إلى اليوم .

ويقول ديستان فى كتابه « الديمقراطية الفرنسية » :

إن الماركسية والليبرالية التقليدية نظريتان ناقصتان وتتنكران الحقيقة الإنسانية وأنهما ينفلتان بسهولة من قبضة البحث العلمى وأن التحيز يغلب

ظليا إلى اليوم أكثر من العقل وأنهما لم تعودا تمثلان الوقائع المحسوسة فى مجتمعاتنا إلا تمثيلا ضعيفا ، وأنهما يعملان بصعوبة لإيجاد حلول مشاكلنا الواقعية وأن الموقف الموضوعى يدعو إلى ترك هذه النظريات غير المتكاملة إلى البحث عن صيغة جديدة مقبولة » .

فإذا كان هذا رأى زعماء الغرب فى نظامهم فكيف نأخذه ونطبقه ونكون تابعين لطريق يؤدى إلى السقوط ، إن خطر التبعية هو أخطر التحديات التى تواجه العالم الاسلامى فى خضوعه للمذاهب الاجتماعية والاقتصادية التى تسود العالم اليوم والتى تخطاها الزمن والعلم .

٥ — الربا

أخطر مارمى به النفوذ الأجنبى العالم الإسلامى هو نظام الربا الذى أفسد الاقتصاد الإسلامى وتجربة الربا فى الغرب معروفة ، وهو إقراض الملوك حتى إذا أحس اليهود بأنهم يتساقطون ابتكروا فكرة المصارف ليختفوا وراءها واستطاع الربيون أن يحصلوا من الكنيسة على إقرار الربا ، بل إن البابا بى التاسع تعامل بالربا ١٨٦٠ ، ثم وضع استثناءاً للخطر على التعامل بالربا فى أموال القاصرين فصار يبيح تثميرها بالربا بإذن القاضى ثم جاءت الضربة القاضية مع الثورة الفرنسية حيث أباحت مشروعية الربا وجعلته مبدأ رسمياً لكل أحد أن يتعامل بالربا،ذلك أن الثورة الفرنسية من عمل اليهود وبها خرجوا من الجيتو ، وسيطروا على الاقتصاد الغربى ثم الاقتصاد العالمى .

ولا ريب أن الربا هو مفتاح هدم أخلاقيات المجتمع والأفراد .

وعند ماسيطرت الدول الغربية على العالم الإسلامى فرضت عليه نظامها الاقتصادى وسخرت كل مواردها الاقتصادية لتحقيق مطالب الغرب ودعم اقتصاده ، وحرمت الأمة الإسلامية من نظامها الإسلامى ومن مواردها فى وقت واحد ، فكان هذا النظام وبالا على مقدرات المسلمين وثرواتهم ، ووقع العالم الاسلامى فى نفس الأخطار والأسواء الى عرفها الاقتصاد الغربى وبذلك فقد المسلمون المثل العليا الأخلاقية الى أقامها الاسلام للتعامل والاقتصاد وغرقوا فى الربا والديون وصدق ماقاله رسول الله ﷺ حين قال : (فإنى أخاف عليكم الربا) فقد ذهبت ثروة المسلمين حين اختلط حلالهم بحرامهم وكان ذلك واحداً من أبرز أخطار التبعية الغربية فى ميدان القانون والسياسة والتربية حين خضع المسلمون للمذاهب الأجنبية الى فرضها الفرض الاستعمارى وتلاشت ذاتيتهم فى ذلك الاحتواء الغربى حتى تذهبوا له وعارضوه

وقاوموه فى السنوات الأخيرة بالبحث عن أسلوب اقتصادى أصيل بعيداً عن الربا للتخلص من التبعية الغربية .

وكانت ثروة المسلمين فى الفكر الاقتصادى بالغة الأثر فى إيجابيتها وسلامتها ومتانة أسلوبها ولم يعد من سبيل إلى تطبيقها بعد أن سجلت تجارب الآخرين فى بيئة المسلمين فشلا ذريعاً وثبت أن أحسن ما وصل إليه العصر فى مجال القانون والاقتصاد والتربية مستمد من الاسلام وما كشف عنه علماء الغرب أنفسهم قبل علماء الاسلام من أصالة خصائص الاسلام فى فكره وعمق قدرتها على حل مشا كل الانسان ومن أسف أن المسلمين فى السنوات الخمسين الأخيرة جهلوا ميراثهم وتراثهم الحافل بالهدى وعاشوا يحرثون فى تراث فاسد وفكر زائف عجز عن العطاء لأهله أنفسهم مما دفعهم إلى البحث عن أساليب تحررهم فى مجال الاسلام نفسه .

٢ ـ وتتردد فى السنوات الأخيرة محاكات ومحاولات ترمى إلى الحصول على فتاوى بالتفرقة بين ربا الفضل وربا النسيئة من ناحية وبين الاقراض الاستهلا كى والاقراض الانتاجى ولكن هناك تقرير حاسم أجمع عليه العلماء هو أن كل أنواع الربا حرام سواء أكان التعامل بين أفراد أو شركات سواء كانت النتيجة بالربح أو الخسارة .

يقول الدكتور موسى شاهين لاشين :

من المتفق عليه أن كل المعاملات التى تجد بين الناس لابد لها من ميزان إسلامى وأصل ترجع إليه فإذا وافقت ذلك الأصل فبها ونعمت وإن لم توافق أصلا إسلاميا وجب تعديلها وتنظيمها لتوافق أصلا ، ولا يجوز إطلاقاً أن نطوع الدين للمعاملة بدعوى حاجة المجتمع ، بل يجب أن نطوع المعاملة للدين لأن الذى شرعه هو الخالق للمجتمع العالم به وبما يصلحه (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) .

ومن يقول أن شهادات الاستثمار حلال ، بنى حكمه على أسس غير مسلمة . فهى ليست مضاربة شرعية ، وشهادات الاستثمار (ا و ب) مال يعطى للبنك يؤخذ منه ربح معين يرتبط هذا الربح بالزمن سواء استثمر هذا المال أو لم يستثمر ، سواء ربح أم خسر والربا مال يعطى لفرد أو أفراد يؤخذ منه ربح معين يرتبط بالزمن ولا يرتبط بالربح أو الخسارة أو الاستثمار .

إن الربا مطلقاً حرام ومن أكبر الكبائر سواء أكان فرد أم أفراد ، أم هيئات أم دول وسواء استفاد من هذا المال آخذه أو لم يستفد وسواء ربح أم خسر .

[ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقى من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون] .

وفى هذا المجال يقول الدكتور محسن اللبان :

إن الفائدة على القروض والودائع إنتاجية واستهلاكية ربا محرم وهذا هو التوصيف الاقتصادى لشهادات الاستثمار (فى الفئتين ١ و ٢
والقول أن معارضة الفقهاء للفائدة الثابتة على رأس المال إنما هو تحفظ منهم لحماية الطرف الضعيف تخوفاً من الظلم وليست نابعة من أصول الإسلام هذا القول غير مقبول ، إذ أن من أصول الدين العامة المتفق عليها من حديث عمر بن الخطاب الشهير بأن الإيمان يستلزم أموراً أخرى ، والإيمان بالقدر خيره وشره ، وهذا بدوره مرتبط يدور حول التوكل الذى يعنى أداء الأعمال والسعى على الأرزاق مع اليقين بأن الله هو المتصرف فى شئون عباده يبسط الأرزاق ويقسمها وأن العمل ذاته ليس هو الذى ينتج الثمرة فقد يقوم اثنان بنفس العمل ولا تتحقق الثمرة لأحدهما .

وقد ذكر الله تبارك وتعالى التوكل مربوطا بالإيمان على صيغة الشرط

(فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) فمحاولة تثبيت الأقدار أو الهرب منها بالتحديد المسبق للعائد يتضمن قدحا فى صميم الدين ، أما الظن بأن الربا يقوم بين الأفراد فقط ولا يستثنى منه الدولة والبنوك فلا يوجد فى شرع الله ما يحرم على الأفراد ، وحدهم وحكم الربا منصبا على التعامل وليس على شخصية المتعاملين ـ أن شهادات الاستثمار تحول مباشرة إلى استخدامات استثمارية حكومية ليس صحيحاً إنها تعود بالنفع على الجميع .

كذلك فإن البنك يقع فى تعامل غير إسلامى وهو بيع وشراء النقد ، وليس هذا استثمارى فى العرف الإسلامى فالبنك وسيط ربوى يتاجر بمال وهذا هو ربا الفضل بلا خلاف .

أما شهادات الاستثمار فهى ودائع وقروض تدر عائداً ثابتاً محدداً تحديدا مسبقاً ومنسوبا إلى رأس المال وليس إلى ناتج الاستخدام الفعلى الذى يمن الله به على عباده ومشترطا على أقدار الله ، فهل للربا وصف آخر ؟

كما أن صندوق التوفير ليس سوى رباً قروض .

• • •

ومن ناحية أخرى يقول أحد الباحثين المصريين .

إن كل المفكرين غير المسلمين يشكون من الربا ويعتبرونه سوس الاقتصاد الحديث ، ومع أن العالم الاسلامى فى أمس الحاجة إلى كل قرش لاستثماره فى أرضه البكر ومشروعاته الأساسية وفى تطوير اقتصاده من مستهلك إلى منتج ، إلا أن لعبة (الفائدة الفعلية) استنزفت أرصدته وصرفتها عن الاستثمار المنتج فى الزراعة والصناعة إلى مجرد الذى يعود على أصحاب رءوس الأموال بفائدة معلومة ، ولكنه لا يعود على الأوطان والانتاج بأى فائدة بل يضمن بقاء هذه الدول مجرد أسواق مستهلكة بدون إنتاج أو أمل فى الاكتفاء ذاتى فضلا عن التصدير ، حتى تظل مجرد أسواق للصناعة الأمريكية والاوربية واليابانية وللزراعة أيضاً إضافة إلى أنها سوق سلاح وحقل تجارب ، والدول

الإسلامية مع سعر الفائدة قصة تشبه المأساة ، فإن معظم أموالها تعود لتصب فى البنوك الأمريكية حتى مايودع من هذه الأموال لدى البنوك المحلية تحوله هذه البنوك بدورها إلى البنوك الأمريكية لارتفاع سعر الفائدة فيها .

إن المواد الخام تشترى من العالم الإسلامى بأبخس الأثمان غالباً وتشترى بنفس الأموال الإسلامية المودعة لدى البنوك الأمريكية ، ثم تصنع بنفس الأموال ويعاد تصديرها مصنعة إلى الدول الإسلامية لتباع فيها بعشرات أضعاف سعرها ، ولطالما استمر هذا فن المؤكد أن اقتصاد الدول الإسلامية لن يكون قادرا على الاستيعاب لأنه آنئذ يكون مجرد اقتصاد مستهلك وليس اقتصاداً منتجاً ، فالاقتصاد المستهلك لا يستوعب الأموال ولا يستثمرها ، وإنما هو يبيعها أو يتركها عند الآخرين لتفيض عنها فائدة لفظها كبيرة وهى فى واقع الأمر لا شىء والمعروف أن نظام الفائدة من أساسه غير إسلامى فالإسلام يحرم الربا واقتصاد العالم اليوم يواجه هزة عميقة وتعتبر الفائدة إحدى عوامل هدمه ، وبهذا لن يكون للمسلمين دور فى اقتصاد العالم مالم تكن لهم شخصية واضحة نابعة من تعاليم الإسلام الذى يحرم الربا ويحض على القوة والعمل ، ولا ريب أن استبدال الفائدة بالنظام الاسلامى فى المضاربة ويحقق لرؤوس الأموال أن تعمل مثلا داخل البلد غالباً وأن تنتج وتربح أكثر ، فالعالم الاسلامى لايزال فى حاجة إلى ألوف المشاريع الانتاجية فى الزراعة والصناعة بما فى ذلك صناعة الأسلحة فاذا لم يستطع المال الإسلامى مواجهة مسئولياته داخل أوطانه وبالقدرات التى يوجهها إليه (الإسلام) فانه سيظل تابعاً للغرب فى الاقتصاد ويدور فى محوره ويمد بأمواله وأسواقه عجلة الاقتصاد الغربى الذى يدور بروس أمواله ويسوق منتوجاتها فى دياره ويحقق المزيد من السبق التكنولوجى على حسابه ، كما يوجد الآن فى العالم الإسلامى والغربى فرص استثمار حقيقية عائدها أضعاف عائد الفائدة الربوية التى تدفعها بنوك أمريكا .

ولا ريب أن هناك إحساس غامر بضرورة العودة إلى المنابع وتطبيق المنهج الاقتصادى والإسلامى ، وقد نشرت فى العقد الآخر من القرن الرابع عشر وهذه السنوات من العقد الأول من القرن الخامس عشر عشرات الأبحاث التى تكشف بوضوح عن الميزات الواضحة لمفهوم الاقتصادى الإسلامى ، وتدعو إلى الأصالة والتحرر من التبعية .

ومن عصارة هذه الأبحاث نجد ما يأتى :

أولا : المنهج الاقتصادى هو جزء من كل متناسق ومتماسك هو الشريعة الإسلامية التى جاءت بقواعد كلية عامة فيما يتعلق بالمسائل التى تتطور بتطور البيئة والمجتمع ، وقد جاءت الشريعة بضوابط تفصيلية فى المسائل التى لا تتطور بتطور الزمن كالمواريث والعبادات وأحكام الأسرة ، وكل ضوابط الشريعة تهدف إلى حماية الانسان مما يتجاوز الطاقة البشرية أو يرهقها .

والمنهج الاقتصادى الاسلامى ذاتية خاصة تتمثل فى :

أولا : الجمع بين الثبات والتطور ، وخاصية الالتزام بأصول معينة وفتح باب الاجتهاد فى التفاصيل وملاءمة التطبيق .

ثانيا : الجمع بين المصلحتين الخاصة والعامة .

ومناط الاقتصاد الإسلامى هو المصلحة ، وتختلف المصالح باختلاف الظروف وتقدم المصالح حسب أهميتها ، ويجرى التوفيق بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة فى حال التعارض ، وتقدم المصلحة العامة على مصلحة الفرد فى حالة عدم إمكان التوفيق .

ثالثاً : الجمع بين المصالح المادية والحاجات الروحية والاحساس الدائم برقابة الله تبارك وتعالى فى كل تصرف .

رابعا : ارتباط ما هو مادى وما هو روحى فى الإسلام .

خامساً : ازدواج الرقابة : الرقابة العلنية والوازع الدينى الداخلى .

سادسا : المصلحة المادية مقصودة ولكن ليس لذاتها .

سابعاً : الحرية الاقتصادية موجودة ولكنها مقيدة .

يقر الإسلام حرية الأفراد فى ممارسة نشاطهم الاقتصادى ولكنه لا يترك هذه الحرية مطلقة بل يقيدها بقيدين أساسيين :

١ - أن يكون النشاط الإسلامى مشروعاً حسب المفهوم الإسلامى ومن أجل هذا حرم الإسلام إنتاج الخمور أو التعامل بالربا أو الاحتكار ، أو كنز المال وحبسه عن التداول والإنتاج ، أو حتى صرفه فى غير مقتضى العقل وإلا عد المرء سفيها وجاز الحجز عليه .

٢ - أن يكون النشاط متفقاً مع المصلحة العامة وهذا هو السبب فى تحريم الإسلام بعض أوجه النشاط الاقتصادى المشروع متى كان يلحق ضرراً بالآخرين يفوق مايعود على أصحاب هذا النشاط من منفعة ، وهذا هو السبب فى القيود التى وضعها الاسلام على الملكية الخاصة لجعلها مجرد وظيفة اجتماعية ، فالحرية الاقتصادية موجودة ولكنها مقيدة فى حدود معينة ، وحق الملكية الخاصة مقيد بمبلغ اتخاذه سبيلا إلى الأضرار بالغير أو عدم تنمية المال بالوسائل المشروعة .

(ثامناً) المال مال الله وحده والانسان مستخلف فيه .

فى الاسلام المال مال الله وحده ، والانسان مستخلف فيه ، استخلفه الله للإنتفاع بهذا المال الذى يوجه فى سبيل الله ، أى فى سبيل مصلحة المجتمع ، والمال تطهره الصدقة والزكاة ولكن من أركان الاسلام وهو نظام للتعاون ، ويرمى الاسلام إلى تداول المال بين الناس دون تداوله بين طائفة خاصة ، وقد قيد الشرع حق التصرف بالانفاق بمنع السرف والتقتير ، ومع العمل على تنمية الثروة بمنع الغش والربا والقمار والاحتكار ، والمرأة أن تزاول التجارة

والصناعة وأن تتولى العقود والمعاملات وأن تملك كل أنواع الملك وأن تنمى أموالها .

(تاسعا) : إقرار التوازن فى الحقوق .

وضع الاسلام نظاماً حكيما يحول دون تضخم الثروات بين يدى أقلية ، ويكفل لكل فرد حياة إنسانية كريمة ويحفظ له مقوماته وحقوقه وتقضى هذه الأحكام بإقرار التوازن فى الحقوق بين الأفراد وذلك بمنع التعسف فى الاستعمال الحق الخاص ومنع الاحتكار فى التجارة ، ومبدأ الزكاة يهدف إلى استهلاك المال المختزن فى أربعين سنة ، وبذلك تنتقل الثروة كل أربعين سنة بين أيدى الناس إلى أيدى آخرين .

* * *

و قد توالت الأبحاث التى عرضتها المؤتمرات المتوالية الخاصة بالاقتصاد الاسلامى وأشارت إلى أمرين هامين :

أولا : أن تكون الزكاة هى المورد الأساسى للموازنة .

ثانيا : تحديد العلاقة بين البنوك الربوية والمصارف الإسلامية . وتحدثت عن ضرورة اتخاذ الخطوات اللازمة نحو صياغة السياستين المالية والنقدية وفقا لقواعد ومبادىء الشريعة الإسلامية وتطوير التشريعات الضريبية حتى تكون الزكاة هى المورد الأساسى للموازنة العامة والضرائب هى المورد التكميلى وحتى تقتصر وسائل الدفع فى المجتمع الإسلامى على أوراق النقد والعملات المساعدة التى تصدرها السلطة النقدية المختصة .

كما دعت إلى تحديد العلاقة بين البنك المركزى والمصارف الإسلامية بما يساعد هذه المصارف على النمو والانتشار ووضع خطة لانتشار المصارف الإسلامية وفروعها محليا وخارجيا والتعجيل بتقنين الشريعة الإسلامية خاصة مايتصل منها بالنشاط المادى والاقتصادى وضرورة تطوير الدراسة فى الجامعات والمعاهد بما يتفق على النهج الإسلامى والتمييز بين نظريتين اقتصاديتين كل

منهما على طرفى نقيض من الأخرى هما: النظرية الرأسمالية والنظرية الإشتراكية وإبراز النظرية الإسلامية الاقتصادية المتكاملة، ذلك أن الإسلام يملك القدرة على تقديم منهج اقتصادى متكامل يمكن الاعتماد عليه فى تحقيق التنمية فى الدول الإسلامية خاصة بعد فشل الأيدلوجيين .

ويرى الباحثون أنه متى تكونت لدى العالم الإسلامى (إرادة واضحة) للتخلص من التخلف ، فسنجد أولا أن اختياره ليس محدداً بالرأسمالية أو الاشتراكية وأنه بالتالى تستطيع التعويض للاستثمار المالى المقصود لديه بالاستثمار الاجتماعى على أساس مسلمتين أساسيتين :

أولا : لقمة العيش حق لكل (فم) .

ثانياً : العمل واجب لكل ساعد .

ولا بد من تغيير الإرادة بتغيير القيم والأرزاق والأخلاق .

[إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم] .

والحضارة لها جانبان : المادى والمعنوى ، ولا بد من وعى السنن الكونية وربط الأسباب بالمسببات ولا بد من أخلاقية الحركة والمجتمع والحضارة وتجاوز المناهج الوافدة (الماركسية والرأسمالية والاشتراكية) ،

والقيم الأخلاقية هى الأساس فى التحولات الاقتصادية والاجتماعية والعالم الإسلامى أجدر من يحقق للإنسانية التجربة التى تعيد إلى عالم الاقتصاد أخلاقيته ويتلافى الانحرافات الاباحية التى تورطت فيها الرأسمالية كما ينجو من الانحرافات المالية التى ورطته فيها الماركسية المادية والاقتصاد الاسلامى لاتتمشى مبادئه مع فكرة اليد الخفية أو جهاز الثمن لآدم سميث ، وكيف يمكن لنظام مبنى على الحرية الفردية المطلقة أن يتفادى الاستغلال والاحتكار كما أن الشيوعية بعضها عن الاسلام اختلاف عميق .

وفى تصور للنظرية الاقتصادية الاسلامية يقول عبد الغنى سعيد :

إن المجتمع الاسلامى الطبقى يقوم أساسا على العمل ولا يسمح بانفصال الملكية عن العمل لأن العمل واجب مقدس .

وهو يربط الجزاء بالعمل على أساس الفرص المتكافئة [ولكل درجات مما عملوا] ويقضى على النظام الطبقى باعتباره مخالفاً لمبادئه العامة ، كما يمنع التفرقة وكما اعتبر فرض الإسلام حداً أعلى الدخل أى الثروة الخاصة تحقيقاً لعدالة التوزيع ومنعا الاستغلال والتسلط الطبقى .

كما فرض الإسلام حداً من الدخل أى الثروة الخاصة تحقيقاً لعدالة التوزيع ومنعا للاستغلال ولما لم يعين الإسلام هذا الحد فقد تركه لتقرير الحاكم بما يتفق مع ظروف المجتمع والعصر الذى يعيش فيه وهذا التقدير تحكمه المبادئ وضوابط أربعة :

هذه الضوابط الأربعة يضعها الحاكم فى كل عصر وأى مجتمع وهى تعمل تلقائياً كصمام أمن ضد ظهور طبقة مستقلة مسيطرة :

أولا : أن لا تترك الأموال لدى قلة من الأفراد إلى الحد الذى تمدون منها إرادة للتسلط الاقتصادى والاجتماعى والبغى فى الأرض .

[كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم]

ثانيا : أن لا تترك الأموال تجمع لدى بعض الأفراد إلى الحد الذى يدفع بهم إلى الانغماس فى الترف ومظاهر التميز ، الأمر الذى سرعان مايؤدى إلى تحلل المجتمع وانتشار الفساد ولا يلبث أن يعمل على انهياره تماماً كما حدث لمجتمعات انغمست فى الترف وما فوق الكماليات .

[وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا] .

ثالثا : إذا تجمعت الأموال لدى بعض الأفراد — ولا توجد لديهم نزعات التسلط أو الانغماس فى الترف والتحلل فإن تجمع الأموال لمجرد الجمع أو (الاكتناز) أمر يتنافى مع مصلحة الجماعة لأنه يحبس الأموال عن دورة النشاط الاقتصادى شأنه شأن من يحبس ماء الرى عن أرض الغير ولذلك حرم الاسلام الاكتناز [والذين يكنزون الذهب والفضة الآية]

رابعاً : أن لا يكون تجمع الأموال لدى بعض الأفراد عن طريق

انتقاص حقوق الآخرين فلا يجوز بخس العمال أجورهم أو بعض المستهلكين بفرض أسعار احتكارية باهظة عليهم (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) ودعا إلى الإنفاق لمضاعفة حجم المعاملات وتحقيقاً للرواج .

[وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه] .

(٧)

هناك دعوة إلى حماية الثروة المالية المخبوءة فى البنوك الأجنبية ، وأن على الدول النفطية أن تستثمر أموالها فى الدول العربية والإسلامية التى هى فى أمس الحاجة إلى رأس المال ، ويمكن الاستثمار فى بعض الشركات الأجنبية ذات التقنية العالمية شريطة أن تنقل تلك التكنولوجيا إلى البلاد العربية والاسلامية .

وتقول الأبحاث أن الأموال العربية فى مصارف الدول الغربية واليابان تواجه الآن مخاطر أزمة مالية نقدية لم يسبق لها مثيل فى تاريخ البشرية ، فقد انخفضت القيمة الحقيقية الودائع العربية الاسلامية كما هبطت عوائدها ويمثل هذا الهبوط بداية لهبوط حقيقى قادر على إزالة القيمة الحقيقية للودائع العربية الاسلامية فى العالم الغربى واليابان إزالة تامة .

وتشير التقارير إلى أن رأس المال العربى الموجود فى الخارج بلغ [١٦٠ بليون دولار] وأن الأرصدة العربية الدول الأجنبية وصلت إلى ٣٠٠ بليون دولار .

وبينما تنفق البلاد العربية ٢٣ مليون دولار سنويا ثمنا لغذائها المستورد

وتشير أحد التقارير إلى أن بلدان العالم الاسلامى تحصل على قدر أقل لقاء ماتنتج بينما تدفـــع قدراً أكبر لقاء السلع الصناعية التى تستوردها وقد أصبحت هذه الأزمة فى العلاقات الاقتصادية الدولية من أخطر المشاكل العصرية ومن أبرز مصادر عدم الاستقرار التى تهدد الأمن والسلم العالميين فقد فقد بلغت ديون الدول النامية ٥٠٫٠ مليار دولار وارتفعت فوائدها إلى ١٠٦ مليارات دولار في العالم .

كما تضاعف العجز فى ميزان المدفوعات البلدان النامية حيث بلغ مائة مليار دولار وانخفضت القروض المتوسطة الأجل والقضية المقدمة بما يزيد على ١٠ مليارات دولار .

وبلغت أسعار الفائدة ارتفاعا لم يسبق له مثيل .

وانخفضت المساعدات بشروط ميسرة انخفاضا سريعا

وشهدت عوائد صادرات البلدان النامية هبوطاً وصل إلى ٤٠ مليار دولار فى العامين الماضيين .

ولأول مرة منذ الحرب العالمية الثانية انخفض الانتاج العالمى بنسبة ١/٢ فى المائة عام ١٩٨١ وكسدت التجارة ويزيد مستوى البطالة فى الدول المتقدمة الآن إلى ٣٠ مليون نسمة أى ١٠ ٪ من القوى العاملة فى المتوسط

هذا الاضطراب ليس له تفسير إلا فساد النظام البشرى فلماذا لا تعود البشرية إلى الله وإلى نظامه الحكيم ، وأولى الناس بالعودة إلى الله هم أهل الإسلام !

الباب الرابع

عودة التعليم إلى المنابع

(١)

ثلاث مواقع تحولت تحت تأثير التغريب : الشريعة الاسلامية والاقتصاد والتعليم وهى الآن فى الطريق عائدة إلى المنابع .

لقد اكتشف المسلمين اليوم أبعاد الخطر الذى أصاب مجتمعهم نتيجة تغرب التعليم وفرض المناهج الوافدة وحجب المنهج التربوى الاسلامى وأبعد ما فى ذلك خطورة الأخذ بتعاليم ونظريات الغرب وتدريسها النشء الاسلامى مع أنها تخالف عقيدته وتعاليم دينه .

أن العودة إلى المنابع تتطلب منا التماس منهج التربية الاسلامية مرة أخرى. يقول الدكتور اسحق الفرحان : على المسلمين إعادة النظر فى فلسفتها التربوية ومناهجها التعليمية، ذلك أن من خطر الرأى الذى يدعو إلى استيراد مناهج فكرية أو أنظمة تربوية من مجتمع إلى آخر يختلف عنه فى التصورات الفكرية والعقائد والايدلوجيات ، وقد تميزت الأمة الاسلامية من غيرها من الأمم بهذا الدين الحنيف وبهذا الاســـلام العظيم ويختلف التعليم بين الرجل والمرأة نتيجة الاختلاف الذى يميز المرأة عن الرجل من شأنها أن تعيد المرأة إلى وظيفتها الطبيعية .

من أبرز معالم التربية الاسلامية فى الصلة الوثيقة بين العقيدة الاسلامية والتربية الإسلاميه حيث تنمى كل منها النفوس ، التفكير فى ملكوت الله والعمل الصالح وتغيير السلوك نحو الأفضل . والتربية الاسلامية تتميز بأنها تربية ربانية من حيث الأهداف والطبيعة والمحتوى ترمى إلى تربية الفرد الصالح والمواطن الصالح والتربية الاسلامية توازن بين الفرد والجماعة ، وبين ما يفيد الفرد والمجتمع ، وبين ما هو فرض عين وفرض كفاية ، وتوازن بين المثاليات والواقعيات ، وبين أشواق الفرد الروحية وحاجاته المادية الاجتماعية ، بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة .

وتحرص التربية الاسلامية على تغيير سلوك الفرد نحو الأفضل عن طريق

العلم والمعرفة التى يكتسبها وعن طريق الممارسة العملية للاخلاق الاسلامية المرتبطة بخشية الله .

وتواجه التربية الاسلامية عدداً من التحديات فى مقدمتها الغزو الحضارى الذى تتعرض له الحضارة الاسلامية وتقليد الشباب الدارسين فى الغرب الحياة الغربية ، وأخطر من ذلك كله عملية ابتعاث الشاب المسلم إلى الغرب قبل أن تبنى فى عقله وضميره المفاهيم الفكرية والخلقية التى تحول دون رؤياته فى المجتمعات الغربية أو المفاهيم الغربية .

ان أول المحاذير فى مواجهة مفاهيم التعليم الغربية الوافدة هى القدرة على التعرف على الفوارق البعيدة بين مناهجها الأصلية وبين مايراد احتوائنا فى فى داخله من مفاهيم تختلف عن عقيدتنا وقيمنا .

يقول الأستاذ عبدالرحمن النقيب . أن أعداء الاســـلام يستخدمون كل وسائل العصر فى محاربة الاسلام وأهله وأن أعداء هذا الدين لن يرضوا أبدا أن يعود للإسلام دولة وللشعوب الاسلامية تقدمها وحضارتها وازدهارها . ومع ذلك فإن الكثير جدا من شبابنا المسلم ومن شعوبنا الاسلامية مازالوا يحسنون الظن بتلك الدول المعادية للإســـلام والمسلمين ، أن تاريخنا الماضى والحاضر يؤكد لنا أن تلك الدول المعادية للاسلام والمسلمين لا تريد بنا إلا المكر السيء ولا تضمر أو تعلن لنا إلا كل خيانة ومكر وخديعة ومع ذلك فما زلنا نلتمس العون من تلك الدول المعادية ونطلب منها النصرة فى أهم قضايانا القومية ولا يمكن أن تظن لحظة واحدة أن أعداء هذا الدين يريدون لنا علوا فى الأرض ولا تمكينا .

١ - محاذير فى وجه مفهوم التعليم الاسلامى :

أن هناك عددا من المخاطر والمحاذير لابد من الكشف عنها حتى يمكن التطلع إلى أفق جديد يمكننا من العودة إلى المنابع .

أولا : فصل التعليم عن الدين .

من أخطر ما أخذناه عن التعليم الغربى فصل الدين عن المسيرة العامة التعليم

تقليداً للنمط الغربي بينما يرجع انفصال التعليم اللاهوتي عن التعليم العام في الغرب إلى جذور تاريخية تتعلق بالصراع بين الكنيسة والعلماء وهو ما انتهى بتحرير العلوم الطبيعية والتجريبية والاجتماعية من سيطرة الكنيسة وانزواء علوم الدين في أركان الكنيسة . ولقد اعتقد بعض المسلمين - أو هكذا فرض عليهم - أن هذا الانفصال شرط من شروط قيام الحضارة ، وأن العلم بفروعه المتعددة ومجالاته الواسعة لا يمكن إلا أن يكون علمانيا .

ولم ير هؤلاء بأسا من استيراد النظم التعليمية الغربية ، ومع النظم جاءت المناهج والخطط التعليمية ، ومع عودة التبعيات جاء الفكر الغربي التربوي ليصب في أدمغة الطلاب دون تصفية أو انتقاء ومن موقع الانبهار بالغرب تخرجت أجيال كاملة على هذا الفكر بكل منطلقاته وفرضياته وكان طبيعيا في هذا الجو أن يتكرر الأنموذج الغربي في ازدواجية التعليم وفصل التعلم الديني عن العلوم الحديثة .

ولما كان التعليم هو مخ (الحضارة) فإن الخطوة الأولى الأساسية لعلاج ظاهرة ازدواجية التعلم تكمن في المزج الكامل بين الدين ومناهج التعلم الحديث بمعنى أن تأتي المناهج من واقع تصور إسلامي صحيح ينطلق من الاهتمام بتكوين عقلية إسلامية قائمة على الاستقلال الفكري وتستند على النظر والتفكير والتأمل وتنبذ التلقين وقبول الأخطاء دون نقاش .

وفي (أسلمة المناهج) لا بد أن نعي أموراً ثلاثاً :

(أولا) : إن العلوم الطبيعية والتبعية التي تخضع للتجربة لا تقوم على عقائد وعلينا أن نعتبر ما وصلت إليه الحضارة الغربية التقنية الآن امتدادا طبيعيا لما حققته الحضارة الإسلامية التي كانت بدورها امتداداً لحضارات قديمة ليس بينها وبين المناخ الفكري الإسلامي أي تعارض أو تناقض .

(ثانيا) استثمار الجهد في العلوم الاجتماعية الحديثة ونظرياتها وأسسها تفكيكاً وبحثا وتنقيباً ومراجعة وتقويما كي تركز تلك العلوم على مفاهيم وقيم الإسلام .

(ثالثاً) : توجيه العلوم الدينية والدراسات الإسلامية إلى البحث فيما ينفع المجتمع المسلم المعاد والكف عن الدوران فى حلقات حول موضوعات أشبعت بحثاً وتنقيباً ولا تمت بصلة إلى واقع الأمة ومشكلاتها ـ أن تحقيق هذه الأمور بحاجة إلى علماء ملتزمين لا تنقصهم الرؤية الشاملة ولا يفتقرون إلى الحس الحضارى الذى يجعلهم يدركون أن نجاحهم سيضع أمتهم على طريق الحضارة النيرة وسيوقد فى نفوس النشء وهج العقيدة وفى عقولهم مصابيح الهدى ليستوعبوا علوم العصر ويساهموا فى تطويرها لخير الإنسانية وسعادتها .

ثانيا : خطورة الأخذ بنظريات الغرب .

إن السمات الأساسية لدستور الإسلام : الإيمان بالله ورسوله والإيمان بالرأى الأساسى القائل بأن السعى الإسلامى كله هو سبيل الله وعلى التعليم الإسلامى أن يثبت مرونة فى تفكير الشباب المسلم مع القدرة على المواءمة فيما يتعلق بالأمور الدنيوية . ولقد كان العرب أول من بينوا هذه المرونة وتلك القدرة على التكيف فى أثناء الفترة التى بلغت فيها النهضة الفكرية الإسلامية أوج عظمتها ، فا كتسبوا المعارف الإغريقية وأخضعوها للبحث والتجربة والتوسيع فى مجالات شتى مثل الجبر والهندسة والفلك والملاحة والكيمياء والطب وأدخلوا التطور على المبادىء العلمية وفقاً للمنهج التجريبى فأصبح ينظر إلى المعتقدات العلمية من زاوية (تجريبية) بدلا من النظر إليها على أنها مسلمات لا تقبل الجدل ، وقد نقل العرب هذه النظرة العلمية التجريبية الجديدة إلى الغرب ، وهناك انطلقت هذه النظرة فى دول أوربا بأن القرنين الخامس عشر والسادس عشر وأدت إلى ظهور حركة النهضة فى أوربا .

إنه لمن الواجب أن يأخذ نظام الحكم الإسلامى الآن بهذه التجريبية العلمية فى الشئون الدنيوية ، هذه النظرية التى اخترعها المسلمون أنفسهم ولكنهم غفلوا عنها طوال القرن الخمسة الأخيرة ومن ثم يجب أن يحتوى النظام الجديد على قيم القـــدرة على التكيف والتجـــربة والتسامح (وليس التعصب)

[ا . و . خسروا]

ثالثا : التفرقة بين العلم التجريبى والعلوم الفلسفية

ان من أكبر أخطاء التعليم والثقافة فى البلاد الإسلامية فى عصرنا هذا هو قبولها مناهج الدراسات الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والسياسية والتربوية التى قدمها لهم الغرب على أنها مناهج عالمية أو إنسانية ، وكانت الخدعة الكبرى لهم خلال سنوات طويلة أن ظنوا أن هذه التجارب والمحاولات التى قدمها مجموعة من المفكرين والفلاسفة أمثال فرويد وماركس ودوركايم وجون ديوى على أنها علوم (حقيقية) غير قابلة للنظر مع أنها فى واقع الأمر وفى تقدير الفكر الغربى نفسه أنها (فروض) علميه تقبل الخطأ والصواب ، وقد ثبت بالتجربة أن كثيرا من هـــذه النظريات قد عجزت فضلا عن تقديم المعونة الصحيحة وتعارضت مع الفطرة وقامت على تقديرات علمية لم تلبث أن تغيرت، ومن ثم فانها لم تلبث بعد قليل أن اعتورها الانحراف واحتاجت إلى التعديل بالإضافة والحذف فالخطأ الذى وقع فيه المسلمون حين نقلوا هذه العلوم ودرسوها فى فى جامعاتهم هو أنهم اعتبروها من الحقائق العلمية التى لا تقبل الخطأ ، وحاول دعاة التغريب تأكيد قدسيتها فى نفوس شبابنا مع أنها لم تكن مقدسة فى بلادها، فى نفس الوقت الذى حجب عن المسلمين أمرين هامين وخطيرين : (الأول) : أن للمسلمين وجهة نظر أصيلة مستمدة من القرآن دستورهم الخالد فى مختلف قضايا العلم والعلوم الاجتماعية وأنهم هم الذين أقاموا أساس هذه العلوم قبل أن يعرفها الغرب بعدة قرون فهم لذلك أهل لأن ينظروا فى هذه العلوم ويقدموا وجهة نظر فكرهم الإسلامى ، هذا فضلا عن أنهم حجبوا عن حقيقه أساسيه وهامه هى : أن أى منهج نشأ فى حينه فهو من نبتها الخاص فقد قام على أساس ظروفها وأوضاعها وتحدياتها ولذلك فإن نقله واقتباسه فى بيئة أخرى قلما يحقق نتائج إيجابية أو يحدث نفعا حقيقيا ، وأنه لابد لكل أمة نظرياتها الخاصة التى هى نتيجة ثقافتها وعقيدتها وتجاربها الخاصه ، والتحديات والظروف التى تواجه وجودها ومن ثم فإن نقل هذه النظريات إلى مجتمعنا لا يمكن أن يقدم نتائج حقيقية ، كذلك فقد فات هؤلاء الذين خدعوا المسلمين بتقديم مناهج وإيدلوجيات ونظريات غريبه فى مجال التربيه والاجتماع والاقتصاد والسياسه ، أن الأمة الاسلاميه تشكلت منذ خمسه عشر قرنا على نحو خاص مختلف اختلاف العقيدة

والآداب والأخلاق التى قامت عليها بيئة المجتمع الإسلامى الأساسية من حيث أن الإسلام نظام جامع شامل ، يجمع بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة بينما يقوم النظام الغربى على مفهوم التفسير المادى للتاريخ وعلى الشطارية واضحة عميقة تفصل بين الروحانيات والماديات بل وتنكر كل مايتصل بالروح والمعنويات ولا تقبل إلا المحسوسات ، ومن هنا فإن هناك خلافاً عميقاً فى هذا المجال بين الفكر الإسلامى والفكر الغربى هو أن العلوم الإنسانية المتصلة بمشاعر الإنسان وعواطفه وأحاسيسه وعقيدته وإيمانه ، لايمكن أن تخضع فى دراستها أو تحليلها إلى المناهج العلمية التجريبية التى تطبق على المادة ، وأن للعلوم الإنسانيه مقاييسها الخاصة التى تقوم على أساس التفاوت والاختلاف بين إنسان وإنسان ، وهناك تفرقة أخرى هامة : هى التفرقة بين العلوم التجريبية التى تجرى فى المعامل والأنابيق وبين فلسفة العلم الذى يقوم على مفهوم علمى مادى .

رابعا : اختلاف مفهوم العلم الغربى عن العلم الإسلامى

إن أبسط مراجعة لمفهوم العلم بين الفكر الغربى والفكر الإسلامى يكشف عن اختلاف عميق

١ — لا يربط العلم الغربى نفسه بالله تبارك وتعالى بل يربط نفسه بمقدور الإنسان نفسه ويدعى أن الإنسان هو الذى كشف أسرار العلم .

٢ — وجهة العلم الغربى الحاضرة مخالفة لوجهة الإسلام ، فهو علم قاصر فى العطاء على الرجل الأبيض وليس الإنسانية كلها وهو يفرق بين المتقدمين والمتأخرين ، ولايعطى سره للبلاد المتخلفة ، وتقصيره على الغربيين والمسيحيين وحدهم وعلى غير المسلمين [بمعنى أنه أعطى لليابان ولم يعطى العرب] .

٣ - وجهة العلم الغربى معارضة لوجهة الإسلام ، لأنه يعمل على إذلال بعض الشعوب وفرض نفوذه وسلطانه ويقصر المعطيات المادية على الغربيين ولا يحقق لأصحاب الثروات التى يغتصبها الغرب إلى حظ فى تصريف إنتاجهم وثرائها بأبخس الأثمان بينما يبيعهم منتجاته بأعلى الأسعار ويفرض على العالم

كله جوا رهيباً بامتلاك القنابل الذرية وتهديد البشرية ومفهوم الإسلام مختلف عن ذلك .

٤ — فرض العلم الغربي على الحضارة والمجتمعات الغربية (ومنها إلى المجتمعات الإسلامية) مفهوماً مادياً خالصا بمعنى محاكمة الإنسان إلى مفاهيم الحيوان والحشرات ، والنظر إلى الإنسان الذى كرمه الله تبارك وتعالى من خلال مفهوم المعدة والجنس ، وفى ضوء الرأسمالية والماركسية جميعا وأقام تحليلاته كلها على أساس التفسير المادى للتاريخ .

٥ — لم يقدم الغربيون فى الجامعات التى أنشأوها فى العالم الإسلامى والإرساليات العلم التجريبى ولكنهم قدموا الفلسفات المضللة التى تقضى على الإيمان وعلى مفهوم الإسلام والدين جملة ، كما فرضوا مفهوم العلم التجريبى على العلوم الإنسانية .

٦ — إسراف العلم الغربى فى استنزاف الثروات البشرية فى صناعات أغلبها يتعلق بالترف والمتعة والتحلل الاجتماعى والخمور والمراقص ، بينما يجب أن تصان الثروة البشرية حتى تكون فى صالح المجتمعات الإنسانية جميعاً وإلى آماد بعيدة .

٧ — بروز ظاهرة (لا أخلاقية) العلم فى الحضارة وغلبة روح الاستعلاء والصراع وإنكار وتجاهل نسبة معطيات العلم إلى الله تبارك وتعالى .

٨ — نظرية التطور (دارون) ونظرية التحليل النفسى (فرويد) ليست من العلم ومفاهيمها باطلة بتقدير العلماء الغربيين أنفسهم .

ومن أجل هـذا لابد أن يضع المسلمون توصيفاً للعلم مستمد من أصول الإسلام ولابد أن يحصل المسلمون على العلم الغربى بوصفه (مادة خاما) ثم يشكلوه من جديد فى دائرة فكرهم وقيمهم ومفاهيمهم وفى دائرة لغتهم أولا ، وهى مفاهيم التوحيد والرحمة والعدل والإخاء البشرى .

وقد كشفت الدراسات عن انهيارات شديدة في مسلمات أطلق عليها

ضد الأصل

اسم العلم تضليلا وهى من الفروض الفلسفية الخادعة ، فانهار مبدأ الحتمية والجبرية وانهار مبدأ ثبات القوانين الطبيعة أمام قدرة الله تبارك وتعالى على خرق هذه القوانين متى شاء .

ومن وجوه الاختلاف العميقة بين مفهوم العلم في الإسلام والعلم في الغرب جمع الإسلام بين الثوابت والمتغيرات ، بينما لا يجمع بينهما الفكر الغربي المادى الذى تحول من ثبات أرسطو الدائم إلى حركة ديجل الدائمة .

كذلك فإن الإسلام يجمع بين الالهى والبشرى ، والدينى والدنيوى ، لقد ألغى الإسلام التضاد بين عالم الحقيقة وعالم الواقع وأقام التكامل بين العلم والدين .

ولقد فسدت فكرة التوفيق بين العلم والدين في الغرب المسيحى لأن المسيحية ليست إلا ديناً لاهوتيا أما الإسلام فإنه دين جامع .

كذلك فليس هناك أى تناقض فى موقف المسلمين من العلم والحضارة الغربيين وبين استعمال أدوات الحضارة ، فليس مطلوبا ممن يرفض الفكرة الغربية أن يتنازل عن استعمال الأدوات وليس مطلوبا ممن يستعمل الأدوات أن يقبل مفهوماً غربياً لا تقره عقيدته ، وهم يلحون على هذه الفكرة وهى فكرة باطلة ، إن الربط بين أدوات الحضارة وبين الفكر الغربى المادى ، أمر لم يسبق أن قبلته حضارة ، سواء الحضارة الإسلامية أم الحضارة الغربية ، فليس صحيحاً أن يطلب من المسلمين أن يأخذوا الحضارة بفكرها بينما أخذ الغرب حضارة الإسلام دون فكرها ، كذلك فلن يقبل المسلمون ذلك المفهوم الغربى للعلاقة بين الدين والعلم ، ولا بد أن يقدم المسلمون للحضارة الإسلامية مفهوماً جديداً مختلفاً يعجز الغربيون والعلمانيون (أمثال فؤاد زكريا ولويس عوض) عن فهمه لأنه غارق فى نظرة ناقصة مقتضبة .

فهم ينظرون إلى الإسلام على أنه دين لاهوتى كالمسيحية ، ويعجزون عن التفرقة بين الإسلام ومفهوم الأديان فى الغرب ، وما يتبعه من تفسير العلوم والحضارة وغيرها وذلك تحت تأثير نظرتهم الماركسية أو المادية وفى الإسلام :

العلم جزء منه وليس منفصلا عنه والإسلام هو الذى أعطى العلم مداه فى إنشاء المنهج التجريبى ، والعلم الإسلامى لابد أن يخضع لمفهوم التوحيد الخالص والعدل والرحمة والإخاء الإنسانى .

خامسا : اختلاف المفاهيم التربوية المسيحيه والإسلاميه .

تقوم مفاهيم التربية والتعاليم الغربية التى نقلها المسلمون إلى معاهدهم وجامعاتهم على نظرية مسيحية أساسية ثم تغيرت إلى مفهوم علمانى مادى وبقيت قاعدتها المسيحية قائمة ، وأساس نظرية التربية المسيحية الغربية يتلخص فى مفهوم [بولس] الذى وضع نواة اللاهوت المسيحى وخلاصته أن [الخطيئة] أصيلة فى الإنسان ، وأن كل إنسان مذنب ساعة ولادته ، فقد ورث الإنسان خطيئة آدم الكبرى ، وأن زلة آدم لم تقتصر عليه وحده وإنما تمدته إلى سائر البشر كافة ، ومن ثم فالإنسان يستحق عذاب الله الأبدى ، وعليه فمن الضرورى أن يكفر عن خطيئته الموروثة عن آدم ، وحيث أنه ليس قادراً أيضاً عن التكفير عن خطيئته ولرحمة ربه به فقد أرسل الله [ابنه المسيح] جل الله تبارك وتعالى وعلا عن أن يكون له ولد ـ لتخليص الإنسان وليغسل خطيئته وذلك بموته على الصليب فداء له . هذا المفهوم الذى يرى أن الخطيئة خطيئة جسد ، فالجسد مصدر الشهوات والنزوات وأن الروح الإنسانية فى صراع مع الجسد ، وعندما تفلت الروح من الجسد يقرب الإنسان من الرب ومن هنا جاء معنى احتقار الجسد والرهبانية ، وقد وجدت المسيحية فى الفلسفات القديمة وفى أعمال أرسطو نظاما يتفق مع أفكارها ويساعدها على تثبت عقائدها وقد تأثر الفكر المسيحى بفكرة أرسطو فى الشكل والمادة ومن هنا صار المنهج التربوى المسيحى قائما على قمع أهواء النفس والجسد وتوجيه الفكر والعاطفة نحو حياة التأمل والاستغراق وإنكار الذات وخدمة الآخرين ونما ذلك حتى أصبح تحريضاً للفرد على الهروب من وجه الناس إلى التبتل وحياة الفقر المطلق والطاعة العمياء للسلطان وتدريب الفرد على الاحتمال والصبر والمحبة حتى للأعداء ، وكانت الفلسفة التربوية تعنى بأن التربية الصالحة هى التى تعين الفرد على التخلص من

خطيئته الأولى والتسامى بروحه وإخضاع شهوات جسده وإبعاد نفسه عن مغريات الدنيا الفاسدة وإعداد نفسه للحياة الأخرى

ولما كان هذا المفهوم ليس مطابقا للفطرة فقد كانت له آثاره الخطيرة على المجتمعات التى اعتنقته وجاء الإسلام ليصححه ويكشف زيفه حيث يرى أن الإنسان له حق التمتع بما أحل الله فى حدود وضوابط ميسرة ، وأنه يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً ويعمل لآخرته كأنه يموت غداً ، وأنه لا صراع بين الروح والجسد ، ولا انفصال بين الوجود المادى والوجود الروحى ، وأن هذا الانفصال الذى بدأ فى مفاهيم المسيحية الغربية هو الذى أقام [الانشطارية] فى الحضارة الغربية والمجتمعات وأودى بها إلى الفساد ، وقد كان من نتيجة ذلك أن تحول الفكر الغربى من النقيض إلى النقيض ، من الرهبانية إلى الإباحية ، وبقى مفهوم الخطيئه مسيطراً على الفكر المادى وعلى الوجوديه بالرغم من أنها جاءت لتقضى على الفكرة الرهبانية ومن هنا نجد أن الإسلام بمفهومه التربوى يختلف مع هذه الخطة .

٢ - وهو كذلك يختلف مع أساليب التربية الهندية واليهودية وكل هذا الخليط المضطرب الذى جاءت به أساليب التربية الحديثة .

فالتربية الهندية تقوم على أساس استقلال الطبقات التى لا يجوز الارتقاء من أحدها إلى الآخر وغاية الكمال فى عقيدتها إفناء الروح الفردية فى روح العالم الكلية عن طريق (النرفانا) لتمحو شخصية الفرد وتذيبها فى روح الروح [حسب اعتقادهم] فلم يكن للفرد شخصية مستقلة والحياة الدنيا فى نظرهم مليئة بالسرور والآلام . والسعادة هى العزوف عن الحياة ونبذها ، أما التربية اليهودية فطابعها الشوفينية والاستعلاء بالجنس الخاص والانسحاب من المجتمعات إلى احياء خاصة تأكيداً لعزلتهم على مدى القرون وسيطرتهم على اقتصاديات الأمم ، كذلك فهناك التربية التى تقوم على إعلاء الجنس : التربية الرومانية القائمة على الاستعلاء والغطرسة [روما سادة وما حولها عبيد] ومنها التربية النازية والفاشية ،

وكانت التربية المسيحية تقول : لاتهتموا لحياتكم بما تأكلون ولا الجسد بما تكتسبون ، أعطوا مالقيصر لقيصر ، إن مملكتي ليست في هذا العالم ، أحبوا أعداءكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، باركوا لاعنيكم ، من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر ، ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك ، إن دخول جمل في ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني في ملكوت الله .

ثم جاء عصر مفاهيم الفلسفة المادية فغيرت أساليب التربية الغربية ، جاء ديوى ينسف الطريقة القديمة ويبنى نظرية التربية على أساس أن التربية هي مسايرة الحياة ، وليست الأعداد للحياة المستقبلة ، وقد خرجت أساليب ديوى على الدين والأخلاق وفتحت باب الحرية المطلقة أمام الأجيال جريا وراء الشهوات والأهواء والمطامع ، وقال ديوى إن الدين ليس موجها تربويا ، يقصد دين الغرب [بوثنية ورهبانية] وإنه أفلس في أن يقوم بالتوازن الروحي وأصبح عائقاً عن التقدم وحلت أساليب المادية والعقلانية والحس ، والنظر إلى الكون على أنه مخلوق لنفسه .

وهكذا كما قال الكسى كاريل : إن تفوق المادة ومبادىء دين الصناعة حطمت الثقافة والجمال والأخلاق .

وجئنا نحن فأخذنا ديوى ونشرناه في العالم الإسلامي وفي البلاد العربية وفي مصر وأقمنا على فكره المادى الوثني الزائف مناهج كليات التربية ، فأخرجنا أجيالا ضالة مضلة .

وحجبنا عن شبابنا مفهوم الإسلام الذى هو وحده القادر على حل المعادلة الصعبة في الغرب ، الجمع والالتقاء والتوازن بين المادة والروح ، بين الفرد والمجتمع ، بين العلم والدين حيث تتميز العقيدة الإسلامية بأنها ثابتة ومتطورة في نفس الوقت ، هناك إطار ثابت دائم يجرى في داخله التطور ، فالإنسان كإنسان من حيث هو دوافع وغرائز وانفعالات ، جسد وروح ، ورغبة ورهبة ، لاتتغير على مدى الزمان وإنما الذى يتغير هو حاجاته ومطالبه ورغباته ، الدوافع الفطرية ثابتة : [حب الحياة] الدافع الأكبر للإنسان

والذى لا يمكن أن يأتى عصر يبتغى من الحياة إطلاقا والإسلام يعلمنا حفظ الذات [الطعام] وحفظ النوع الجنسى ونزعة الملكية وكلها ليست قابلة للإزالة ولكنها قابلة للتكيف ، للتغير ، والدين هو الذى يفعل ذلك تتغير طرق الحياة وتظل أهداف الحياة ثابتة .

ومن القضايا التى لجرها الفكر الغربى : هل تخضع الأخلاق لتطور أدوات الإنتاج - أن الفكر الغربى بمفهومه البشرى المادى الاندهارى الذى لا يؤمن بالأخلاق ولا بالله ولا بالمسئولية الفردية ولا بالجزاء الأخروى يقول نعم والإسلام يقول لا - إن تطور أساليب الإنتاج تحدث تغيرات فى صورة الحياة البشرية ولكن الأخلاق ليست عرضة للتطور لسبب مادى ، فالفضيلة والرذيلة هما بمفهومهما على مدى العصور ، والعلم لا يصلح النفوس بل يزيدها فساداً لأنه يلهب غرورها ولكن الذى يصلحها هو الأخلاق .

لقد بلغت البشرية رشدها على يد الإسلام [اليوم أكملت لكم دينكم] .

ومظاهر الرشد هى :

١ — مخاطبة العقل ، وليس على الإقناع بالمعجزات الحسية .

٢ — توجيه الإنسان إلى إقامة التوازن بين العقل والحس وبين الروح والمادة .

٣ — عملية إقامة التوازن دائمة كل يوم فى الإنسان وفى المجتمعات .

٤ — الإنسان طين وروح فى كيان موحد وليست هى [ثنائية] .

كما يقول دوركايم ولكنها [تكامل] : دوافع الجسد وأشواق الروح .

ومعنى هذا أن الإنسان فيه جانب حيوانى وجانب ملائكى ويتميز المفهوم الإسلامى بالثوابت التى تتحرك فى داخلها المتغيرات وخاصية الثبات يتمثل فى وجود تطور ثابت للمقومات والقيم وهناك حقائق ثابتة : الإسلام ، القرآن ، التوحيد ، الموت ، البعث .

ثبات حكم الله : التحاكم إلى منهج الله وحده حكما غير خاضع للهوى البشري المتقلب .

ميزة الإسلام : التوازن إلى جانب الثبات ، وتجرى الحركة الواسعة داخل الإطار ، فالإسلام يوازن بين متطلبات الروح والجسد ، بين الحياة الدنيا والآخرة ، والإنسان قوة إيجابية ، مستخلف ، مكلف ، له إرادة ومسئولية .

ومن هنا ولهذا الخلاف الواسع فى المفاهيم والقيم بين الفكر الإسلامى والفكر الغربى فإننا لا نقبل مناهج الغرب ولا نطبقها ويجوز أن ندرسها للمقارنة بينها وبين مناهج الإسلام .

يقول الأستاذ المورودى : إن التأمل فى مظاهر التعليم الوافدة توضح أنه ينافى مزاج الإسلام وطبيعته كل المنافاة، ولا يصح أبدا تبنى علوم الغرب كما هى بدون إصلاح أو تعديل لأنه ينطبع أثرها فى أذهان أبنائنا الصافية الساذجة انطباعاً يعودون به مؤمنون بكل شىء غربى ولا تنشأ فيهم ملكة النقد ويجب أن نعرض المناهج الغربية من زاوية النظر الإسلامى الخالص.

(بتصرف عن دراسة للاستاذ محمد قطب)

ثانيا : واقع التعليم المغرب فى العالم الإسلامى

يواجه واقع التعليم المغرب فى العالم الإسلامى تحديات خطيرة فى مقدمتها :

أولا : الجامعات ومنهج التعليم الغربى .

نشأت أغلب الجامعات فى البلاد العربية الإسلامية على أسس علمانية وذلك بحكم تسلط القوى الاستعمارية فى العالم الاسلامى وقت تكوينها فتطبعت بطابع الحضارة الغربية وتولت شئونها قيادات تخرجت من الجامعات الغربية ، لذلك لم يكن للإسلام دور هام فى صياغة مناهج التعليم ولا فى وضع أهداف التعليم الجامعى بل إن اسم « الإسلام » قد لا يرد فى لوائح هذه الجامعات فضلا عن أن يكون محوراً للأهداف أو أساسا للمناهج .

٢ - استهدف التعليم العلمانى إنشاء أجيال المسلمين فى أحضان هذه الجامعات منسلخة عن الإسلام جاهلة به تسخر من الإسلام وتعاديه دون أن تعرف عنه وعن رجالاته الكثير ولا القليل ، فهى متعلقة برجال فى التاريخ الأدبى من أرسطو وأفلاطون إلى رسل وسارتر ، معظمة لقادة الفتوح السياسية الغربيين من أمثال هانيبال إلى بونابرت إلى جورج وشنطون أن أمثالها فى الحياة أشخاص لم ينطقوا بلغتنا ولم يعيشوا فوق أرضنا ومع ذلك فهى تعرف الكثير عنهم بقدر ما تجهل عن نفسها وماضيها وتراثها ورجال تاريخها ، تلك هى الثمرة المسمومة للمناهج التى سعت إلى وضع الحواجز السميكة بيننا وبين ماضينا وذلك خوفاً من عودتنا إلى الإسلام الذى إذا درسنا ماضينا درسناه وإذا الدرس ماضينا الدرس معه ، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره .

٣ - كان الإسلام فى أذهان قادة التعليم العلمانى عائقاً دون التقدم الحضارى الذى وصل إليه الغرب فكما أن الغرب لم يبلغ هدفه إلا بعد صراع عنيف من النصرانية تمكن فى نهايته من حصرها ، داخل جدران الكنيسة وإبعادها عن التعليم والمجتمع والحكم فإن الشرق الإسلامى لن يتمكن من النهضة إلا بحصر

الإسلام داخل جدران المسجد إذ لم يتم الإجهاز عليه نهائيا وبذلك ينفتح الطريق أمام التقدم والتحضر .

٤ ـ هذا الماضى الذى يريدون عزل الأجيال عنه يتمثل فترة الازدهار الحضارى علماً وعمراناً وقوة جعلت المسلمين فى الصدارة بين العالمين والارتباط بمثل هذا الماضى الزاهر خير حافز للتقدم والنهضة فى عصرنا الحاضر بينما كان الانقطاع عن ماضى العصور الوسطى فى أوربا تمثل انقطاعا عن التخلف والهمجية والظلام وتناسوا أن الأصل فى النصرانية تنظيم العلاقة بين العبد والرب ، وأن ندع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، فحصرها بين جدران الكنيسة عودة بها إلى طبيعتها ونظامها ، بينما الأصل فى الإسلام شمول العبادات والمعاملات والسياسة الشرعية فى الداخل والخارج ، فحصره بين جدران المسجد قضاء عليه واخلال بأركانه وأحكامه وخروج به عن طبيعته فى تنظيم شئون الحياة ، وتناسوا الفرق بين الإسلام والنصرانية المحرفة حيث أن الإسلام لا يعوق التقدم العلمى بل يدعمه ، ويجعل العلوم والصناعات من فروض الكفاية ، بينما كانت النصرانية المحرفة تقف أمام جهود العلماء ، وتمنعهم من إعلان الحقائق العلمية وتضطهدهم وتمزق كتبهم وتحرمهم من بركاته

٤ ـ إن حركات المقاومة للاستعمار انطلقت فى مطلع هذا القرن من داخل المساجد وتحت شعار الله أكبر وإن أعظم القوى المعنوية المؤثرة فى جماهيرنا والدافعة إلى البذل والتضحية تتمثل فى الإسلام .

وإن حرمان الأمة من الإسلام يفقدها قوة روحية ضخمة كانت دائماً سندها فى المحن التاريخية منذ مواجهة القوى الصليبية حتى مواجهة القوى الاستعمارية الجديدة .

٥ ـ إن المجتمعات الإسلامية المعاصرة ترتكز فى أعرافها وتقاليدها وقيمها وأخلاقياتها وأنماطها السلوكية على الإسلام الذى يهيمن على ذلك كله بمستويات متباينة تبعاً لقوة التصاق الجماهير به وتأثرها بتعاليمه وإن تماسك هذه المجتمعات

القائم على الإسلام سوف ينهار عن ما ينحسر الإسلام عن التربية والتعليم بعد إنحساره عن الحكم والسياسة وشئون المال .

وسوف يترك غياب الإسلام فراغاً هائلا فى الحياة الخلقية الروحية ، ولن تتمكن قيم التربية الغربية الطارئة من سد هذا الفراغ حتى لو كانت تمتلك المقومات للتقدم إلا بعد زمن طويل .

هذه المعلومات الغربية عندما تختبر على ضوء واقع المجتمعات الغربية المعاصرة نجدها أنها عجزت عن إقامة المجتمعات المستقرة السعيدة فى الوسط الذى تمت فيه وتأثرت فى بناء مفاهيمها وأهدافها ووسائلها بمراحه وسلوكياته واخلاقياته وتطوره فالأخرى أن تعجز عن السيطرة على مجتمعات مختلفة عنها ، كما تتعارض مع أعماق النفس المسلمة وتختلف ، ولقد كان فشل القيم التربوية الغربية فى بناء المجتمعات الغربية نفسها خير دليل على انهيار المدنية الغربية رغم إمكانياتها التكنولوجيا والمادية الضخمة .

وقد صرح مدير مصلحة الإحصاء الأمريكية (١٠ سبتمبر سنة ١٩٨٢) أنه لأول مرة منذ بداية هذا القران تصبح مدينة سان فرانسسكو من العزاب ، ووفقاً لآخر تعداد فإن ٥٣ ٪ من سكان سان فرانسسكو غير متزوجين ، هذه الارقام تدل على أفول الأنموذج التقليدى العائلى ، وأن هذه التغييرات الاجتماعية ملائمة لتحقيق الرفاهية فى المدينة التى زاد عدد سكانها من الشباب بين ٢٥ و ٣٤ بمقدار ٤٠ ٪ خلال العشر سنوات ، وقال إن التعداد لم يشمل عدد المصابين بالشذوذ الجنسى الذين يقطنون المدينة والذين يشكلون ١٥ ٪ من السكان تقريباً ، هذا مثل على فشل القيم التربوية الغربية .

٦ - إن أمن العالم الإسلامى الجماعى الفردى يرتبط بالإسلام ، وإن طمس الإسلام وإبعاده من شأنه أن يهدد الأمن الجماعى والفردى بما لا طاقة لأحد بوقفه أو دفعه ولا شك كان لغياب الوعى الإسلامى الصحيح وضعف القيادات العلمية الإسلامية عن بيان حقيقة الإسلام ، كان له أثره فى إحداث الفراغ الذى

ملاه العلمانيون مستغلين والتعليم ، أعظم استغلال ، لأن التعليم أعظم عمل يقوم به المجتمع الذى يرغب فى التخلص من الأديان .

قال محمد إقبال : إياك أن تكون آمناً من العلم الذى تدرسه فإنه يستطيع أن يقتل أمة بأسرها ، وقال الشاعر أكبر الإله أبادى : بآلبلادة فرعون الذى لم يصل تفكيره إلى تأسيس الكليات وقد كان ذلك أسهل طريقة لقتل الأولاد ولو فعل ذلك لم يلحقه العار و سوء الأحدوثة فى التاريخ ، وهكذا كان اندفاع التعليم العلمانى فى غياب الوعى الإسلامى الجماعى .

إن مستويات التعليم الإسلامية المعاصرة ليست بمستوى العصر ، إن هناك ضرورة لوضع خطة علمية من قبل قادة المسلمين ومفكريهم للنهوض بمؤسسات التعليم الإسلامية لمراكبة العصر على صعيد الوسائل التعليمية ، إن قيادة الصناعة والعلوم بين الغربيين تحكمها فلسفات مادية لا تمت إلى الدين بأى صلة .

إن من أكبر التحديات أنه ليس هناك بديل إسلامى لعلوم الاجتماع والاقتصاد والنفس وغيرها ، علوم تتعلق بالتصور العام للحياة والكون والإنسان والعلاقات الاجتماعية ، ومن ثم درس طلابنا منذ نشأة هذه الجامعات الفكر الغربى ونقلت إليهم نظريات العلماء الغربيين فى هذه الحقول الخطيرة على أنها مسلمات علمية وأنها العلم ولا علم سواها ، درس أبناؤنا أفكار سان سيمون واوجست كونت ودوركايم وليفى بريل ، وديفيد هيوم وآدم سميث وهوبز وهربرت سبنسر وفرويد وماركس وانجلز ، ومندل وبافلوف ثم ديوى وبرتراند رسل وسارتر ولاسكى والآخرين من فلاسفة ومفكرى الغرب فى القرنين الأخيرين ، وكلهم ينطلق من أساس لادينى فى تفسير نشأة الخليقة والإنسان والمجتمع والتاريخ ، وقد لا يمر اسم الإسلام فى سائر المحاضرات .

٧ — وإننا لنتساءل : ماهو حصاد الفكر المادى :

هل هو الإيمان بالله وعبادته وتوحيده والاقتناع بشريعته وتعمير الدنيا بالخير وغرس الايثار والتعاون والحب فى مجتمعنا وقد قيل : [إنك لا تجنى من الشوك العنب] .

ومن هنا كانت الثمرة : أجيال الضياع والتيه التي عانت الآلام وعاصرت الشقاء والنكد وهي حصاد الفكر المادي الذي زرعناه في جامعاتنا برعاية وتمهد وتشجيع .

وإسناد أصحاب هذا الفكر الذين أبوا أن يشقوا لوحدهم في أتون جحيم المادة ، وأصروا أن يصدروه إلى عالم الإسلام لتعميم البلوى :

[ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما] .

لقد تمكن الغربيون من إقناع معظم قياداتنا الفكرية بأن فلسفة الحياة الغربية وعلومها الاجتماعية هي البديل الحضاري عن الإسلام الرجعي ! الذي هو سبب تخلف العالم الإسلامي ومصدر بلائه بما يشيعه من خرافات وتوكل وقناعة وحجر على العقول ومنعة من التفكير الحر الذي يؤدي إلى التقدم الاجتماعي والنهضة الحضارية .

٨ - إن الدراسات الأدبية والنظريات النقدية التي تدرس في جامعاتنا تترجم عن أدباء ومفكري الغرب وليست ثمرة تطور طبيعي للأدب العربي الذي نال ازدهاراً عظيما في العصور الذهبية للاسلام ثم أصابه ما أصاب الحضارة الإسلامية من ركود وجمود

وهكذا وقف الأدباء في العالم الإسلامي أمام ثقافة أصيلة قديمة منبتة عن الواقع المعاصر الذي فيه جوع شديد وفراغ واسع تقدم ركام الأدب الغربي لسده ، فهو أدب حظي بمعاناة عميقة ، وأكسبه التطور التقني والفكري عمقاً في الشكل الفني والمضامين التي ألفتها مدارس علوم الاجتماع والنفس والفلسفة بمعانيها وأبعادها ، رغم الانحراف الذي يصبغها والذي يتمثل في الضياع والعدم والتمزق ، وهكذا درس طلابنا الكثير من المدارس الأدبية الغربية : من اللامعقول والوجودية والرمزية والسريالية والعدمية وغيرها ، وأعجبوا بها ونسجوا على منوال أقطابها ، وكان الجهل بالإسلام والإعجاب بالغرب قد أديا إلى هيمنة الحضارة الغربية ومقاييسها الخلقية والسلوكية والجمالية على واقع

الحياة الفكرية فى العالم الإسلامى فى القرن الأخير وكل من سار مع التيار الجارف من أدبائنا ومفكرينا صعدت به وسائل الإعلام المختلفة إلى مستوى القمة من المجد والشهرة فذاعت كتاباتهم وانتشرت مؤلفاتهم وحصلوا على تكريم المجتمع ماديا وأدبيا مما مهد لانتشار أفكارهم وحيازتهم لجمهور القراء فى عالمنا .

فهل استطاعت الجامعات فى العالم الإسلامى أن تؤكد أصالة هذه الأمة وتوثيق ارتباطها بماضيها الإسلامى المجيد ، وتحيي شخصيتها على هدى الكتاب الكريم والسنة المهداه ، إن مهمة الجامعات الإسلامية أن تحمل رسالة الإسلام بكل محتواها وشمولها وعدم فصل الهدف التربوى عن الهدف التعليمى .

فإذا فعلت كان ذلك طريقاً إلى العودة إلى المنابع .

إن قاعدة الإسلام الأساسية فى التربية : إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق

إن الأساتذة فى الجامعات الإسلامية هم دعاة أولا وليسوا مجرد معلمين .

إن وحدة الهدف والرغبة الصادقة فى خدمة الإسلام هى الدافع لزيادة جهود الأساتذة فى توجيه الطلبة علمياً وتربوياً والثقافة ليست المعلومات بل هى تفاعل بين الإنسان والعقيدة والفكر يظهر أثره فى السلوك .

ثانياً : الدور الذى تقوم به الجامعات والإرساليات التبشيرية .

يقول أحد أساطين السياسة الغربية : إن هدف الجامعة الأمريكية فى القاهرة ليس العلم فقط ولكن لها أغراض سياسية أخرى ، ويؤكد الباحثون أن الدول الكبرى استطاعت إدخال الدول العربية والإسلامية فى أوضاع لا تستطيع أن تراجع عنها أو أخذ الأنفاس وما يزال النفوذ الغربى هو صاحب التأثير الأكبر فى أوضاع مصر والبلاد العربية السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وقد استخدمت الدول الغربية [وفى مقدمتها الولايات المتحدة] وسائل مختلفة ومتعددة فى سبيل تحقيق أهدافها ، منها المساعدات العسكرية ، والمناورات المشتركة ، والتأثيرات الثقافية والحضارية ، وهنا يأتى دور الجامعة الأمريكية كأداة ثقافية سياسية هامة .

يقول مايلز كوبلانه فى كتابه (لعبه الأمم) : إن الجامعة الأمريكية فى فى بيروت ومثيلاتها فى استانبول والقاهرة كانت تمارس ولا تزال التأثير المباشر والرئيسى فى المنطقة فيما يختص بالمصالح الأمريكية وتعتمد الجامعة الأمريكية على إمكانيات مالية ، كبيرة ، حيث تقدم الحكومة الأمريكية الدعم لتطويع العملية التعليمية والتربوية خدمة لأهدافها السياسية ، كما كانت المدارس الانجليزية والفرنسية قبل تمصيرها ، وقد استطاعت الجامعة الأمريكية الاستحواذ على شريحة كبيرة من أبناء الطبقة العليا والمتوسطة [شرط الدرجات العالية والقدرة المالية] وهؤلاء مرشحون عند التخرج لاحتلال مواقع رئيسية فى الجهاز التنفيذى أو فى النشاط الاقتصادى ، سواء للتحيز المتزايد لخريجى الجامعة أو بحكم روابط هؤلاء الخريجين الاجتماعيين وهى ركيزة ملائمة ومعدة بعناية لدعم التبعية .

ولما كان التعلم فى المدرسة والجامعة يساهم بعد الأسرة فى تأكيد قيمة الولاء الوطنى فإنه يتضح من قراءة الخطوط العريضة للمناهج وخاصة علم الاجتماع أنها تتبع علم الاجتماع الأمريكى ، أن مادة هامة بعنوان المجتمع الغربى تعتمد على كتاب فى التراث [وهى مجموعة مقالات لمؤلفين] ومن شأن هذا أن ينتسب الخريجون إلى ثقافة مغايرة لثقافة المجتمع القومية ، إن لم تكن متناقضة معها ، ومن شأن هذه الأوضاع أن تقيم نوعا من أضعاف الولاء الوطنى والقومى وقد تبين من أبحاث عديدة أجريت إن الجامعة الأمريكية تخلق شبابا لا يكترث بقضايا وطنه ، فهو شباب يتحدث الانجليزية ويحب الرقص والغناء والموسيقى على الطريقة الغربية ، وهو يعيش فى وطنه فى حالة من الهجرة السيكلوجية على حد تعبير الأستاذ على فهمى ، فضلا عما يراه البعض من أن الجامعة تمثل مركزاً من مراكز التبشير السياسى والترويج لنموذج الغربى الرأسمالى حيث توجد الازدواجية فى النسق التعليمى المصرى بين وطنى وأجنبى ، وقد أدى هذا إلى أن يرى هؤلاء الشباب أن الوجود الأوربى فى مصر [والاحتلال والنفوذ الاجنبى] كان تعاوناً وتنويرا ولم يكن استعماراً ، وأن معنا كل المجتمع

المصرى كما يراها هؤلاء الطلاب هى قلة أماكن اللهو وضوضاء أماكن العبادة وعدم وجود أماكن لانتظار السيارات وسوء فهم المجتمع للاختلاط بين الجنسين .

وتمثل الجامعة الأمريكية نموذجاً كاملا لرسالة التعليم الأجنبى فى مصر وهو خلق أجيال من المصريين واهنين فى ثقافتهم القومية ، وفى انتمائهم الوطنى وفى إحساسهم الدافئ بقضايا مصر وهمومها ، والجامعة الأمريكية تقوم بهذا الدور بمصروفاتها التى تتراوح بين ألف إلى أربعة آلاف دولار للطالب المصرى ، وبإغراءاتها المادية للأساتذة المصريين التى تصل إلى ستة آلاف دولار فى الشهر أى ما يعادل ٣٣ ضعفاً لمرتب الأستاذ المصرى فى الجامعة المصرية وهذا هو مدعاة التساؤل ، فى أن تترك المؤسسات الأجنبية التعليمية تمارس ولاءات أمريكية وفرنسية وانجليزية فى بلادنا ، تحت اسم فتح الجسور بين الجامعات الغربية ومصر ما يسمونه خداعاً : همزة وصل حضارية

ولعل أخطر ما يتصل بأعمال الجامعات الأجنبية ، إنشاء مراكز البحوث الاجتماعية ، وتقوم الجامعة الأمريكية بدور كبير فى هذا المجال ، ومعظم أعمال هذه المراكز لا تنشر فى مصر وخاصة الأبحاث الهامة التى قامت بها عن التربة والمد العالى والآثار الاجتماعية للميكنة الزراعية فى الريف المصرى ، وأثرها فى العلاقات الاجتماعية فى عدد من قرى سوهاج وأسيوط ومن المعروف أن الجهات الأجنبية الممولة للبحث تؤثر فى توجيهه وجهة سياسية معينة ويرى الباحثون أن الهدف الحقيقى لهذا العمل يتلخص فى التعرف على الأسس الاجتماعية فى الريف المصرى والعمل على إحداث تغييرات جذرية بما يتفق مع النظام القيمى الأمريكى ،

وهناك علامات استفهام مريبة حول البحوث المشتركة بين الأمريكيين والاسرائيلين وقد ألقى بعض الباحثين الاسرائيليين محاضرات فى الجامعة الأمريكية عن الصراع العربى الاسرائيلى ، والاقتصاد المصرى والجماعات الدينية فى مصر ، وقد كان من أثر ذلك أن يقول الدكتور جمال زهران أستاذ العلوم السياسية بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية أن الواقع يؤكد أن الجامعة الأمريكية تعتبر أحدث وسائل التغلغل الثقافى فى المجتمع المصرى ويقول دكتور حامد ربيع : أن

الأساتذة المصريون الذين يرتضون النموذج الأمريكى ويدرسون بهذه الجامعة يذكرونى بالمغنية داليدا التى كلما تحدثت قالت أنها ولدت وعاشت شبابها فى شبرا فهل هى قادرة اليوم أن تعيش فى شبرا مرة أخرى ، وهل من يدخل الجامعة الأمريكية فى القاهرة يشعر بأنه فى القاهرة وأن من بها يعيشون فى القاهرة .

ويتحدث الباحثون عن أن أخطر النتائج للدراسة فى هذه الجامعات الأجنبية هو (ازدواج الجنسية) وأن هذا من شأنه إصابة الولاء للجنسية الأولى بالاضطراب ، وأن عددا كبيرا من المبعوثين المصريين إلى الولايات المتحدة الذين دفع المصريون الفقراء ثمن تعليمهم ، وكان يتوقع منهم أن يعودوا ليشاركوا فى عمليات التنمية فى بلادهم تقاعسوا وضاعوا فى عملية الاندماج فى العالم الأمريكى ، وحصلوا على الجنسية الأمريكية وقطعوا أواصرهم بالمجتمع المصرى ونسوا مصر .

ومن أخطر ما تقوم به هذه المعاهد الأجنبية تهديد الوحدة الوطنية ، وإن هذا التنامى لدورها يتلازم مع التفريط المتزايد فى مفهوم الاستقلال الوطنى وقد وجد أن الجامعة الأمريكية تتناول تاريخ مصر بطريقة غير علمية وبشكل يهدد الوحدة الوطنية فقد قام أحد الباحثين بعمل دراسة عن سلامه موسى) فسر فيها التاريخ المصرى الحديث على أنه يقوم على صراع بين المسلمين والمسيحين وقامت الجامعة بنشره رغم الاعتراض عليه .

ويشير الدكتور على هلال إلى أن التأثير السلبى للمعاهد الأجنبية وفى مقدمتها الجامعة الأمريكية يرجع إلى عدة أمور منها أن الجامعة بحكم طبيعتها والخلفية الاجتماعية لطلبتها ليست صورة حقيقية وممثلة للمجتمع المصرى ، والكتب والمقررات التى تطالع بها الطالب لم تكتب للمصريين أو العرب ومن هنا فإنها تحمل الأثر الثقافى والانحياز الفكرى لكاتبها ، ومن هنا يكون الأثر الخطير فى تشكيل العقلية والتوجه إلى الأمور ، وتكون الهوة عند الطالب الذى لا يعرف هل ينظر إلى قضايا المجتمع نظرة قومية تخدم تراثنا وتاريخنا ، أم ينظر إليها من الخارج نظرة التهوين فى هذا التراث والتاريخ .

ونصل من هذا الرأى إلى أن أخطر ما فى الجامعة الأمريكية التى تضم نخبة

من أبناء الطبقات الثرية أنها (بؤرة صديدية) تبعث بسمومها فى جسم المجتمع كله ، فى نظامه التعليمى والتربوى ، فى ثقافته وتقاليده ، فى توجهاته السياسية والاقتصادية ، لقد كان النظم التعليمية الأجنبية فى بلاد العالم الثالث دائماً دور بارز فى انهيار التماسك الاجتماعى فى كثير من الأحيان وفى التحكم عن بعد فى هذه البلدان ومن ثم فإنها بمثابة قفاز يخفى اليد الضاربة الاستعمارية .

إن الكارثة هى فى النمط الثقافى والحضارى الذى ترشحه وتنميه هذه المؤسسات فهل ننقل عن الغرب وتصبح مجرد ذات تابعة حضارياً بالرغم من استقلالنا السياسى وعلمنا الخفاق ، النتيجه هى خروج جيل من الشباب يدعو إلى أخذ كل شىء عن هذا المقدم وينبذ كل شىء يأتى من الواقع المتخلف ، وبالتالى تتحقق التبعية ، تبعية لا تحتاج إلى إبرام معاهدة ولا قواعد ولا أساطيل ولا حتى مناورات مشتركة فهذا الشباب خريج المعاهد الأجنبية سوف تصل إن آجلا أو عاجلا إلى العديد من مواقع القيادة الثقافية ـ الفكرية الاعلامية بكل مفاهيمه التى تجرى فى شرايينه ومن ثم تأتى التبعية السياسية لتغلف كل هذا ، هذه ليست دعوة لنبذ الفكر العالمى ، ولا الحضارة الغربية ولا نوعا من تصميم الذات القومية ، ولكن هناك فرق بين الوعى فى التأثير والنضج فى الأخذ ، وبين التأثير المنبهر والأخذ من مواقع التسليم بالعجز .

* * *

إن أخطر ما هنالك إجراء بحوث دون رقابة مصرية دون أن تخضع لاشراف مصرى كامل سواء فى اختيار موضوعاتها أو فى إجرائها ونشرها وطبعها وتمويلها فى أخطر ما يتعلق بحياة هذه الأمة ووجودها وكيانها وتاريخها:

ـ دراسة عن الثورة العرابية .

ـ دراسة عن التغيرات التى طرأت فى أسلوب ومفهوم التعليم العالى .

ـ دراسة عن أثر تغيير سلوك الأفراد والحياة .

ـ دراسة عن المرأة العاملة المصرية .

- دراسة عن الموالد الشعبية المصرية .
- دراسة عن العادات والتقاليد العائلة المصرية وكيفية توارثها .
- دراسة عن الأغانى المصرية .
- دراسة عن الأساطير الشعبية .
- دراسة عن اللغة النوبية المنطوقة وكيف اختفت من مصر .
- دراسة عن الفكر السياسى للعمال المصريين .
- دراسة عن سياسة مصر بعد اتفاقيات كامب ديفيد .
- دراسة عن لهجات وألفاظ المجرمين فى مصر .

ثالثا : الابتعاث إلى الخارج

من أخطر التحديات التى تواجه التعليم الاسلامى قضية الابتعاث إلى الخارج، وإرسال الآلاف من شباب المسلمين إلى الدول الغربية أو الدول الشيوعية للدراسة هناك ، فإن هذه الدعوة محاطة بقدر كبير من المحاذير والتحديات لا يفلت منها إلا القليل ممن يتلقون الفكر الأجنبي الذى يحمل العداء للاسلام حيث يعودون سفراء لتلك الدول التى درسوا فيها يدعون لفكرها ومنهجها فى الحياة مناوئين دين أمتهم وأخلاقها .

يقول الأستاذ محمد الصباغ فى بحثه المستفيض عن الابتعاث ومخاطره : لما كان الإسلام عقبة فى طريقهم لاستيلائه على مشاعر الناس وتصوراتهم فقد واجهوا هذا الواقع بالمكر المدبر والتخطيط لإزالته ويجب ألا ننسى ما قاله (جلادستون) إبان احتلال انجلترا لمصر : (مادام هذا القرآن فى أيدى المسلمين فلن يقر الاستعمار قرار فى ديار الاسلام) فقد فكروا ودرسوا كيف يمكنهم أن يزحزحوا الاسلام فى مكانته فى صدور المسلمين وكيف يمكن اقتلاع جذوره من صدور المسلمين فقادهم تفكيرهم إلى وسائل عديدة منها (١) التبشير (٢) نشر التحلل والفساد (٣) التشكيك والالحاد (٤) بعث القوميات العنصرية (٥) افساد

مناهج التعليم ووسائل الاعلام (٦) الابتعاث فالابتعاث هو أفتك الأسلحة لإزالة الاسلام من القلب .

الدافع لهذه البعثات (١) الرغبة فى أن يكون تجانس وتطابق فى التفكير بين المستعمرين وأبناء المسلمين وينشأ من ذلك ضعف سلطان الدين وزحزحته عن هؤلاء المبتعثين ، وتأكيد العبودية للأجنبي وقد عاد هؤلاء المبتعثين وقد تشبعوا بروح الأجنبي لتسلم القيادة والتوجيه يسلخوا الأمة عن دينها وقيمها كما حدث من طه حسين وما كتبه فى (مستقبل الثقافة فى مصر) وكثير من هؤلاء سار على نهج طه حسين وما زالوا وآثارهم تدل عليهم ، ومن أخطر الآثار أن يعود المبعوث ليحقق أغراض أعداء أمته ثم إن هنـــاك الانحراف المصرى والانهيار الخلقى اللذان يصابان بهما كثير من أبنائنا الطلاب لأن عامل الافساد والاغراء والتشكك التى يتعرضون لها تتغلب على عوامل المقاومة التى تكون لدى بعضهم .

رابعا : تغريب الأزهر والمعاهد الدينية

فى القرويين والزيتونة

عمد النفوذ الأجنبي إلى تغريب المعاهد الدينية فى مصر وتونس والمغرب لأنها كانت مصادر المقاومة التى واجهته والتى حملت لواء معارضته وكشف الزيف الذى قامت بها قوى التغريب والغزو الثقافى وكان فى مقدمة المحاولات تقليص نفوذ هذه المعاهد كما حدث فى القرويين والزيتونة والتهاون فى حفظ القرآن الكريم ، وكتب الدراسات العلمية التى تمكن الباحث المسلم من مواجهة شبهات المستشرقين وكشف زيف دراساتهم ، وقد تمكنت القوى المسيطرة من السيطرة على هذه المعاهد والتحكم فى مواردها بحيث يكونوا أولياء خاضعين لنفوذ السلطات الحاكمة .

وكانت أول ضربة للأزهر عام ١٩٥٦ حينما ألغت الدولة القضاء الشرعى ،

وكان العدوان الثانى على الأزهر عام ١٩٠٦ متمثلا فى اغتصاب الأموال الموقوفة على الأزهر وكلياته والمساجد التى يقوم منها خريجوه بالدعوة إلى الله .

وجاءت الضربة الثالثة للأزهر فى تقليص مناهجه التعليمية عام ١٩٦١ وخلط الشريعة بالقانون الوضعى ، والتهاون فى الكفاية القرآنية (حفظاً وفهماً وتفسيراً) بحيث يمكن أن يتخرج علماء غير قادرين على استيعاب الفتوى .

وهكذا انتقل المعاهد الدينية من خطر « الجمود » إلى خطر أشد خطراً وهو التهاون وانتقاص الفهم الإسلامى للعالم والفقيه ، وبعد أن كانت التهمة هى قراءة كتب المقلدين والجاحدين ، أصبحت فى قراءة ملخصات غير مستوعبة لا يمكن أن تخرج عالماً ذا أصالة واقتدار فى مواجهة تحديات التكذيب وشبهات الغزو الفكرى ، بل إن الأزهر فى جامعية أخذ مناهج الجامعات العلمانية فى مذاهب الأدب والتاريخ والعلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق ، دون أن يقدر أنه مسئول عن أن يقدم وجهة النظر الإسلامية فى هذه العلوم جميعا وهو يواصل الارتباط بمعاهد غربية موالية للتبشير .

وغلب على بعض العلماء مطامع الحياة والمناصب والموارد فتجاوزوا مسئوليتهم الإسلامية وأماناتهم الفكرية وانخرطوا فى سبيل الولاء والفتوى لذوى السلطان ومحاولة البحث فى ذيول الكتب عن نصوص يستعينون بها على انفاذ قوانين فاسدة كقانون الأخر آل الشخصية وغيره .

وإن كان هذا لم يمنع من ظهور أعلام ثقات يقدرون أماناتهم ومسئوليتهم حملوا لواء الدعوة إلى تطبيق الشريعة وتحرير المجتمع الإسلامى من آثار الانحراف والفساد وبعدوا عن نفوذ ذوى النفوذ .

وكانت لهم مواقف واضحة إزاء تيارات التغريب والغزو الثقافى سواء كانت فى مواجهة المذاهب المادية أو الإلحادية ، أو الإباحية ، والوثنية .

والمعروف أن سياسة دنلوب فى عهد الاستعمار ثم سياسة النفوذ الاستبدادى المتسلط كانت ترمى إلى إنهاء دور الأزهر حصن اللغة والشريعة أو تفريغه من مضامينه فعملوا أن إنشاء تعليم مواز للأزهر فى الجامعة الأمريكية

من ناحية والجامعة المصرية من ناحية أخرى يحمل الطابع الغربى التغريبى الذى تشرف عليه وزارة المعارف ويبعد الطلاب والجيل الجديد عموما عن ثقافتنا وعن البيئة الاسلامية إلى أن يصير مفهوم التقدم والحضارة تقليداً الغرب .

ولقد كان الهدف من توهين المعاهد الدينية إفساح الطريق أمام الثقافات الأجنبية وهذا ماحدث بالفعل بالنسبة الزيتونة والقرويين ويقول أحد الباحثين عن التحديات التى تواجه (الزيتونة) : إن كلية الآداب الفرنسية تطغى على أهم عناصر العقلية الفرنسية وهى تسعى إلى إماتة الكلية الزيتونية (الشريعة) وتعتبرها مجرد قسم تابع للآداب وذلك بمحاولة احداث شعبة الحضارة الإسلامية فى كلية الآداب لتغنى عن كلية الشريعه وكذلك بإعاقة الكلية الزيتونية عن النمو كأن تحدث قسما اللغة العربية أو قسما للتربية ولاشك أن هذا الاختصار يجمد عمل الكلية الزيتونة ويضعف من دورها فى الأوساط الاجتماعية ومن ذلك صغر ميزانيتها التى لا تساوى ميزانية مرفق من مرافق كلية الآداب ومن هنا فهى تعجز أن تقاوم النفوذ الفكرى .

الصراع على عقل العالم الإسلامى

ويجرى الصراع اليوم على احتواء عقل الشباب المسلم بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى عن طريق سلاح التعليم حيث يوجد عدد كبير من الطلاب المسلمين فى الاتحاد السوفيتى على مدى السنوات الخمس الماضية ، كما يوجد فى الولايات المتحدة ٢٦ فى المائة من مجموع طلاب الجامعات فى الولايات المتحدة من دول العالم الإسلامى ويصل عددهم إلى ٣٥٠ ألف طالب من إيران ونيجيريا والعالم العربى .

خامسا : إعداد المدرس الملتزم

عنى أعداء الإسلام باختيار المدرسين غير المسلمين وغير الاسلاميين أيما عناية سواء باختيارهم ممن تشبعت أفكارهم بأفكار أعداء الاسلام أو العناية بتدريبهم وتوجيههم مع تسهيل مهماتهم ووضعهم فى موضع الصدارة وإطلاق أيديهم فى العمل والتوجيه وذلك فى المدارس التبشيرية أو العلمانية أو حتى فى المدارس

الوطنية الواقعة تحت تأثيرهم ليصبحوا مراكز جذب يتجمع حولها الطلاب وتقتدى بخطاها وعلى النقيض تماماً يكون نعاملهم مع المدرسين الإسلاميين أو مدرسى المواد الدينية أو المواد التى تخدمها أو تعمدون اختيارهم من ذوى الشخصيات الضعيفة البعيدة عن التأثير ويقللون من أهمية موادهم أن يجعلونها آخر الدوام .

وفى بعض البلاد الإسلامية يعطونهم أجوراً أقل من غيرهم أوأنهم يتعمدون أن يسلموا نصف المواد إلى مدرسين غير إسلاميين ممن يحاربون الإسلام حتى يبطلوا مفعولها فى نفوس الطلاب وبالمقابل إذ ماوجد المدرس المعلم المخلص القوى فإنهم يحاولون أن يضيعوا فى طريقه شتى العقبات أو المضايقات حتى لو أدى بهم الأمر إلى التشهير به وإطلاق الإشاعات المغرضة حوله وقد يصل الأمر إلى تصفية جسدية إذا مالمسوا فيه خطراً على تحقيق أهدافهم .

وهنا يتطلب تركيز الجهود لانتقاء المعلم المسلم فى كل مواصفاته مع العمل على تدريبه وإعداده لهذه المهمة الخطيرة مع الحذر الشديد والمراقبة العديدة لبعض المعلمين الذين يشك فى عقيدتهم أو سلوكهم أو أهدافهم والعمل على إبعادهم .

وقد أدرك أعداء الإسلام خطورة البيئة التعليمية وموافقتها السياسة الفعلية لما لها من تأثير غير مباشر على الطلاب وعلى عقولهم الباطنة فركزوا على اللافتات والشعارات والصور والأقوال المنثورة على الجدران او الحكم أو الأناشيد والموسيقى الصباحية فدسوا فيها ماأرادوا أن يبثون فى نفوس وعقول الطلاب من أبنائنا كما وجدوا فى مدارسهم التبشيرية أحسن الأدوات الأنيقة فى كافة مرافقها وملابسها ومخابرها وأثاثها حتى يجتذبوا إليها أبناء الطبقة الراقية المؤثرة وقد أصر بعضهم على جعلها مدارس داخلية حتى لا تبقى الطلاب تحت تأثير أحد سواهم ، أما فى المؤسسات التى وقعت تحت أيديهم فقد ركزوا على كل ما يشجع على اللهو أو الاختلاط بين الجنسين أو نوعية الإلبسة ونظام الحضور والبعثات وعلى كل مايحقق أغراضهم .

ولا شك أن أخطر سلاح تفتقت عنه عقول أعداء المسلمين للكيد بهم كان

سلاح الغزو الفكرى الذى ركزوا عليه عقب فشل حروبهم الصليبية المادية .

وبما أن الغزو الفكرى عبارة عن عملية أمر معنوى تتناول عقول ونفوس وقلوب وأرواح من تمارس ضدهم فقد تنوعت وسائله وأساليبه تحقيقاً لهذه المهمة ، وكان أخطرها فى مجال الإعلام والرياضة والفن ، والتعليم المنهجى والتثقيف العام يعتبران من أخطر المجالات التى يستشرى فيها الغزو الفكرى ، دون رقيب أو حسيب .

وقد كان التعليم والتثقيف أمضى وسيلة فى هذا الغزو غير المسلح ، لكونه أقوى وسيلة يتميز منها الفكر والنفس والوجدان ، وبالتالى المفاهيم والعقائد ومن ثم السلوك وأهداف الحياة وطريقتها ، وكون العالم بأسره قد اتجه نحو الأخذ بالتعليم فأصبح التعليم إجباريا ومجانيا فى معظم دول العالم ، كل ذلك مما ساعد على بناء قاعدة شعبية واسعة جداً تكاد تغطى معظم أفراد الأمة بعد تشكيلها بالطريقة التى خطط لها أعداء المسلمين والقائمة على إفراغ ما فى عقولهم من مبادىء وقيم ومفاهيم أصيلة ثم ملئها بزيوف من علوم ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبله العذاب ، وذلك وفق قاعدتهم الخبيثة الماكرة [إذا أرهبك سلاح عدوك فافسد فكره ينتحر به] .

ويكمن الخطر فى شتى أنواع التعليم تشرف عليه الدولة أو المؤسسات التعليمية التبشيرية ، التى يقوم عليها متعصبوا مبشرى الصليبية الحاقدة غيرهم فى ذلك جيش من المستشرقين الذين اتخذوا من العلوم والكتب والموسوعات والندوات والدوريات ميداناً فسيحا لزرعها بما يشاءون من أفكار ومبادىء ونظريات تقرر على ذرارى المسلمين فى عقر دارهم ، كذلك يكمن الخطر فى التثقيف العام فى شتى صوره وأشكاله .

ومن المفروض أن تكون السياسة التعليمية مستوحاة من عقائد واضعيها أو مصالحهم القومية أو الشخصية ، ومن الضرورى أن تكون السياسة التعليمية هى المسيطرة على كافة أركان التعليم الأخرى وإلا كانت حبراً على ورق ، لذلك نرى أهداف التعليم التى أشرف عليها أعداء الإسلام فى بلاد المسلمين

قد وضعت خصيصا لتخدم أغراضهم فتربى أجيالا تؤمن بهم وبعقائدهم وتخدم مصالحهم وتدين لهم بالولاء والطاعة وبالتالى تصبح عدوة لأمتها ولذاتها ، وقد استوى فى هذا التخطيط الماكر جميع شياطين الغزو الفكرى من مبشرين صليبيين مبغضين إلى مستعمرين ومستشرقين وملاحدة ماديين وملاحدة وشيوعيين ويهود ماكرين وغيرهم :

اما المسلمون المؤمنون بالله إيماناً كاملا فالمفروض فيهم إذا ما تحملوا مسئولية وضع السياسة التعليمية أن يجعلوا أول أهدافهم تربية الأجيال الإسلامية ، التى تؤمن بالله وباليوم الآخر وتدين دين الحق وتتخلق بأخلاق الاسلام وتقيم شريعة الله المستمدة من مصادر الإسلام الصافية والبعيدة عن كل نزعة غير إسلامية : كالقومية أو الاشتراكية أو العلمانية الأوربية أو التحررية أو الرأسمالية أو الديمقراطية أو الدكتاتورية إلى غير ذلك من إيدلوجيات ومذهب فكرية هدامة وشعارات مغايرة للاسلام ، ومن الجدير بالذكر أن شتى دول العالم سواء فى معسكرها الشيوعى أو الرأسمالى ، وحتى الدول ذات الديانة البوذية أو البرهمية وغيرها من دول الشرق كاليابان والهند وكذلك اليهود فى فلسطين المحتلة لو تصفحنا أهداف سياستهم التعليمية لوجدناها كلها وضعت لخدمة أغراضهم ولتنشئة أجيال تؤمن بما أرادوه لها فى بلادهم بل يتعين لذلك بحيث لا تسمح إلا بالتربية والتعليم المنبثق من سياسة تعليمية وفلسفة تربوية خاصة بها مع رفض كل وجهة نظر مغايرة لأهدافهم فى التعليم .

وقد لعب أعداء الاستعمار دوراً خطيراً فى وضع السياسة التعليمية فى البلاد الآسيوية كما لعبوا دورهم من قبل فى وضع السياسة الثقافية ، فعمدوا إلى أن تكون الخطة الدراسية خالية أو شبه خالية من المواد الدينية والأخلاقية ، وإن اضطروا لوضعها لفترة مرحلية ولذر الرماد فى العيون فإنهم يقللون من عدد ساعاتها ويجعلونها مادة مشوهة محرفة ، وكذلك الأمر بالنسبة إلى اللغة العربية حيث يخفض عدد ساعاتها ليضعف الاهتمام بها بينما تزاد عدد ساعات اللغات الأجنبية بدعوى أنها لغة الحضارة والرقى والتقدم ، كما تمتد الأيدى لإنقاص ساعات المواد الدينية واللغة العربية فإنها تمتد لتزيد بطريقة التناسب

المـكمى من عدد ساعات المواد الملحدة والداعية إلى التخلى عن الإسلام ومبادئه والداعية إلى اعتناق مبادىء النصرانية أو الشيوعية أو الإلحاد أو الشعارات المعادية للإسلام من قومية إلى اشتراكية إلى علمانية إلى فوضوية وغير ذلك من زيوف المبادىء . وبهذه الطريقة حقق أعداء الإسلام على مفترق طرق التعليم خطة السير فيه حسب أهدافهم دون أن يفطن المسلمون إلى ما يخطط لهم تخدعهم فى ذلك المبررات والترتيبات التربوية والثقافية والاجتماعيـة التى يوحى لهم بها المخططون من وراء ستار .

وهذا يعطى المسلمين عبرة وعظة تجعلهم يرفضون أية أهداف تربوية خاصة أو عامة إن كانت مستوردة دخيلة بعيدة عن منهج الإسلام : عقيدة وشريعة وإلا خرجت أجيالا مزدوجة الشخصيات متناقضة السلوك مشتتة فى أفكارها وطاقاتها وفى إنتاجها

وقد أشار إلى هذا زويمر فى تصريحه بقوله « إنكم أعددتم شباباً لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه فى المسيحية ، وبالتالى جاء النشء الإسلامى طبقاً لما أراده له الاستعمار لا يهتم بالعظائم ويحب الراحة والكسل ولا يعرف همة فى دنياه إلا فى الشهوات فإذا تعلم فللشهوات وإن تبوأ أسمى المراكز فللشهوات يجود بكل شىء » .

كما تمت عملية تخطيط السياسة التعليمية بشكل خفى على أيدى المستعمرين ، ممن كانوا وراء المسئولين عن التربية من أهل البلاد أنفسهم بحيث أسست المدارس الوطنية بظاهر إسلامى وباطن يجعل خريجيها يدينون بالولاء والطاعة للمستعمر بالإضافة إلى المدارس العلمانية التى أوجدها المستعمر ليحقق أغراضه بالكامل ، وبعد جلاء المستعمر عن البلاد قام أبناء المسلمين ممن تربوا على أيدى الاستعمار وتأثروا بالتعليم المعادى للإسلام داخل البلاد وخارجها وممن تسلموا مراكز قيادة التعليم والتوجيه وقاموا بوضع مخططات التعليم ورسم سياسة وفق توجيهات أعداء الإسلام غير المباشرة

(عايده الجراح)

سادسا : الدارونيه فى التعليم الإسلامى

كان من أخطر التناقضات فى نظم التعليم الوافدة نظرية دارون التى تختلف اختلاف واضحاً عميقاً مع مفهوم الإسلام لقضية خلق الإنسان ، فالمفهوم الإسلامى كما ورد فى القرآن الكريم أن الله تبارك وتعالى خلق آدم من الطين ثم نفخ فيه الروح وأن مختلف أنواع الخلق مستقلة استقلالا تاماً وغير متداخلة وأن الإنسان منذ خلقه الله تبارك وتعالى قبل ملايين السنين وهو يمشى على رجليه ومن هنا كان فساد نظرية دارون التى تقول إن الإنسان مرحلة أخيرة من تطور الحيوانات ، ولما كانت نظرية دارون هى فرضية لم تكتمل حيث أعلن دارون أن هناك حلقة مفقودة فى التطور لم يصل إليها فإنها لم تثبت خلال مائة سنة للبحث العلمى إزاء الحفريات التى ظهرت وكشفت عن قصورها بل وعن فسادها .

وقد فرق العلماء التجريبيون بين النظرية والحقيقة العلمية ، وإن أى نظرية إن لم تتأكد صحتها عن طريق التجربة فى المعامل والمشاهدة بعد التشريح ورؤية مكوناتها بالعين المجردة فهى نظرية باطلة ، وقد عرف الباحثون النظرية العلمية بأنها امر غير مؤكد مبنى على فروض قد تكون صحيحة وقد تكون خاطئة وهى فلسفة وليست علماً ، وعرف برتران الفلسفة بأنها الجانب المظلم من العلم أى الذى لا يضيئه نور الدين .

وقد ظهرت أبحاث كثيرة فى الغرب تكشف عن مدى تأثير دارون فى تدمير العقيدة المسيحية ، وأن انحدار الإنسان حسب مقولة دارون من حيوانات سابقة له إثاره فى مسائل الخطيئة والفداء ، وقال البعض أنه إذا كانت الأشياء تصنع نفسها وإذا كانت الكائنات الحية قد تكونت نتيجة الصدفة بدون تخطيط وبلا هدف فما هى الحاجة (فى رأيهم) لوجود قوة خالقة عاقلة مدبرة لمراقبة وملاحظة دفع عجلة الخلق .

والسؤال هو : متى نعيد النظر فى مطروحات الفكر الغربى ؟

بعد مائة عام من نظرية دارون ١٨٧١ فى كتابه (أصل الأنواع) كتب (ويدزيش) كتابه (قردة وعمالقة وإنسان) نافياً زعم سلفه ذاهباً إلى أن الانسان أصله إنسان كما أكد القرآن من أربعة عشر قرناً ، وإذا كان لنا أن نتتبع جذور نظرية دارون فى الفكر الاسلامى الحديث وما تبعه من استحداث تفسير جديد للقرآن تحت اسم (التفسير العلمى) .

إن شبلى شميل عاش فى أوروبا فى الثلث الأخير من القرن الماضى يدرس نظرية التطور ، وقد ترجم كتاب (بخنر) فى فلسفة النشوء والارتقاء مؤكداً فى نظرية دارون معقباً ذلك ببحث آخر نشر فى المقتطف ١٨٨٥ وقد واجهه التيار المستنير فى الفكر الاسلامى بالهجوم ، هذا التيار الذى يتزعمه جمال الدين بالرفض والتفنيد وقد تسربت أفكار بخنر ودارون إلى العقل الاسلامى ، ودخلت هذه المقولة إلى مناهج التعليم عندنا ويدرسها أبناؤنا تحت مادة (الاحياء) أو التاريخ الطبيعى كأبرز نظريات العلم الحديث فى تفسير خلق الانسان ولا تزال تدرس إلى الآن (١٩٨٤) ولقد تقبلنا كل ما هو غربى دون مناقشة ، اعتقاداً منا بأن ما يأتى من الغرب وليد أرقى حضارة وآخرها دون أن نضع فى الاعتبار أن هذه النظريات لاقت انتقادات كثيرة من الباحثين الأوربيين أنفسهم .

ولقد ظهرت بعد ذلك نظريات كذبت دارون ، وظهرت دراسات خالفت مفهومه كما حاكمت أوربا دارون بعد موته ، ويتضمن كتاب (ويدزيش) أحدث دراسة أصدرت فى لندن حكما بالاعدام على نظرية دارون ، فهو يسقط حيثياتها من خلال الدراسات ذات الصبغة العلمية البحتة ، كما يؤكد على أن أصل الانسان عملاق وليس قرداً أو غوريلا كما حاول دارون أن يؤكده فأصل الانسان كما يقول آخر علماء الانثروبولوجيا (عملاق) وأن التفسير غير السوى لأصل الانسان تنته الأديان السماوية وخاصة الاسلام

وقد سبق الاسلام نظرية (ويدزيش) منذ قرون بعيدة ليلفت النظر إلى

ما ورد فى محكم التنزيل فالمؤلف نفسه أفرد الفصل الثالث من كتابه البرهنة على أن أصل الإنسان إنسان وفى القرآن الكريم أمر الله سبحانه ملائكته بالسجود لآدم الإنسان وليس ثمة دلالة أوضح وأكبر تعبيراً عن قوله تعالى :

(ولقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) .

وفى صحيح البخارى : كتاب أحاديث الأنبياء قول الرسول صلى الله عليه وسلم (خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً فلما خلقه قال: اذهب فسلم على أولئك الملائكة فاستمع ما يحيونك ، تحيتك وتحية ذريتك فقال السلام عليكم قالوا عليك ورحمة الله فزادوه (ورحمة الله) فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن) ا . هـ .

وقد آن الأوان لنعيد النظر فيما يقدمه لنا الغرب من نظريات،ذلك أن معاهد البحث تشهد كل يوم تغييرات متلاحقة وسريعة مما لا يمكن معها التيقن من شيء أو التشبث من نظرية :

إن الكلمة الأخيرة من أى علم لم تكتب بعد .

(مصطفى عبد الغنى)

سابعاً : فقدان الذاتية والأصالة الإسلامية

هى ثمرة العدوان على التربية الإسلامية

يقول الأستاذ إسحق أحمد الفرحان : أن أخطر ما يواجه المسلمين من التحديات اليوم : هو فقدان الذاتية والأصالة الإسلامية ما هو إلا ثمرة العدوان على التربية الإسلامية لفقدان المنهج التربوى الإسلامى وأن فى واقع المسلمين اليوم مجموعتان من المؤسسات تعتبر ميداناً للمواجهة التربوية بين المربين المسلمين وغيرهم :

(الأولى) : ميدانها المدارس والمعاهد والجامعات .

(الثانية) : ميدانها وسائل الإعلام والاتصال الجماهيرى .

وإن إعداد المعلم وإعداد المنهج هى ضرورة حتمية فالمعلم هو القدوة ويعتبر بمثابة الأب الثانى للتلميذ ولذلك فهو يتعلم منه فى مرحلة ما بعد البيت ولذلك فهو يتعلم من والده أكثر ، وهو ليس مصدراً للمعلومات فحسب ،بل إنه مؤثر بالتقمص والتسرب فى كل ما يتعلق بالاتجاهات والعادات والأخلاق والقيم ومن هنا تأتى (خطورة دور المعلم) .

والسؤال هو : هل المعلم الذى يعلم أبنائنا ينطلق من التصور الاسلامى التربية ، وهل هو قدوة أخلاقية من حيث السلوك والقيم والاتجاهات لأبنائنا ، أن ما يواجه التربية الإسلامية والمربى المسلم فى هذا الصدد هو : كيف نعد المعلم المسلم من حيث ثقافته وتفاعله مع الأحداث وتنمية حسه الرسالى أو (حس الرسالة) فيه لاعتبار مهنة التربية والتعلم مهنة دعوة وتوجيه وإصلاح .

أولا : المناهج :

وبالنسبة للمناهج فلا نزال فى بلادنا العربية والإسلامية متأخرين فى تطوير

مناهجنا وتأليف كتب بالأنماط الغربية الأوربية ، أن المنهج والكتاب ينطلقان من أربع نقاط : (أولا) أساس فلسفى هو الأهداف التربوية التى تنبثق منها عقيدة الأمة وقيمها وتاريخها (ثانياً) أساس اجتماعى هو تلبية المناهج لحاجات المجتمع القائمة مع تطابقها مع النظام الاجتماعى للأمة (ثالثاً) أساس نفسى : أن تلبى متطلبات نمو المتعلمين وحاجاتهم فى مراحل العمر المختلفة . من طفولة وبلوغ وشباب (رابعاً) أساس معرفى يقتضى مراعاة طبيعة المعرفة ومنهجية التفكير التى تلائمها .

والواضح أن المناهج فى البلاد العربية والإسلامية ليست منبثقة انبثاقاً واضحاً من فلسفة الإسلام نفسه فى التربية والتعليم ، هناك نقص فى تلبية هذه المناهج لحاجات مجتمعاتنا المحلية وفى تحمسها للقضايا الاسلامية ، وفى ربط شبابنا بحلول اجتماعيه لقضايانا المعاصرة فى إطار من الفكر الاسلامى ولا يزال الاعتماد كبيراً على الدراسات الغربية التى تختلف مع حاجات وميول أطفالنا وشبابنا وهناك أيضاً :

(١) تناقض الأساس النفسى والاجتماعى فى المناهج فالمناهج الغربية تعمل أساساً لاذابة الشخصية الاسلامية وإزالتها .

(٢) الدعوات للاختلاط بين الشباب والشابات على مقاعد الدرس فى المراحل كلها : هذه الدعوات مشبوهة .

(٣) هناك التحدى فى الأساس المعرفى فى ندرة بحوث علمائنا وقلة مساهماتهم الحقيقية فى دفع عجلة العلم والثقافة .

ثانياً : وسائل الاعلام :

لم تعد المدرسة هى المؤسسة الفعالة الوحيدة فى العملية التربوية ، بل هناك المدرسة الموازية ، أو قل التربية الموازية عن طريق المؤسسة الإعلامية ، بما تملكه هذه المؤسسة من وسائل اتصال جماهيرية فعالة من صحافة وإذاعة وتلفاز وبما تفرضه على أبنائنا وبناتنا من قوة فى التأثير عن طريق دخولها لكل بيت الساعات الطوال .

وعن طريق وسائل الإعلام ظهرت مشكلات انحراف الشباب وارتكابهم بعض الجرائم نتيجة تأثير فيلم أو مسلسل أجنبي معين يتسم بالاجرام والاغتصاب والسرقة كان قد رآه .

وهذا التحدى يمكن النظر إليه من زاويتين :

(الأولى) : تلك الهجمة الغربية الشرسة التى تحاول اقتلاعنا من جذورنا وتغزونا فى مدارسنا ومؤسساتنا الاعلامية المختلفة .

(الثانية) : أزمة المثقفين والمربين من حيث عدم تبنيهم الاسلام صراحة فكراً أو ممارسة ليكونوا على مستوى التحدى فيثقفوا أبناءنا فى الاطار الاسلامى فى سائر حقول المعرفة .

المطلوب أمران : منطلق اسلامى ، والقدوة الصالحة والتحديات فى مجال التربية كما هى بمجال الاقتصاد والاجتماع والسياسة .

ثالثاً : الازدواجية فى النظم التعليمية :

فالملاحظ فى الواقع التربوى فى البلاد العربية الاسلامية ، هذه الازدواجية الخطيرة فى النظم التعليمية فقد اتخذ المستعمر طرقاً مختلفة لطمس الحضارة العربية الاسلامية ، عن طريق لمسخ مناهج وأنظمة التعليم ومحاولة تطعيمها إلى درجة كبيرة بالنمط الغربى للحياة ، إضافة إلى تصويرها الحياة الاسلامية بالبعد عن الواقع ، ووصفها بالرجعية والتخلف .

ومن بدأت الازدواجية الخطيرة فى النظم التعليمية ، معاهد تمسكت بالعلم الاسلامى دون أن تطعم مناهجها بما وصل إليه العصر من علوم ومعارف وهناك مدارس صبغها الاستعمار تقوم على مناهجه وتصوراته التى تتناقض مع الاسلام ، فنشأ عندنا جيلان : جيل متصل بالتراث تعوزه لغة العصر ، وجيل اتصل بالغرب من أوسع الأبواب وقد أعوزته أبجديات المعرفة الاسلامية والنظرة الاسلامية والاعتزاز بالتاريخ الإسلامى .

ومن هنا ترك الاستعمار السياسي والعسكري أدباء ومفكرين ومربين في ظل ما أفرزه من حركات فكرية وسياسية واجتماعية .

٢ - هناك كثير من المؤسسات الإعلامية في بلادنا العربية الإسلامية من الإسلام نفسه أولا فضلا عدم انطلاقها من التنسيق والتوفيق بين برامجها وأهداف التربية والتعليم ثانياً .

رابعاً : ضرورة إعادة صياغة مناهج التربية والتعليم جميعاً (أسلمة المناهج):

لابد من التأكيد على أن ميدان الصراع مع العدو في حقيقته صراع ثقافي تربوي حضاري ومن هنا فلابد من إعادة صياغة مناهج التربية صياغة إسلامية تكمن أولا وقبل كل شيء في صدق التوجه من المجتمعات الاسلامية إلى الالتزام بالإسلام في مجالات حياتها كلها حتى لا يكون هناك تناقض بين ما تدعو إليه التربية الاسلامية من صياغة الشخصية المسلمة في أبنائنا وبين الواقع الذي يعيشونه بعيداً عن الإسلام ، (١) إعطاء مهنة التربية والتعليم أولوية حقيقية (إنما بعثت معلماً) ولابد من إعداد المعلم إعداداً ثقافياً ومسلكياً في إطار إسلامي ليكون القدوة لمن يعلمهم ، (٢) تنقية المناهج والكتب مما علق بها من سموم غريبة لا تتفق مع قيمنا وتراثنا وأخذ الصالح من العلوم في المجالات كلها من الشرق والغرب وتنقيه المناهج ، تتطلب أن تقوم المعرفة كلها على النظرة الاسلامية (الشمول والتكامل) وتعزيز الايمان بالله والخلق الاسلامي والتفسير الاسلامي للأمور عند دراسة التاريخ واللغة والعلوم الطبيعة .

١ - تدريس التاريخ

١ - يجب أن تبنى المناهج على النظرة التي تقول إن الأمة المسلمة أمة واحدة (وأن هذه أمتكم أمة واحدة) يحب العربي أخاه التركي والباكستاني أخاه الأفريقي ٢ - النظرة الزمنية للتاريخ : يجب أن يتخلص من النظرة الغربية التي قسمت العصور التاريخية إلى قديمة ووسطى وحديثة بالنسبة لتسلطها في الحياة ، بينما التاريخ عندنا دعوة وفكرة وجهاد أمه في سبيل

إسعاد البشرية ونشر هذه الدعوة وتعزيز هذه الفكرة فى نفوس الأجيال من عرب وعجم [وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين] وعند ذلك لا تكون العصور الوسطى عصور ظلام بالنسبة لتاريخنا .

(٣) التاريخ : من وجهة النظر الإسلامية تاريخ للهجرة إلى الله والدعوة إلى الفكرة والرسالة .

(٤) الشخصية المسلمة بعيدة عن القلق فقد آمن المسلم بأن كل مايقع فى الكون هو بأمر الله .

[قل ان يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون]

٢ — تعريب العلوم

أهمية التدريس باللغة العربية وتعريب العلوم فيها واتخاذ العربية لغة التدريس ، أو بالنسبة لكون العربية هى لغة القرآن وهى التى يجب أن تكون اللغة الرسمية الثانية لكل بلد غير عربى مهما كانت لغته الأولى ، من أجل هذا يجب إمدادها بالمناهج والكتب اللازمه ، وفى ذلك يكمن القالب الأساسى لصياغة التربية صناعة إسلامية فى البلاد الإسلامية غير العربية فالعربية هى الطريق الموصل إلى الفكر الإسلامى وأصوله من القرآن والسنة .

إن هناك محاولات يجب أن نتنبه لها :

١ إبعادنا عن لغتنا .

٢ - مقاومة تعريب التعليم الجامعى .

٣ - تشجيع اللهجات العاميه ووضعها موضع الفصحى بحجة السهولة .

والتعريب هو صلة الوصل بين التراث والمعاصرة وهو أوسع من الترجمة .

٣ — اعداد الشباب الإسلامى

ان نسبه الشباب الذين هم دون العشرين داماً يزيد على الخمسين فى المائه والاعداد المطلقه للشعب العربى مع نهايه القرن العشرين تزيد على المائتى مليون

والأمة الإسلامية على الألف مليون نسمة ، ومن هنا تبدو كثرة الشباب وكثرة الطاقات والقدرات المادية والمعنوية ، ولذلك فلابد من ربط هذه الأعداد ببرامج سليمة تربي الشباب على الخلق الطيب والإخلاص في العمل .

خامساً : أهمية دور التربية الإسلامية في صياغة الصحوة الإسلامية

الصحوة الإسلامية : ليست مجرد صحوة عابرة أو عرضية لجذورها تعود إلى الفترة التى وقع العالم الإسلامى فيها فريسة للاستعمار الغربى فى سياسة القرن التاسع عشر وقد بدأ جسم الأمة الإسلامية بفعل القرآن وما يدعو إليه من جهاد لمقاومة الأعداء وبفعل بعض القادة والمسلمين بدأ يتململ ويقاوم .

وهناك وجوه خلاف بين هجمة الصليبيين وبين الهجمه الصهيونيه ، فقد كان المسلمون ابان الغزو المغولى الصليبى أكبر حضارة من غيرهم ، ولذلك عاد الصليبيون بيذور الحضارة الإسلاميه إلى بلادهم ، أما اليوم فأعداء الإسلام يستخدمون ما أنتجته الحضارة المعاصرة من أسلحة للفتك والدمار المختلفه ، والمسلمون فى نفس الوقت يغطون فى راحه حضاريه لذلك تأثروا بالغث والثمين من هذه الحضارة الغربيه وتوهموا أن التقدم المادى الغربى يعنى التقدم الحضارى وتعاون المستشرقون مع المستعمرين مما أعاق ردة الفعل الطيب التى تكمن فى العقيدة الإسلاميه الجهاديه فى مواجهة الأعداء ، لقد فقد المسلمون فى الحاضر الاستعلاء الحضارى على العدو الذى كان فى الحروب الصليبيه كما فقد المسلمون اليوم الوقفة الواحدة ونجد اليوم من المسلمين من يرفض الاحتكام إلى شرع الله والتزامه أو يشك بصلاحيته ، وكانوا فى الحروب الصليبيه يعتبرون الإسلام هو الوسيلة الوحيدة ليقظة الأمة .

وقد استفاد الاستعمار الحديث ووعى دروس التاريخ .

أولا : أرسل بين يدى جيوشه العسكريه جيوشاً من المنصرين والمثبطين فى ثياب الأطباء والمهندسين والخبراء .

ثانيا : صنع عدداً من أبناء الامه على عينه فى جامعاته وسلحهم بمذاهب

وعصريات جاهلية ضيقه (ظاهر دعوتهم اليقظه وحقيقته الدعوة إلى شرذمة الأمه وتقسيمها وإضعافها وتثبيت أركان المستعمر) .

ثالثاً : بث المدارس الفكرية المختلفة التى تفرق الأمة شيعاً وأحزاباً ، هذه الظاهرة أخرت (الصحوة) وأعاقت (يقظة) الأمة فترة من الزمن ، وقد جربت الأمة المذهبيات والإقليميات فلم توصلها إلى حل ولا يسرت معيشتها الاقتصادية، إن جذور النقطة تكمن فى ناحيتين :

١ — طبيعة الإسلام نفسه وموقف الأمة الإسلامية عندما يتعرض الغزو وكيد الأعداء

٢ — فشل ماعدا الإسلام من مذهبيات مختلفة فى قيادة هذه الأمة بالرغم من المد الفكرى والعون المادى .

ومن مظاهر اليقظة :

١ — عودة كثير من الشباب الذين عاشـــوا وطأة هجمات التغريب والاستشراق إلى الالتزام بالخلق والسلوك الإسلاميين .

٢ — انتشار الكتاب الإسلامى والمجلة الإسلامية والبرنامج الإذاعى .

٣ — النظر إلى قضايا العصر الاجتماعية والتربوية والاقتصادية من منطلق إسلامى .

٤ — الاهتمامات المحلية والاقليمية وعلى النطاق العالمى والمستويات الشعبية والرسمية بالاسم ، دخل أوربيون الإسلام (روجيه جارودى) .

٥ — تنبه الأعداء إلى هذه النقطة واهتمامهم بها ومحاولتهم إجهاضها على جميع المستويات وبشتى الوسائل المباشرة وغير المباشرة

٦ — عقد الغرب اللجان والمؤتمرات لدراسة هذه الظاهرة وزيارة المراكز العلمية فى الجامعات لدراسة الشئون العربية والثقافة الإسلامية ومعظم الذين يعملون فى هذه المراكز يهود أو أعداء المسلمين ولذلك تأتى أبحاثهم ودراساتهم ملوثة بأهوائهم وأحقادهم مما يزيد من الكيد لهذه الصحوه وهذا الدين .

ترشيد الصحوة :

تحتاج الصحوة إلى تربية مستمرة ومناصحة دائمة ، أن لا تستعجل الأمور قبل تمامها ولا الثمار قبل نضجها وإن عامل الزمن ضروري لانضاج هذه النقطة بما توفر لهامن كوادر فنية وكتابات علمية تنصح عاطفة الشباب وتربيتهم على حسن التأني للأمور وعلى السير بروح الإسلام نفسه والبعد عن المواقف العارضة الطارئة ولا مع استعجال الأمور قبل أوانها .

١ - مدارس تقوم على أساس الفكر الإسلامي .

٢ - مؤسسات اقتصادية ليكون للعمل الاسلامي عماد مادي .

٣ - مؤسسات اجتماعية وعمالية حتى يدخل الاسلام حياة الناس (الأسرة والمصنع والشارع) .

ومع تزايد الصحوة وتناميها هناك تزايد المكر الغربي لها :

[يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون]
أن يعمل المسلمون في وجه المؤامرات صفاً واحداً وجبهة واحدة ، كيف يؤكدون على نقاط الاتفاق وكيف يتعايشون مع نقاط الخلاف الفرعية (ترسيخ قاعدة الاتفاق وتقليص نقاط الخلاف) .

أن يعود العالم الاسلامي مكانته من الفتوى وأن يعود الشباب المسلم إلى تقدير العلماء والتزام نتائج أبحاثهم المستمدة من الكتاب والسنة .

الباب الخامس

فجر جديد

لمجتمع الاسره والمرأة المسلمة

(١)

هل يعود المجتمع الاسلامى والأسرة المسلمة والمرأة المسلمة إلى المنابع :

لقد تبين للمسلمين اليوم من خلال هذه التجربة المريرة التى خاضوها خلال أكثر من نصف قرن وراء (المؤامرة الخادعة) التى زينها لهم النفوذ الأجنبى تحت اسم العصرية والحرية والتى دفعتهم إلى تحطيم كل الحدود والضوابط واقتحام تلك الغابات المظلمة والتى لم تحقق لهم إلا عوامل التدمير الخطيرة التى يلاقونها فى أسر ممزقة وشباب مضطرب وجرأة على القيم والأعراض وفساد للبيوت والفتيات اللائى جرين وراء عوامل الاغراء ، ولقد جرت هذه المؤامرة عن طريق أناس من قومنا هم الذين دفعهم النفوذ الغربى إلى خداعنا سواء عن طريق تقديم تلك النظريات الإباحية أو تلك القصص والمسرحيات المكشوفة التى خدعت شبابنا وبناتنا ودفعتهم فى طريق التمزق النفسى والاجتماعى .

ولقد تكشف للمسلمين بعد أن اتسع نطاق هذه الأزمة كيف أحدثت فى بيوتنا وأسرنا وحياتنا من اضطراب حتى أننا نجد من يكتبون ويكتبن فى جرأة يدافعون عن الخطأ ويعلنون الاصرار على الاستمرار فيه بعد أن تعالت أصوات تدعو إلى الأصالة وإلى العودة إلى المنابع، وتقول ، للمرأة (عودى إلى بيتك) وتقول للزوجة (إلقمى نديك لطفلك) فنحن نجد اليوم أن المرأة الغربية وقد سبقت عالمنا الاسلامى فى هذه التجربة المريرة كيف رأت من انحراف الأبناء والبنات وفساد الحياة الاجتماعية وضاع مستقبل الشعوب ، نراها تتجه إلى البيت إيماناً منها بأن أعظم إنتاج مشترك هو أن يولد الطفل وأروع عمل قومى هو تربية مواطن صالح .

وقد تراجع بعض الكتاب دعاة تحرير المرأة فيقول أحدهم :

كنت أنادى بأن على الزوجة أن تعمل لتكسب حتى تضاعف دخل الأسرة

ولترفع مستوى المعيشة فى البلاد ولكنى قرأت فى جريدة (ايفينج ستاندر) بحثاً للدكتورة ايدا الين تثبت فيه أن سبب الأزمات العائلية فى أمريكا ومر كثرة الجرائم فى المجتمع ، أن الزوجة تركت بيتها لتضاعف دخل الأسرة فزاد الدخل وانخفض مستوى الأخلاق ، وتنادى الخبيرة الأمريكية بوجوب عودة الأمهات فوراً إلى البيوت حتى تعود للأخلاق حرمتها وللأبناء وللأولاد الرعاية التى جردتها منهم رغبة الأم فى أن ترفع مستواهم الاقتصادى .

وهكذا نجدنا نحن المسلمين نشعر بالأثر السيء لمجاراتنا عادات وأعراف أمم أخرى ، خالفت الفطرة وسبحت ضد التيار فلما أحست بالخطأ والجريمة عادت لتصلح نفسها ، أما نحن فإن منهجنا يكشف لنا عن الوجهة الصحيحة فلا نحتاج معه إلى أن نقتبس تجربة الغير ، فى مجال الاجتماع والأخلاق .

(٢)

ولا ريب كانت قضية المرأة هى أخطر المسائل التى تابعنا فيها الحضارة الغربية عن طريق المكر والخداع واللؤم الذى أخفاه أصحابه وراء مظاهر وصور خادعة ، وقد فاتنا أن نرى كيف كان من أثر الحرية غير المنضبطة التى رسمها التلموديون للمرأة الأوربية من أجل تدمير المجتمع الغربى والأسرة ومن أجل جعل المرأة أداة للجنس والفساد .

لقد تابعت المرأة المسلمة بعض كلمات غامضة خادعة رددها الغربيون من أجل إفساد حقيقة مفاهيم الإسلام فى نفس المرأة المسلمة ، فالحقيقة التى لا يستطيع أحد أن يكذبها هى أن الإسلام أكرم المرأة تكريماً لم تستطع الأيدلوجيات المعاصرة أن تبلغه إلى اليوم وأنه حين وضع فى حياتها الضوابط لم يرد بها أن يستعبدها أو يقيدها بقدر ما أراد المحافظة عليها ، وهو ما تشكو منه المرأة العصرية فى الغرب اليوم حين اكتشفت أن الرجل حين أخرجها إنما أراد أن يجعلها سلعة تباع وتشترى ، كذلك فقد خدعتها الحضارة الغربية حين قالت أنها مساوية للرجل ، فى كل شيء ، فى تركيبه الجسمانى والعقلى ، وجاء العلم

وكان لابد أن يكشف ذلك عن الخطأ وأن تستعلن صيحة العودة إلى المنزل إيماناً بالخطر الشديد الذى أصاب الأسرة والأطفال

إن صيحة العودة إلى المنزل هى صيحة الأصالة والعودة إلى الحق ، وفهم مهمة المرأة لحقيقة ودورها الطبيعى الذى يجب أن تقوم به وهو تنشئة أطفالها ورعاية منزلها وحاجة الأطفال إلى أمهم فى هذه المرحلة الدقيقة من حياتهم وما تبين من فساد عمل دور الحضانة والخدم وعجزها عن تقديم العطف والحنان والرعاية التى تقوم بها الأم كما تبين أن أحسن الرضاعة هى الرضاعة الطبيعية وفقاً لسنن الله تبارك وتعالى .

(٣)

وهذه صورة رائعة لتجربة المرأة المسلمة فى خضم العصر والحضارة :

تقول السيدة صافيناز كاظم : كان علينا أن نتعلم من دون أن تفتح لنا من رواد حركة التغريب فى العشرينات أن محاكاة السلف الغربى اللاتينى : هى التقدم والأصالة وطوق نجاة الإنقاذ أما استلهام السلف العربى فهو التخلف والجمود ، حتى لو كان السلف اللاتينى مرتبط بالخزعبلات وكان السلف العربى هو التوحيد واليقين القرآنى والحرف العربى الذى صار عماد الفن الإسلامى على مدى ١٤٠٠ عاما متصلة فى حيوية دافقة .

إن أولى دلائل زحف الصحوة الإسلامية التى يتوق إليها الشباب حين خاب أمله فى القيم الغربية وصار يعرف ما هو النور الحقيقى ، والضياء القائد لمسيرته نحو المستقبل الكريم ، بعد أن تم شفاؤه من عمى الألوان الذى قاده منذ مطلع القرن مع الأضواء الخادعة نحو اشكاليات ومشكلات حاضرة يبحث عن نفسه التى تمت سرقتها ليسهل بعدها سرقة أرضه وإرادته المستقلة .

اذكر منذ ثلاثين عاما وهذا يعنى ١٩٥٣ وأنا لم أجاوز السادسة عشرة

ليفضح هذه الدعوى ويكذبها ويؤيد ما جاء به القرآن من اختلاف بين الرجل والمرأة فى التركيب العقلى والجسمانى مرتبط بمهمة كل منهم ورسالته فى الحياة .

ويقول أحد أساطين العلم الحديث : « الكرموسات تفضح دعوى التماثل بين الذكر والأنثى : إن ملايين الملايين من الخلايا توضح الحقيقة الفاصلة بين الجنسين ، خلايا الجلد ، خلايا الشعر ، خلايا الفم ، خلايا الدم ، حتى خلايا المخ والعظام تنبئك بالحقيقة التى يريد بعض الناس اليوم أن يتجاهلها وادعاء مساواة الجنسين وهم بذلك يصادمون الفطرة فى كل خلية من خلايا الجسم الانسانى وفى كل ذرة من ذرات تكوينه وفى هرموناته المختلفة بين الذكورة والأنوثة ، فى تشريحه الجسمانى المختلف ، ليس فحسب فى الجهاز التناسلى بل فى تكوين العظام وهيأتها ، وتكوين العضلات والأوتار وشدتها ثم ترتفع العروق من الجسم إلى النفس ومن الخلية إلى السلوك ومن العظام إلى الفكر ومن الجلد إلى النزوع والرغبه والتوجيه » .

وهكذا يصدق الإسلام فى نظرته وتعود العلوم بعد أربعة عشر قرنا لتؤكد ما جاء به القرآن .

وهكذا نجد أن المرأة الغربية تعود مرة أخرى إلى الحقائق بينما تظل نحن مصرين فى صلف شـــديد على الخطأ وتجرؤ إحداهن انكتب تحت عنوان « لا تعودى إلى البيت » .

« والحقيقة أن المرأة المسلمة قد تجاوزت الحد عندما ذهبت فى تقليد المرأة الغربية إلى الحد الذى لم تميز فيه بين الحرية ودين التحلل من الالتزام بالمواريث والعادات والتقاليد التى لا خلاف على نفعها وعائدها الايجابى فى بناء المجتمع وتأسيسه على الطهر والعفاف .

« وعمل المرأة قد جاز فى أحيان كثيرة على رعاية الأسرة وتربية الأجيال الجديدة وتحول فى أكثر الأحيان إلى توجيه فراغ خارج المنزل ، الأمر الذى أفقد المنزل ربانه والأسرة رعايتها دون عائد من العمل الاجتماعى » .

من عمرى أن قرأت بمجلة روز اليوسف مقالا للأستاذ إحسان عبد القدوس يبدى فيه العجب والتعجب ، لأنه كان يجلس فى أحد شواطىء الاسكندرية الرقيقة ووجد شابة لا تنزل البحر – رغم كونها متعلمة ومستنيرة لأنها ترى أن لبس المايوه أمام الرجال حرام .

وتساءل وقتها الأستاذ عبد القدوس : هل تزال بيننا عقليات تفكر بهذا المنطق ، وقتها لم أكن ألبس المايوه ولا لبسته بعدها ، ولكن لا شك أن تساؤلات الأستاذ عبد القدوس وجيله من الكتاب العلمانيين ، كانت تحفر نفسها فى عقل وعقل جيلى وتسرقنا بأنظارها نحو الغرب ونماذجه بحيث كان جيلى يشعر أن واجبه الوطنى إزاء مصرنا المحروسة هو : أن نصنع من أنفسنا لها نتاجات مصبوبة فى قالب النموذج الأوربى أو الأمريكى أو السوفيتى .

وعندما ظهرت وقتها أو بعدها بعام – كاتبة فرنسية شابة اسمها [فرانسوا ساجان] أصدرت وعمرها ثمانية عشر عاماً رواية [صباح الخير أيها الحزن] تحكى فيها تجربتها العاطفية والجنسية الجريئة ، أزعجونا لسنوات تبكينا ومعايرة ، لأن مصر لم تخرج حتى ذلك الجيل نصف أو أربع فرانسوا ساجان حتى أننا كنا نسير مطاطىء الرءوس يشملنا شعور بالخيبة والخيانة الوطنية ، عندما تعدينا الثامنة عشرة وشارفنا العشرين من دون أن نمر بتجارب فرانسوا ساجان وبالتالى لم نكتب أى صباح خير للحزن أو حتى مساء خير واكتفينا بأن نقص شعرنا ونركبه مهوشا نازلا على أعيننا التى نرسم فيها تعبير حزن وهم بلا سبب ، اللهم إلا سبب أن أنوفنا ليست طويلة بما يكفى لاستحضار شبه فرانسوا ساجان كاملا [إضافة ولما جاءت الفتاة اللبنانية الجريئة هللوا لها ولم تتوقف مجلة واحدة عن الاهتمام بها] .

كانت القيادات الفكرية فى مطلع شبابى فى الستينيات ثم أوجه فى السبعينيات كانت كلها قيادات علمانية ، أبناء الرواد العلمانيين الغربيين أمثال لطفى السيد وقاسم أمين وسلامه موسى ممن تمت سرقة أنفسهم بوعى منهم أو بلا وعى نحو محاكاة الغرب بكل أجنحته ، وكانوا يشغلون المواقع المؤثرة فى الاعلام والنشر

والتوجيه ، وكانوا يريدون أن يحقنوا جيلنا مالم يستطيعوا أن يحققوه هم في سبيل الابتعاد عن تعاليم الإسلام وتصوراته ورؤاه ، ليأتي بعد ذلك دكتور لويس عوض ليقول : إننا في نهضتنا لسنا سوى ناقلين عن الغرب حتى في ثورتنا واحتجاجنا على الغرب ، ولا شك أنهم لم يصلتوا فوهة المسدس بين أعيننا لكي يرغمونا على الانصياع لأفكارهم ولكنهم فعلوا كل ما بوسعهم ليجيدوا ويزينوا ويعظموا الأنموذج الغربي وعلى وجه الخصوص: النموذج الغربي لامرأة التي اصطلح عليه بالاسم الحركي [المرأة المصرية] .

وكانت هذه الكلمة [المرأة المصرية] هي الآلة الجهنمية لنزع المخ والتي تم تسليطها على جيلنا بإلحاح ، وأعترف أني - مع إيماني المتأصل بالإسلام دوما - كنت في تلك السنوات من أشد المتحمسين لنداءات هذه الآلة الجهنمية لنزع المخ ، وهذا الذي جعلني بعد تخرجي من الجامعة عام ١٩٥٩ اندفع لأقوم بتجربة [الأوتوستوب] لأرى هل يمكن الفتاة العربية المسلمة أن تلف العالم بملابس الكشافة مثل الفتاة الأوربية [الشجاعة] دون أن تتكلف شيئاً يذكر .

وذلك مع الحفاظ على تقاليدي كعربية مسلمة ، وكانت تقاليدي كعربية مسلمة تعني لدي : الالتزام بالصلاة وتجنب الخمر والخنزير والمحرمات بين الرجل والمرأة وقد عدت من الرحلة ، وقد اعتبرتها ناجحة إذ حافظت فيها على المدلول الضيق الذي حددته لمعنى [تقاليدي] كعربية مسلمة وكتبت التجربة في سلسلة تحقيقات صحفية حينذاك تحت عنوان مثير هو :

[أجرأ مغامرة صحفية لعام ١٩٥٩]

أتذكر هذا العنوان الآن وأشعر بالخجل والحظ كمية التشجيع الذي كان عرزه الخطأ وحين أرجع بنظرة نقد به لإعادة تصحيح هذه التجربة أجد أني خرقت فيها أصولا وحدوداً إسلامية كثيرة ما كان ينبغي لي أن أخرقها لو أنني انطلقت وقتها من تصور إسلامي كامل وسليم .

وكان يجب أن تستوقفني أول بديهة إسلامية وهي عدم جدوى هذا النفور من التعب والجهد حيث كان يجب أن أصرف جهدي وطاقتي في معرفة ديني بشكل أعمق ، والتزم بعقيدتي التزاماً سلوكيا يمكنني من تحرير نفسي وعقلي ، من الغزو المدمر لشخصيتي والمعادي وبالتالي لمصلحتي على المستوى الفردي ومصلحة وطني وعلى المستوى العام .

ولقد خرجت من التجربة الحمقاء بألم حاد مستمر في كتفي اليمنى ، نفعاً من حمل حقيبة الظهر الثقيلة التي كنت أحمل فيها متاعي وكلما ألح على ألم هذا الكتف أحمد الله وأسأله أن يكفر بعذابي هذا ذنب استجابتي لآلة نزع المخ الجهنمية .

ثم تقول : ياشاطىء رأس البر احمد شباب هذه الأيام الذي وعى الفتنة الكبرى ونظر إلى الأجيال التي سبقته وأدرك أنها أعلنت انتصاراتها من مواقع هزائمها وجردت أجدادها من سجلات مواتها ، وتصورت حلاتها في لحظات تنازلها عن رأسها ويديها وقدميها بسلاسل محاكاة الغرب وقيود التغريب ، لقد وعى الشباب هذا واختط طريقه بأصالة صوب الإسلام وعرف كيف يلفظ الفكر المتناقض مع تصورات عقيدته وانطلاقاتها وبالتأكيد سيظل التغريب ودعاته مثل : بقعة الزيت على سطح الماء ان تندمج وان تختلط في مياة المحيط القوية الأصيلة ، هذه الصورة لبقعة الزيت على سطح الماء استعيرها من الدكتور زكي نجيب محفوظ حين قالها وهو يتحسر في مقال له منذ شهور ويسجل فشل حركة التغريب العلمانية لأن علماء الدين وممثليهم في القرى والنجوع كانوا دائماً أقرب وألصق بفكر الشعب المصري واحتياجاته واستجاباته أكثر من دعاة الفكر الغربي وفقهاء ثقافته ولأجل ذلك يتحسر الدكتور زكي نجيب محمود ولأجل ذلك أحمد الله كثيراً » .

(٤)

لاريب أن هناك حقائق كثيرة تتكشف اليوم لتزيد المؤمنين إيماناً بسلامة المنهج الإسلامي بضرورة العودة إليه ، وبأنه كان هو ولا يزال وسيظل طريق

الله تبارك وتعالى ولا طريق غيره ، وعلينا أن نعود إليه اليوم بعد أن خدعنا طويلا وعرفنا الحقية ممثلة فى شقين :

أولا : فساد وسقوط التجربة التى خرجت على حدود الله وتجاهلت الجانب الربانى المستمد من الدين ومن الأخلاق .

ثانياً : التعرف على صدق الإسلام وسلامة منهجه وثباته كذلك فقد تبين مع صدق المنهج الإسلامى فساد التجربة الحضارية الغربية كلها وتكشف اليوم أنها أشرفت على الانهيار وآذنت بالأفول والزوال ، وأنها لا تعيش ولا تواصل سيرها بمجرد قوانينها الذاتية بل لأنه ليست هناك فى هذا المجال حضاره تحل محلها وتسد فراغها - كما يقول بعض الباحثين، والعالم الإسلامى مدعو بصورة عامة لسد هذا الفراغ الذى سيحدث بعد نهاية هذه الحضارة وانسحابها من مسرح الحياة ، والممسكون بمقاليد الأمور فى الغرب يعرفون هذه الحقيقة ويعملون على تأخير هذه النهضة ، ما استطاعوا

ولكن مهما حاولوا بمكر ولؤم وتعصب تأخير الفجر فإنه آت وسيعود إلى أهل الإسلام قيادة الجنس البشرى وتوجيه الشعوب المعاصرة مرة أخرى بعد أن لم يعد يوجد بصيص من نور وسط ظلام الغرب يشقيه وعلينا أن نضع علوم الوسائل فى خدمة هذه الدعوة ، لا أن نكون نحن تابعين لها منصهرين فيها ، بل أن نجعلها مادة خاماً قادرة على خدمة أهداف التوحيد الخالص ، والرسالة العالمية - أن الحضارة الغربية تلق اليوم بثقلها فى أفق العالم الإسلامى وتصب سموم الفساد بإصرار ، هذه موجة الأفلام الجنسية التى تجتاح مصر والبلاد الإسلامية هذه الأيام بأسماء مختلفة والتى لا يتضمن فيها الفيلم إلا عرضاً جنسيا بلا موضوع فى أرخص إثارة وأتفهها ومن مشاهد الجنس التى لا تمت الفكر ولا القصد ولا الحوار وهؤلاء عتاة عبدة العجل الذهبى يقدمون أتفه شىء وأرخصه ليربحوا الملايين وتلك هى مايسمونه (الفهلوة) كلام مرفوض لأنه يعتمد على استغفال الجماهير ، وهو عمل مرفوض مهما قال فلاسفة الفكر الملحد عن حرية الفكر .

والواقع ان أمريكا تصدر إلى مختلف دول العالم حوالى ألف فيلم فى السنة وكل فيلم من ثلاثمائة نسخة رغبة فى إفساد المجتمع العالمى ، فى خلط شنيع بين الهبوط والإسفاف ولما كانت كل الأنظمة تستخدم الفيلم السينمائى فى نقل القيم الفكرية والاجتماعية والسياسية إلى الآخرين فإن أمريكا تستخدم الفيلم كوسيلة إعلامية لنقل الثقافة الماجنة وتقف مؤسسات كبرى اقتصادية وعلمية وفنية خلف الفيلم الأمريكى لدراسة أسرع السبل لنشر نمط الحياة الأمريكية لدى شباب البلاد الأخرى .

وهناك أفلام أخرى أجنبية من مصادر مختلفة تتحدث عن « السحر » والأرواح والجن وتشد كثيرا من المشاهدين إلى عرض صليبى يهدف إلى نشر الصليبية فى بلاد الإسلام فإن مضمون كثير من هذه الأفلام إن أحد أفراد الفيلم يصاب بحاجات مخيفة وغريبة بسبب الأرواح أو العوالم الغيبية وتبقى مشكلة الفيلم فى كيفية علاج هذه الحالة الشاذة ، وتفشل كل المحاولات لعلاج هذا الشخص حتى يأتى الراهب والقسيس لعلاجه ويحدث الصراع بين تلك الأرواح وبين الراهب وهو حامل الصليب والإنجيل فى يده ، فيبدأ بقراءة أدعية فى هدوء وتواضع حتى يصل الأمر أن يضع الراهب الصليب على صاحب الحالة فيوقف الحالة عند حدها وبعد ذلك يتم علاج الشخص بهذه الطريقة ، .

ولاشك أن هناك من ينخدع لهذه الخدعة ، ولكن السؤال هو : لماذا يسمح بهذه الأفلام فى بلاد المسلمين .

فإذا أضفت إلى ذلك ما يقدمه التليفزيون من مسلسلات غريبة قائمة على الجنس والجريمة يوميا ، بدون توقف ، هذه المسلسلات الخطيرة التى تؤثر أبلغ تأثير فى شبابنا الغض ، وما يقدم من مغامرات السوبرمان لأطفالنا وما بين هذا كله وبين مجتمعاتنا من فوارق وفواصل ، خاصة جوانب الدعاية المسفة والجنس الفاضح والعنف المثير ، وحلقات تمجد العنف والقسوة وتبرر الرزيلة والفسق ، وتمتلئ بالقدرة على البراعة فى النصب والاحتيال .

لماذا يراد صهرنا فى قوالب المجتمع الغربى الفاسد والأمريكى المنحل !

الإجابة لأننا لا نملك نظرة متكاملة لما يجب أن تكون عليه ثقافتنا بمقوماتها الإسلامية الأصيلة التى تحمى أجيالنا الشابة من مثل هذه الشرور .

(٥)

إن ظاهرة الاحتشام التى استجابت لها المرأة المسلمة علامة على الأصالة والعودة إلى المنابع وهى ظاهرة مزعجة لدعاة الهزيمة والتحلل والتغريب .

وتقف أمينة السعيد وزكى نجيب محمود فى سبيل صد هذا الاتجاه الطيب موقفاً عزياً ، فهو وهى يرميان الظاهرة وأهلها بكل نقيصة وقد وصفته أمينة السعيد بأنه أكفان الموتى، وقد دحض الكثيرات خطأ تمايل ظاهرة الاحتشام حيث فات أعداءها التعليل الصائب وهو أن جمهور الشبان والشابات فى مصر وغيرها قد أدرك عاقبة التهور وعرف أن من أسباب النكسة المصرية الأخيرة ظهور أفلام جريئة تدعو إلى التحلل ، ولا ينقل عن أوربا شيئاً من حضارتها الصناعية بل تنقل التافه الساقط من أساليب الإغراء والتمييع ، أدرك ذلك فبدأ يتحول عن دواعى السقوط والاغدار ، وآية سلامة هذا الاتجاه ما نشرته الصحف من نتائج استطلاعات أخبارية أثبتت أن الطالبات فى سن المراهقة وهو سن الغواية غالباً قد كن أسرع إلى هذا الزى المحتشم من أمهاتهن فقد انتشر الزى بين طالبات المدارس الثانوية حتى أصبح الزى الرسمى فى أكثرها وقالت الطالبات أن دروس التربية الدينية قد ارتهن واجبهن فشاهدن الحق حقاً والضلال ضلالا، بل لقد تبين أن بعض الفتيات اللاتى لم يرتدين هذا الزى كان مصدره منع أولياء أمورهن لهن ، وهذا ما يقلم ، وإن كان التيار الاسلامى الآن قد اكتسح ما سواه ، ورأى المعوقون من أولياء الأمور أن لا طاقة لهم بمقاومته ، هذه اليقظة فى الضمائر، تثبت أن الاسلام دين الفطرة التى تجعل الناشىء يتجه إلى سبيل الطهر والعفة إذا حيل بينه وبين اتباع الشهوات وإذا وجد من يشق الطريق أمامه ليهديه .

وقالت صحيفة الشهاب اللبنانية : لقد ثارت المرأة الغربية ولكنها لم تجد إلا الهروب من الواقع طريقاً للتعبير عن الثورة ، ثارت (مارلين مونرو) الممثلة الأمريكية التي جمعت الملايين من وراء عرض جسدها ، وهي التي عرفها العالم أجمع سيدة للإغراء وتمثالا للانحلال في النصف الثاني من القرن العشرين ، ثارت حين أدركت كارثتها وأرادت أن تعرض شيئاً غير جسدها ، ولكنها لم تجد غير النظرة إلى الجسد فقط فثارت على حياتها وانتحرت بعد أن كتبت وصية رائعة تحذر بنات جنسها من السير في طريق الجسد والجرى خلف الأضواء والشهرة فالأمومة أكبر من ذلك كله ، أكبر من الشهرة والأضواء ووقوف المرأة في مطبخها أعظم من وقوفها على المسرح ، وكلمة (ماما) من فم الطفل أحسن ما تسمعه فتاة » .

وتقول الصحفية : أننا حين نواجه الأمر بصراحة نرى أن أجهزة الإعلام (من صحافة وإذاعة مسموعة وإذاعة مرئية) يقع عليها العبء الأعظم في الاندفاع إلى التحلل الخلقي لأنها تحض الحائمات من المستهترات راقصة أو مطربة أو مغنية بكل الاهتمام ، فتتبع هؤلاء تتبعاً يشغل الرأي العام شغلا متصلا ، وتصدر الحلقات المتصلة عما تسميه تاريخاً لحياة هذه الفنانة ولا تخجل أن تذكر أسماء عشاقها وخفايا سهراتها ونماذج من رسائل الغرام الموجهة إليها .

ومن أكذب ما يدعيه دعاة التبرج قولهم أن دعاة الحشمة يريدون أن يرجعوا بالمرأة إلى عهد الجوارى وعهد الحريم وهو ادعاء كاذب يدل على أن قائله قد فقد كل أسلحته وتعذر عليه أن يدافع بغير الافتراء فمن الذى قال أن تحشم الفتاة وصيانة جسمها يرجع بها إلى عهد الجوارى ، هل يؤدى الاحتشام إلى أن تفقد حريتها وتصير رقيقة تباع في الأسواق بل أن العوز الشائن هو الذى يرجع بالمرأة إلى عهد الرقيق حين تضطر إلى عرض مفاتنها راقصة داعرة أو ممثلة مبتذلة فهي تتاجر بجسمها في سوق إثم لا يكسب المال إلا عن طريق الحرام .

إن صباحاً جديداً أشرق على العالم الإسلامى حين بدت طلائع النور أشرد فلول الظلام لتمحى معالم الطريق .

محمد رجب البيومى

(٦)

إن المجتمع الإسلامى اليوم يضطرب اضطراباً شديداً بتيارات عديدة من الاضلال والانحراف الذى يجرى جريا متداركا مضطرداً بحيث نعجب لهذه التحول الخطير نحو الجريمة والإباحة والتحلل، فقد ضعفت إلى حد كبير عوامل الخوف من الله تبارك وتعالى والالتزام بحدوده ، وانطلقت فى النفوس الرغبات والأهواء ، جاء ذلك نتيجة عوامل كثيرة منها مفاهيم الشيوعية والاشتراكية التى دفعت الناس إلى الطمع فيما لا حق لهم فيه ، وجاءت عوامل التبعية الاقتصادية للغرب الذى فرض المفهوم الاستهلاكى وأسلوب العيش القائم على الترف الكاذب ، والأدوات الحديثة وما قذفت عوامل التبعية من أموال كثيرة من الحرام بين أيدى غير ذوى العمل الحقيقى .

وجاءت هذه التحولات بعد سنوات طويلة وتطورات واسعة من الخروج من آداب الإسلام والتحقق من التقوى والخوف من الله ، وارتبطت من ناحية أخرى بعوامل الغزو المثلث لمجتمعنا ، على نحو يوحى بأنه تخطيط مرتب للنفوذ الأجنبى لاستدامة السيطرة .

فقد قام بعد الاستقلال عن طريق الولاء الأجنبى التداخل مع مؤسسات جديدة وخاصة المخطط الأمريكى وريث فرنسا وبريطانيا بعد الحرب العالمية ، والذى جرى من خلال مؤسسات تبشيرية خفية تكمل وراء مشاريع الأمم المتحدة وخاصة اليونسكو والمعونات الخارجية، وقد ارتبط ذلك مع الصهيونية العالمية ومع نفوذ الشيوعية الذى سيطر على البلاد حقبة الستينيات وما بعدها وفرض المفاهيم المادية .

ثم جاء الانفتاح فأعطى طريقاً للتدافع نحـــو الحرام والإنفاق على المحرمات .

وهناك فى المجتمعات الإسلامية تيارات عدة . تيار المخدرات وتيـــار القمار وتيار عاب الليل وتسجيلات الفيديو التى حملت أفلام الجنس الخطيرة إلى مخادع النوم ورحلات السياحة وأفلام الجنس والجريمة التى بلغت غايتها فى الهبوط والتدنى .

• • •

المرأة المسلمة

عودة إلى المنابع

منذ بدأت سلاسل الاستعمار الأجنبي وأغلال النفوذ الأجنبي تسيطر على المجتمع الإسلامي وتطوقه فقد كان في تقدير دهاقنة الاستعمار أن تكون مسألة المرأة المسلمة من الأسلحة النافذة في هدم الأسرة وتدمير المجتمع الإسلامي وكانت من بين أربع دعوات عمل لها .

(١) هدم القيم الأخلاقية (٢) افساد الأسرة

(٣) افساد التعليم (٤) حرب اللغة العربية .

وكانت قضية تحرير المرأة أو بالأحرى مؤامرة تحرير المرأة هي من أبرز ما عمل له النفوذ الأجنبي بإزاحة الحجاب واشاعة روح السفور ، وخلق طابع الاستهانة بالقيم الأخلاقية ، ذلك أن الإسلام في الحقيقة هو الذي فتح للمرأة باب حريتها بعد عصور الظلام والظلمات ، ولكن ما كانت تطمع فيه القوى الغازية هو هدم الأسرة وإفساد الأجيال إيماناً بأن هذا هو منطلق إفساد المجتمع الإسلامي كله .

وقد تبين الآن بأن في مؤامرة تحرير المرأة حين ينظر إليها الآن بعد أكثر من ثمانين عاماً مايكشف عن سقوطها وفسادها وأنها كانت على حساب الأجيال الجديدة أنها تتعارض مع :

أولا : مع مسئولية المرأة الأولى وهي بناء الأساس والمنزل ورعاية الطفل

ثانيا : أنها تتعارض مع تركيب المرأة الفسيولوجي ، والعقلي والروحي

وقد تكشفت هذا اليوم ليس في أفق المجتمع الإسلامي بل في أفق المجتمعات الغربية وأن هناك دعوة واسعة عريضة لعودة المرأة إلى المنزل وقد تبين للمرأة في الغرب أو في العالم الإسلامي أنها كانت ضحية قوى عاتية تلمودية واقتصادية

تريد هدم المجتمعات وتدميرها ، وقد تابعنا نحن فى العالم الإسلامى هذه العملية تحت ضربات الطبول باسم التقدم ، ودفعنا معصوبى الأعين إلى هذه التضحية الشديدة الخطورة تحت اسم الحرية ثم تبين أنها عملية مشهرة أريد بها إيصال الامة الإسلامية إلى عصور الاستسلام والانحلال والانصهار فى الحضارة الغربية بحيث أصبح المجتمع الإسلامى على وشك إلقاء نفسه فى بوتقة العلمانية والاممية التى يفقد معها أعظم مالديه وهو ذاتيته إسلامية

ان أكبر منجزات الصحوة الإسلامية هى عودة المرأة إلى مفاهيم الإسلام فى رعاية الاسرة وحماية الطفل

ولقد حاولت دعوة التغريب أن تفسد الرؤيا لدى المرأة المسلمة حين طرحت عشرات من المفاهيم المسمومة فى قضايا الإسلام فيها موقف واضح

<u>وأخطر هذه القضايا التى أثيرت :</u>

(١) المساواة بين الرجل والمرأة (٢) مهمة المرأة الحقيقية

(٣) مسئولية الأسرة (٤) عمل المرأة

(٥) حرية المرأة فى عواطفها وجسدها

فقد اندفعت المرأة المسلمة وراء هذه الأهواء فكن ضحايا للأهواء ولم تتبين حقيقة الموقف إلا بعد أن تحطمت الامر وحملت المرأة أوزار الخطأ ولو أن المرأة المسلمة استأنست بمفهوم الإسلام الذى أهداه الله تبارك وتعالى إليها وهو العلم بها والرحيم بها لما هوت فى مهاوى الشقاء والانهيار والتحطم وقد جاء كثير من الباحثين حتى الغربيين منهم فى السنوات الاخيرة فاستطاعوا عن طريق العلم أن يؤكدوا هذه الحقيقة التى قال بها القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرناً والتى لا سبيل إلى تجاوزها أو إنكار وفى مقدمتهم الدكتور الكسى كاريل صاحب كتاب (الانسان ذلك المجهول) .

وقد أكدت هذه الأبحاث أن تركيب المرأة يختلف عن تركيب الرجل من

جميع النواحي التشريحية والعقلية والنفسية ، وأن المرأة قد خلقت وخلق كيانها على نحو يمكنها من من أداء رسالتها التي خلقها الله تبارك وتعالى لها فإذا تجاوزتها اضطرب كيانها العصبي والنفسي ، كما أكدت الأبحاث أن المساواة بين الرجل والمرأة لا سند لها من علم أصيل أو فكر سليم إلا في ناحية واحدة وهي ناحية العمل والإيمان والحساب .

إن هناك فروقاً بين الرجل والمرأة من النواحي الأربع :

البيلوجية ، الفسيولوجية ، السيكلوجية ، العقليه .

وإن العالم إذا أراد أن يحل مشاكله فلابد أن يعود بالمرأة إلى وظيفتها الأولى وهي تربية الأجيال .

الكسيس كاريل

إن الاختلاف الموجود بين الرجل والمرأة لا يأتي من ناحية الشكل الخاص للأعضاء التناسلية ومن وجود الرحم والحمل أو طريقة التعليم إذ أنها طبيعية والأكثر أهمية من ذلك أنها تنشأ من تكوين الأنسجة ذاتها ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيماوية محدودة ، يفرزها المشط ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية عن الأنوثة إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليما واحدا وأن يمنحا أعمالا واحدة ومسئوليات متشابهة والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافا كبيراً عن الرجل فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها وفوق كل شيء بالنسبة لجهازها العصبي فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للتبديل مثل قانون العالم الكوكبي فليس في الإمكان إحلال الرغبات الجنسية محلها ومن ثم فنحن مضطرون إلى قبولها كما هي فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعا لطبيعتهن من غير أن يحاولن تقليد الذكور فإن دورهن في تقدم الحضارة أسمى من دور الرجل فيجب عليهن أن يتخلين عن وظائفهن المحدودة .

إن أهمية وظيفة الحمل والوضع بالنسبة للأم لم تفهم حتى الآن إلى درجة

كافية مع أن هذه الوظيفة لازمة لإكمال نمو المرأة ومن ثم فمن سخف الرأى أن تهمل المرأة تتنكر للأمومة ولذا يجب ألا يلقن الفتيات التدريب العقلى والمادى لا أن نبث فى نفسها المطامع التى يتلقاها الفتيان ومن ثم يجب أن يبدل المربون اهتماما خاصا للخصائص العضوية والعقلية فى الذكر والأنثى وكذلك لوظائفها الطبيعية فهناك اختلافات لا تنقضى بين الجنسين ولذلك لا مناص من تجنب حساب هذه الاختلافات فى إنشاء عالم متمدين .

إن للغدد الجنسية وظيفة أخرى غير الدافع لاتيان عمل من شأنه حفظ الجنس فهى تزيد من قوة النشاط الفسيولوجى والعقلى والروحى فليس هناك خصى أصبح فيلسوفا عظيما أو عالما خطير الشأن أو حتى مجرما عاتيا ، لأن الخصيتين والمبايض لهم وظائف على أعظم جانب من الأهمية، انها تولد الخلايا الذكرية والانثوية وهى فى الوقت نفسه تفرز فى الدم مواد معينة تطبع الخصائص الذكرية أو الانثوية المتميزة على أنسجتنا واخلاقنا وشعورنا وتعطى جميع وظائفها

× × ×

ويقول الدكتور هرفابى فى دائرة المعارف الكبرى : إن المجموع العضلى عند المرأة أقل منه كلا عند الرجل وأضعف منه بمقدار الثلث والقلب عند المرأة أصغر وأخف منه بمقدار ٢٠ جراما فى المتوسط ، فالرجل أكثر ذكاء وادراكا والمرأة أكثر عاطفة وانفعالا .

كما يقول غيره أن الحواس الخمس عند المرأة مصممة بحيث تؤدى رسالة مختلفة عن رسالة الرجل .

٢ ـ أما الفروق السيكولوجية فهناك فارق بين الرجل والمرأة فى العاطفة والمرأة أكثر حساسية وتأثرا بالظواهر الطبيعية ، والمرأة لا تستطيع حفظ الأسرار والمرأة تجذب انتباهها حادثة ما أكثر من فكرة وانفعالات الرجل أعمق أثرا من انفعالات النساء .

٣ ـ أما الفروق العقلية فقد ثبت من الدراسات أن هناك فروقا فى النواحى العقلية بين الرجل والمرأة .

وهناك فترات خاصة تمر بها المرأة ولا يمر بها الرجل وتظهر فيها أمراض كثيرة تكون خلالها مضطربة قلقة ولا يمكن أن تسير سيرا طبيعيا وهى حالة الدورة الشهرية والحمل والولاده والنفاس .

والاعراض البدنية الشائعة فى المرأة قبل الحيض وخلاله هى الشعور بالتعب والضيق الغامض ويظهر الصداع غالبا ويزداد تدفق اللعاب ويتمدد الكبد ويتضخم ويحدث نقص فى الكبد الصفراوى ، ويضطرب الهضم كما تضطرب شهوة الاكل إلى أخره .

وإذا كنا نعلن هذه الحقائق فإننا لاننقص أبدا من قدر المرأه فقد كرمها الحق تبارك وتعالى أجل تكريم ومايقول به العلماء الآن قال به الاسلام فى محكم كتابه وفى أحاديث رسوله ، ومن شأن هذا أن يلتفتا إلى مهمة المرأه الحقيقية وهى مدعاة لقيام نوع من العلاقة بين الرجل والمرأه تكون فيه القوامة للرجل ولكن المطروحات المسمومة كلها عن طريق القصة والمسرح والتليفزيون تحاول أن تضع المرأة موضعا مختلفا ، ومن ثم تفسح الطريق لحوار تستعلى فيه المرأه على الرجل ويتشاتم الابن وأبيه دون أن نراجع أنفسنا فى أن هذا ليس مفهوما ديننا وأن هذه الكلمات الهابطه وهذا الحوار المهين مدسوس علينا لهدم مجتمعنا ولو أن المرأة المسلمة عرفت حدود علاقتها بالرجل وعرف الابن حدود علاقته بأبيه وادى الزوج دوره بأمانة وأدى الأب دوره بإخلاص لما وجدت لدينا هذه الأزمة الاجتماعية الخطيره .

إن للمسلمين والعرب قيم ومفاهيم وأخلاقيات واضحة فى التعامل والحوار وأن هذه الكتابات المسمومة التى نراها فى بعض صحف البلاد العربية لاقيمة لها ولن تبقى لأنها لا تمثل جوهر هذه الأمة ولاضميرها مهما أتيح لها الآن من بروز أو لمعان .

عمل المرأة :

إن المرأة المسلمة هى دعامة الأسرة ، ووظيفتها هى حماية هذا النظام

وإنشاء الأجيال الصالحة ولها أن تلى من الأعمال مايناسبها وتحفظ كرامتها كالتعليم والتربيـــة والتطبيب والتمريض ، إذا أمنت تماما أن بيتها لن ينهار أو يضعف ولذلك لم يقر الاسلام من عمل المرأة إلا أنواعا معينة وفى حدود ضيقة هى الاحالة لنفسها وأهلها وهـذا وضع مختلف عن ظاهره تشغيل النساء القائمة حاليا ولا يفرض الاسلام التكليف الشاق على المرأه كما لا يفرض عليها كزوجة أى دور فى كسب المعاش أو مشاركة الرجال فى وجوه من النشاط لا تتفق مع الفطرة وإذا لم يتيسر لها الحماية الـكاملة لدينها وعرضها فإن عملها يكون من الأمور التى يجب إعادة النظر فيها .

أما التعليم فهو حق ثابت للمرأة وهو شيء يختلف عن كسب المعاش وعن الاختلاط ولابد أن يكون للمرأة تعليم خاص يتفق مع وظيفتها التى أناطها الله تبارك وتعالى فيه ، أما أن تتلقى نفس التعليم فهذا لا يفيدها كثير لاختلاف الوجهة .

وعليها أن تستكمل حاجتها الضرورية من الثقافة .

كما يجب الفصـل بين الذكور والإناث فى التعليم بكل مراحله وأن تـكون هناك مجتمعات الرجال ومجتمعات النساء وأن يستمر ذلك بإذن الله فى المراحل القادمة فلا تطغى تيارات العنصرية وسموم التقدم الـكاذب فتفسده، إننا لانخاف من الواقع القائم الآن فهو طيب ومبارك ولـكننا نرجو الصمود عليه وتعميق وجهته الإسلامية مهما سخر دعاة التغريب من هذا الاختلاط لأن هذا هو الهدف الأكبر من دعوتهم ومن سمومهم ولأن حماية الأسرة من كل مايهددها من أخطار يحتاج إلى هذه الضوابط (قيل هذا ابتيات الامارات) .

اللباس والزينة

دعا الإسلام إلى حسن اللباس والتجمل على أساس أن اللباس مهمة أساسية هى ستر مالا يجوز كشفه وحسن لقاء الناس .

والمسلمات مطالبات بالثياب الواسع والغطاء الذى يحقق النص القرآنى

[يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين] .

ولقد حملت دعوة التكشف فلسفة خبيثة تبرر بها هدفها وتستهدف التحلل الكامل من ضوابط المجتمعات وترمى إلى تقليد المرأة المسلمة بملابس الرجل ،

وإن من أقسى ما يدعو الإسلام إلى الحذر منه هو الخلط بين الرجولة والأنوثة فى اللباس والمشية والكلام والزينة .

ولنعلم أن لكل دين خلقا وأن خلق الإسلام الحياء .

إن أجزاء من الجسم حرم الله تبارك وتعالى كشفها لتحفظ الشخصية ويرفع الحقد وقد وجه رسول الله ﷺ النظر إلى الطريق الذى يحول دون تفشى الأزياء المخزية الباذخة بين ظهرانى أتباعه واستنبط منها فقهاء الشريعة نظاما يضم التعاليم والنصوص الخاصة بالأزياء .

ولقد شاهد الناس الأوربيات المسلمات فى مؤتمرات عقدت فى أغسطس الماضى وهن متمسكات بالزى الإسلامى رغم قساوة الحر .

والقاعدة أن تظل زينة المرأة لزوجها وحده وأن لا تكشف عن زينتها أمام الغرباء إلا مايظهر منها بطبيعة الحال وكل ماعدا الوجه والكفين فى المرأة عورة إذا أمنت الفتنة وعلى المرأة أن تطفىء أضواء جمالها أمام الرجال وقد دعا الإسلام إلى تبريد الرغبات لا إلى إيقادها .

وقد جعل الإسلام عفة الفتاة حقيقة كامنة فى ذاتها وليس غطاء يلقى ويسدل على جسدها وفرض الحجاب هو فى ذاته حفاظ على عفة الشباب الذى يقع نظره عليها لاحفاظاً على عفتها من العين تراها فحسب وقد وضع الإسلام ضوابط الزى مما لاشك تعرفون ولستم فى حاجة إلى الإفاضة فيه .

ولقد ندد الإسلام بتشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال واعتبره انحرافا عن الفطرة ودليلا على عقلية فاسدة وأبى أن يجيزه لأتباعه .

وقدجاءت هذه الضوابط كلها لحماية الذاتية الإسلامية بدعائمها الخلقية حتى لا تنهار ولا تنصهر ولا تنقرض

ماهى مهمة الفتـاة المسلمه فى هذا العصر

أولا : أن تعد نفسها لتكون مؤمنة بربها محبة لنبيها ومن أجل ذلك عليها أن : تتفهم دينها ومنهج العبـادة الحقة وفقـه الطهارة بعيداً عن المغالاة ، ووسطية الإسلام مطلوبة فى كل الأمور .

ثانيا : أن تعد نفسها لتفهم مهمتها فى الحيـاة ودورها الذى أعدها الله تبارك وتعالى لأدائه فى بناء البيت المسلم والطفل المسلم

ثالثا : أن تعد نفسها لتفهم ماحولها . تفهم مسئوليتها إزاء دينها ، إزاء أمتها ، إزاء وطنها .

رابعا : أن تعرف الحقيقة الإسلامية الأساسية بأن هـذه الصورة التى قدمت لها عن تحرير المرأة هى خدعة كبيرة وأنها محاولة لإخراج الفتاة المسلمة والمرأة المسلمة من مسئوليتها الربانية التى أعدها الله تبارك وتعالى .

الباب السادس

حضارة الإسلام لها طريقها المتميز

(١)

لا ريب أن لكل حضارة طريقتها الخاصة فى التفكير والعمل وفى أسلوب لقائها مع أهلها خاصة مع الآخرين بوجه عام ، كما أن لها تيكنولوجيتها وثقافتها ، وبالتالى إنسانها الذى يعكس مجموع هذا كله ، فالإنسان العربي المسلم - لا ريب - يفتقد ملامح تواجده وانسجامه فى الحضارة الحديثة سواء كان فناناً ومفكرا أو كان إنساناً عادياً ، ويرجع ذلك فى الحقيقة إلى الفوارق العميقة بين القيم الإسلامية التى بنت حضارة المسلمين وبين قيم الرومان واليونان أو المسيحية الغربية التى أقامت حضارة الغرب ، فالمعروف أن الحضارة الغربية الغربية قائمة على أسس التجريب الإسلامى ولكن الغربيين حين أخذوا التجريب صهروه فى بوتقة فكرهم ولم يأخذوا مفهوم الإسلام سواء النقدى أو العلمى والحضارى أو الاجتماعى ، ومن ثم فصلوا بين القيم المتكاملة فى الإسلام وفرقوا بين العلم والدين ، وبين الأدب والعلم وبين الأخلاق والسياسة ، وبين الدنيا والآخرة ، وقامت حضارتهم على هذا الأساس المادى والإباحى الانشطارى الذى كشف منذ اليوم الأول انحرافه فى استعلاء جوانب العقل والمادة والترف اللذة والجنس ، وانحسار مفاهيم القلب والأخلاق والإيمان بالله تبارك وتعالى .

× من هنا جاءت الفوارق العميقة بين وجهة المسلمين ووجهة الحضارة الحديثة التى فرضها النفوذ الأجنبى والتى لم يتقبلها المسلمون بإرادتهم ، والتى وقفوا منها موقف الانبهار فى مرحلة والحذر فى مرحلة تالية حيث نرى اليوم دعاة التغريب يطالبون المسلمين بأن يأخذوا الحضارة الغربية وحدة واحدة (فكرها وماديتها) وبينما لم يفعلوا هم ذلك يوم أخذوا الحضارة والعلوم الإسلامية، كذلك فهم يتطلعون اليوم إلى أن يصهروا مجتمع المسلمين فى هذه الحضارة بمفاهيمها المنحرفة فى الوقت الذى تمر الحضارة الغربية بمرحلة الأزمة والغروب والانحلال والإفلاس .

ان أكبر علامات (العودة إلى المنابع) فى مطالع القرن الخامس عشر

المجرى هى وضوح رؤية هذه الفوارق أمام المسلمين : وهى رؤيا ذات شطرين : تميز حضارة الإسلام بالفطرة الجامعة والربانية والأخلاقية من ناحية وإفلاس حضارة الغرب وعجزها عن الاستجابة لأشواق النفس الإنسانية

(٢)

ان اختلاف الغايات والوسائل بين الحضارتين الإسلامية والغربية واضح غاية الوضوح فى مختلف القيم الأساسية .

فنى الأصل الأول تقوم الحضارة الغربية على إنكار البعد الإلهى والصلة بالله تبارك وتعالى بينما تقوم الحضارة الإسلامية على الربانية .

وفى الأصل الثانى تفصل الحضارة الغربية العلم عن الدين بينما يجمع الإسلام بين الدين والعلم ، وفى الأصل الثالث تقوم الحضارة الغربية على القومية المتعصبة بينما تقوم حضارة الإسلام على الإخاء الإنسانى .

وفى الأصل الرابع تقوم الحضارة الغربية على أساس أن الشعب هو صاحب السيادة ومصدر السلطة بينما تقوم الحضارة الإسلامية على النظام الربانى والقانون الإلهى ، وفى الأصل الخامس تقوم الحضارة الغربية على قبول الانحلال تحت اسم الحرية بينما تقوم الحضارة الإسلامية على الالتزام الأخلاقى ، وفى الأصل السادس تقوم الحضارة الغربية على (لا أخلاقية) العلم والحضارة بينما تقوم الحضارة الإسلامية على أخلاقية العلم والحضارة ، ويقوم الأصل السابع فى الحضارة الغربية على المادية بينما يقوم فى الحضارة الإسلامية على الارتباط بين الروح والمادة ويقوم الأصل الثامن للحضارة العربية على التطور المطلق والنسبية بينما تقوم الحضارة الإسلامية على مفهوم (الثوابت والمتغيرات)

ويقوم الأصل التاسع فى الحضارة الغربية على أن الإنسان حيوان وعلى جماعية المسئولية بينما يقوم فى الإسلام على سيادة الإنسان للكون تحت حكم الله وعلى المسئولية الفردية .

(٣)

ويصور الدكتور شكرى عياد ركائز الحضارة الإسلامية فى مجموعة من الحقائق الناصعة حيث يقرر أن الحضارة هى طريقة حياة جماعة إنسانية تتسم بخصائص معينة (حيث ان كل حضارة من الحضارات تنطوى على أسلوب معين فى مواجهة الواقع) وبالنسبة للحضارة الإسلامية فإن مكوناتها الأساسية هى :

(أولا) : الدين : فقد بدأت الحضارة مع إشراق شمس الإسلام ، فالدين الإسلامى قد طبع بصماته الواضحة على نظرة المسلمين إلى الحياة : تلك النظرة التى تعد أساس حضارتهم : المسلم يؤمن بالقضاء والقدر ، لا إيمان المسلوب الإرادة ، لأن الاسلام يدعو إلى محاولة فهم القوانين الالهية والعيش بمقتضاها ، ولأن الانسجام بين الإرادة الإلهية والإرادة البشرية هو هدف الإنسان وأوامر الله ورغبات الإنسان الحقيقية لا ينبغى أن يكون بينهم تناقض ، لأن صراع الإنسان الأكبر إنما هو ضد نفسه حتى يهيئها لتقبل كلمات الله .

× سنة الله التى لا تتخلف فى الكون تقضى بأن تكون للحياة الدنيا نهايتها (لكل أمة أجل) فالإسلام لم يدع إلى احتقار الحياة المادية بل حث على عمارتها والسعى فى إرجائها .

× التشريع فى الإسلام وثيق الصلة بالحياة والواقع،وقد أوضح الإسلام القواعد العامة وترك للفقهاء التوسع فى التفاصيل على مبدأى الاجتماع والقياس .

× نظرة الإسلام إلى الإرادة الإنسانية ، فالغربيون يفسرون الإرادة الإنسانية وفق مصدرين .

١ — أحدهما التصور التراجيدى اليونانى الذى يبرز التناقض بين الإنسان والكون ويبدو فيه الانسان دائماً فى صراع مع القدرة الالهية ويستحيل معه على الانسان أن يفهم القوانين الأبدية وبالتالى فإن هذا التصور لا ينظر إلى الانسان على أنه ضحية جهله بل ضحية استحالة فهم المقاصد الالهية .

٢ — أما التصور الآخر فهو التصور المسيحى الذى ينظر إلى الانسان على أنه ورث الخطيئة الأولى التى هى مصدر كل شر على الأرض ، ومن ثم يقدم هذا التصور أمل الخلاص بواسطة يسوع المسيح الذى يكفر عن خطيئة آدم

٣ — أما الاسلام فيرى أن الانسان مهيء للخير والشر على السواء ولا يرى أن الخطيئة تورث فالأبناء لايسألون عن ذنوب الآباء ، وهذه عظمة هذا الدين الذى يكيف الارادة الانسانية بشكل مستنير يظهر فيه الانسان حراً طليقاً لا تحاصره لعنة الالهية وسوء الأقدار ولا ينوء كاهله بحمل أوزار الآباء وخطايا الأجداد .

[ثانياً] : المجتمع ؛ فقد ألغى الاسلام رابطة الدم وأقام المجتمع على أساس التآخى بين المسلمين ، بين المهاجرين والأنصار ، بدأ عصر جديد وحلت رابطة الايمان المشترك محل الروابط القبلية وحلت الفضائل الشخصية محل التفاخر بالأحساب وحل التناصر على البر والتكافل لضمان الحياة الكريمة لكل فرد محل التناصر بالحق وبالباطل .

ثالثاً : الفن لم يعرف العرب فنا سوى (الكلمة) وهى مطابقة لنزعة العرب الطبيعية نحو التجريد ، فالشعر العربى لم يعرف الشكل الملحمى ، ولا الشكل الدرامى ، ذلك أن هيبة القرآن فى قلوب المسلمين جعلتهم يحجمون عن استلهام قصصه أو فى محاكاة أسلوبه ، مكتفين بالاشارة أو التضمين . وقد نفر المسلمون من الفنون التشكيلية خشية أن تكون ممارستها تذكيراً بعبادة الأصنام ومن ثم غلب الطابع الزخرفى على أعمال الفن التشكيلى عند العرب ولكن الفنان استطاع بما وجده فى اللغة العربية من طاقات تخيلية عظيمة أن يخلق فى الشعر لوحات ، وقد تعلموا أساليب العمارة وأنماطها من القبط والبيزنطيين والفرس وكونوا نمطهم الخاص ، الذى عاد فأثر فى الفن الأوربى وقام على الاتزان الرائع بين النافع والجميل .

رابعاً : فى مجال المعرفة ؛ فكانت لهم صياغة المنهج العلمى الاستقرائى

فقد [حولوا سير التفكير العلمى من الاتجاه التأملى الذى وضعه اليونان إلى اتجاه آخر أكثر التصاقاً بالصنائع ، (أى الأسلوب العلمى التأثير فى المادة) وكانوا أكثر اهتماما بالمشكلات العملية بينما شغل سابقوهم من اليونان بالتفكير فى أصل العالم المادى على أن النزعة الواقعية فى الحضارة الإسلامية لا تعنى انكار ماوراء الحس ، أن فكرة الغيب تقوم بدور هام فى تفكير الإنسان العربي فليس الحس هو كل شىء ، وكل هذا يعنى مقدرة الإنسان العربى والمسلم أن يستأنف فى عالم اليوم ذلك الدور الذى نهض به فى العالم القديم وتحطيم الحدود بين الحضارات والشعوب وإقامة مجتمع بنى الإنسان فى هداية الله .

(٤)

ويواجه الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده التصور الإسلامى الحضارة على نحو آخر يكشف جانباً هاما من جوانب الالتزام الحضارى الإسلامى . هو « ربانية الحضارة » يقول :

« إن كل بناء حضارى يحتاج إلى أساس من فكر أو إيمان وهى [روح الحضارة] والذى يؤمن بالفكر يحمل روح الحضارة ويشرع فى البناء أو على الأقل يهيء له الظروف والإسلام نفسه بجميع جوانبه أساس الحضارة الإسلامية والمؤمن بروحها الذى شرع فى البناء هو الأمة العربية والمنفذ هو الأمة الإسلامية ومن اندمج فيها من أهل الديانات والمذاهب الأخرى والمناسبة هو خروج الأمة العربية ومعها الإسلام واللغة العربية وخصال العروبة إلى مسرح التاريخ العالمى الكبير ولقاؤها مع الحضارات الأخرى .

ولا ريب هناك فوارق بين الديانات الثلاث رغم اشتراكها فى أمور جوهرية ومن السهل على من ينظر فى هذه الأديان أن يلاحظ انفراد الإسلام بأمور كثيرة مميزة لها مفهوم التسمية التى سمى بها والتى تسم الدين والتدين بمعناها المطلق ، والإسلام هو الإسلام لله : إسلام الذات من وجوه شتى لا بمجرد الطاعة والانقياد فحسب ، وخصوصاً بالاستجابة لأمر الله اختياراً على الصدق

والإخلاص فى ذلك وتبرئة العقل والقلب من كل شوائب الشرك ومع منتهى التعظيم والمحبة والإجلال لله ، بحيث يكون الإسلام فى الظاهر سلوكا وفى الباطن حالا وصبغة ومن طريق هذه التسمية وصل الدين والتدين إلى المفهوم والتعبير عنه معاً وإذا كان الإسلام هو الموقف الفكرى والنفسى للإنسان فهو موقف جميع المخلوقات كلها ساجدة لله وهى مسبحة بجلاله وبحمده بلسان واحد » .

ويشير الدكتور أبو ريده إلى أسس ودعامات قوية للحضارة الإسلامية .

(أولا) : ماغرسه القرآن فى روح قارئه من حب المعرفة ، وإشادة الكتاب بالعلم ورفع شأن العلماء ومن حث على النظر في هذا العالم وآياته والنفس الإنسانية وأسرارها .

(ثانياً) : ترك التقليد الموروث من غير بحث وتجنب الحكم بالظن والهوى

(ثالثاً) : الاهتمام بطلب العلم اليقين والمطالبة بالدليل والبرهان على أساس أن الإنسان مسئول عن حواسه وعقله وعما يعتقد أو يرى وترجع أصول المعرفة الاسلامية ومنهج تحصيلها على تنوع ميادين بحثها واختلافها إلى توجيهات القرآن فقد اتخذت من القرآن الكريم باعثاً وحافزاً وأدلة وسندا لوجهات النظر العلمية والفلسفية وقد لاحظ العلماء الأوربيين الفرق بين الإسلام وغيره وكيف أن العلم فى الإسلام قد انبثق من القرآن سواء من حيث المنهج (وهو منهج حسى عقلى) لأن الله يأمر باستعمال الحواس والعقل معاً ، أومن حيث موضوعات البحث على حد تعبير موريس بوكاى ولا ريب أولى الدكتور أبو ريدة أهمية كبيرة لمسألة الترابط بين الفكر والتطبيق فأشار إلى ما أورده دكتور يوسف هل فى كتابه (حضارة العرب) حيث يقول :

إنه بالنظر إلى خصوصية التاريخ الأول للإسلام فإنه يستحيل فصل تعاليمه عن جاء بها فالعلاقة بين الشخص والتعاليم وبين التعاليم والسياسة وبين السياسة والتقدم الحضارى هى فى بناء الإسلام كالعلاقة بين الحامل والحمل ، ولذلك يتحتم بيانها بعضها إلى بعض وفى علاقة بعضها ببعض .

« ٥ »

ويجدر بنا هنا أن نعرض التحدي الخطير في مجال الحديث عن العلاقة بين الحضارة الغربية والمجتمع الإسلامي المعاصر وما يردده دعاة التغريب من الدعوة إلى أخذ الحضارة مع فكرها .

تقول النظرية : ان الحضارة الحديثة حضارة أوربية غربية مسيحية في نسيج حضاري تندمج العلوم والمخترعات والتقنيات بالأفكار والقيم والأيدلوجيه ، التي مهدت لنموها وبحيث يترابط الجانبان في تزاوج عضوي لا يقبل الانفصال والتجزئة ، لذلك فإذا أرادت الأمم الشرقية أو أي أمم واقعة خارج نطاق منظومة الحضارة الغربية أن تقتبس التقنيات والمخترعات فليس لها من خيار إلا بأن تقتبس أيضاً القيم والأفكار الأوربية التي ارتبطت بتلك التقنيات تاريخيا واجتماعيا وأن كل محاولة الحصول عليها منفصلة تماماً عن إطارها الحضاري الأوربي فهي محاولة مستحيلة ومحكوم عليها بالفشل، هذا ما قاله (توينبي، طه حسين، أحد أغانيف) والنظرية باطلة من أساسها وليس من حق أحد أن يفرض على المسلمين أسلوب عيش مخالف لأسلوبهم ونحن نتساءل :

لماذا لم يفعل الغرب ذلك بالنسبة الحضارة الإسلامية ، ولما أخذ الحضارة والعلوم الإسلامية دون أن يأخذ عقيدة المسلمين وقيمهم وسلوكهم ، فبقوا أوربيين وغربيين ومسيحيين رغم دراستهم وتطبيقهم لطب ابن سينا وعقلانية ابن رشد واقتباسهم لأساليب الري والزراعة العربية الأندلسية وإقبالهم على منهج جابر بن حيان وابن الهيثم في البحث العلمي - وعلى حد تعبير الدكتور الأنصاري - كيف استطاع الغربيون هذا الاقتباس الواسع لمعارف الحضارة العربية الإسلامية وبقوا أوربيين وغربيين ومسيحيين ثم يأتون ببضاعتنا وقد ردت إلينا فيقولون لنا الحذر فالحضارة جسم لا يتجزأ (خذوها كلها أو دعوها كلها) ، ليس شيء من هذا الذي يقدمه الغرب إلا وله أصل في حضارة الإسلام وفي الحضارات السابقة ، الورق والطباعة ،الحديد والمعادن ، أبجدية الحروف .

إن الثقافات القومية والدينية هى أشياء خاصة بالأمم المختلفة المتباينة ، وهذه نطلع عليها ولا نقتبسها بل نرفضها لأن لدينا ثقافتنا الإسلامية الخاصة بنا كعرب ومسلمين ، أما الحضارة فهى إرث إنسانى مشترك أخذنا منها عند ما أسسنا حضارتنا ثم أعطينا لغيرنا عندما أثمرت هذه الحضارة واليوم نأخذ من جديد .

ويرى بعض الباحثين أن لقاء الحضارتين الأوربية والإسلامية يعد أخطر لقاء تم بين حضارتين على مدى التاريخ ، ذلك أن حضارة الغرب حضارة احلالية تهدف إلى نسخ الأنماط الحضارية القائمة وتوليتها فى الحضارة الجديدة قيما وأهدافاً وأساليب ولذلك فإن سلبيات هذا اللقاء هى التى بقيت حتى الآن .

وهذا هو الخطر التى كان على الفكر الإسلامى أن يواجهه ويحذر منه فإن المسلمين لم ولن يقعوا فى دائرة الاحتواء والانصهار أبداً وعلى مدى تاريخهم خلال أربعة عشر قرناً بل كانوا قادرين على الاحتفاظ بذاتيتهم من التحلل والانصهار والاحتواء وكانوا قادرين عن طريق قيمهم القرآنية الإسلامية على كسر الحصار وتحطيم الدائرة المغلقة .

وهذا مايواجه المسلمون اليوم من خلال تلك المؤامرات : وأهمها :

١ — انكار إسهامات المسلمين الواسعة فى مجال الحضارة والعلوم ، وإهمالها وانتقاصها وخلو كتب تاريخ العلوم الطبيعية والرياضية المعاصرة من ذكر أوليتهم وفضلهم .

٢ — محاولات تزييف الحقائق التاريخية والثقافية والتربوية ، وتقديم الإعلام الغربى الثقافة الإسلامية على أنها متخلفة وعلى أن اللغة العربية عاجزة عن مسايرة التقدم الحضارى .

٣ — الاغراء المنوع الذى يقدم للصفوة من العلماء المسلمين ليتقروا فى الغرب. انهم فى الغرب قد تعودوا أن يكتبوا التاريخ وحدهم وان يقرأ الآخرون

ومن ثم فإنهم يتجاهلون دور الأمم فى بناء الحضارة الغربية المعاصرة وينسون أن المسلمين هم شركاء أصليون فى بناء هذه الحضارة لا من خلال التراث فحسب ، ولكن من خلال جهودنا نحن أيضاً ، لقد قامت الحضارة الغربية على أساس الفكر الإسلامى ولكنها لم تلبث أن تبجحت وأعلنت أنها لا تدين له بشىء ثم قامت على دماء وأثوات الشعوب الأخرى وعلى سواعد هذه الشعوب .

وبالرغم مما أثبته بعض المنصفين من الاعتراف بهذا الفضل فإنهم يتجاهلونه ويقيمون (مؤامرة الصمت) إزائه ، يقول بروفولت فى كتابه (بناء الإسلام) ان روجر بيكون درس اللغة العربية والعلوم العربية فى مدرسة اكسفورد على خلفاء معلميه العرب فى الأندلس وإليهم ينسب المنهج التجريبى ، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلامى إلى أوربا المسيحية وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه اللغة العربية هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة .

لقد قامت الحضارة الحديثة على المنهج الإسلامى التجريبى أو منهج الاستقراء (أى تتبع الجزئيات عن طريق التجربة فيما يمكن أن يخضع للتجربة) والملاحظة فيما لا يتأتى خضوعه للتجربة وذلك بهدف الوصول إلى حكم كلى عام ، أو بهدف اكتشاف القوانين العامة الحاكمة ومجال الاستقراء هو الطبيعة وإرادة الحس ، هذا المنهج الذى ينسبونه إلى روجر بيكون أساساً هو منهج إسلامى باعتراف روجر بيكون نفسه ، وهكذا نجد أن الحضارة الغربية المعاصرة لم تتقدم من فراغ بل من القواعد الحضارية الإسلامية ، ومن هنا فإن أغلب العلوم الحديثة ومنها علم الفضاء تدين بالفضل إلى العلماء المسلمين وآية ذلك أن أسماء ثمان عشر عالم مسلم وضعت فوق القمر (أبو الفداء ، ابن فرناس ، ابن يونس ، إبراهيم الفزارى ، المروزى ، الفرغانى ، الماهانى ، أبو الحسن الصدفى ، أبو الريحان البيرونى ، القزوينى ، الخوارزمى ، جابر ابن حيان ، إبن بطوطه ، عمر الخيام) .

(٦)

ويتساءل بعض الباحثين المسلمين : هل من سبيل لمجابهة الحضارة الغربية والتحصن منها بأصول الحضارة الإسلامية . وهل هناك صيغة التوفيق بين الحضارتين والواقع أن وجه الخلاف هو أن الحضارة الغربية لا تعرف البعد الرباني للحضارة ولا البعد الأخلاقي للمجتمع وأنها تعمل في صلف عجيب عن الاستسلام لسنن الله تبارك وتعالى في الحضارات والمجتمعات وتتنكر للرابطة الأصيلة بين الانسان وبين الله تبارك وتعالى خالقاً ورازقاً وممسكا بكل مفاتيح الوجود وحركته ، ومن هنا فهي تعجز عن الاستفادة بمعطيات الاسلام التي يمكن أن تكون مصححة لمسار هذه الحضارة ، ذلك أن أول هذه العوامل هي أن تدير حركتها في إطار اسلام الوجه لله وأن تعدل وجهتها في إطار الضوابط والحدود التي رسمها الحق تبارك وتعالى للحضارات والمجتمعات ومعنى ذلك أن تتلخص من وجهتي الاباحة والالحاد والمادية والاسراف في تبديد المعطيات والخامات التي تستهلكها على هذا النحو المجنون ، وأن تجعل ثمرات الحضارة للأمم كلها ، لا لطائفة خاصة ، وأن تصرف نفسها عن الاستعلاء بالجنس والعنصر ، وأن يتحرر من الفساد والرشوة والغش والتدليس والأسلوب الميكافيلي في السياسة ، وهذا ماهو من المستحيلات في الحقيقة .

ونحن نعرف أن الحضارة الاسلامية هي ثمرة من ثمار الاسلام أساساً وأن وجهتها ربانية خالصة (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الارض ولا فسادا) . ولذلك من العسير المزج أو التوفيق بين القيم الأساسية والحضارة الغربية ، وخاصة في هذه المرحلة بعد أن خضعت تماماً للفلسفة المادية والتحلل والاباحة وأخذت تفرز حياة الترف واللهو والانغماس في الفساد وهو علامة تأذن نجمها بالأفول .

ومن ناحية أخرى فإنه من العسير على المسلمين قبول هذه الحضارة واعتناقها وهي تختلف اختلافاً جذريا عميقاً عن أصول حضارتهم .

لقد أخذ الغرب علوم الاسلام ومفاهيمه عن الكون والانسان والحياة ولكنهم صهروا هذه المفاهيم فى بوتقتهم (اليونانية الرومانية المسيحية) ولم يقبلوا مفهومها القائم على التوحيد، أو الاخاء البشرى، أو الرحمة، أو العدل، ولكنهم صاغوا هذه العلوم صياغة أخرى قائمة على الاستعلاء بالجنس الابيض صانع الحضارة وحولوا مفاهيم العبودية الرومانية إلى عبودية لكل الاجناس الملونة.

ومن ثم عزلوا أنفسهم عن أخلاقية المجتمع أو ربانية الحضارة، فاختلطت القيم من ناحية فى نفس الوقت الذى فصلوا فيه بين العلم والتطبيق وبين المنهج الحسى التجريبى (بيكون) والمنهج العقلى (ديكارت) ومن ثم انشطر الفكر الغربى ووقع فى ذلك الخطر الشديد البعيد الأثر فى حياة الغرب ومجتمعه وحضارته جميعاً وهى الفصل بين المنهج والتطبيق واتجهت الحضارة الغربية فى إتجاه جانب واحد منفصل عن الجوانب الاخرى، بينما عرف الإسلام الوحدة الجامعة الكلية الجامعة بين الفرد والمجتمع والروح والعقل والدين والعلم والدنيا والآخرة.

ومن هنا يبدو فشل اطروحة الدعوة إلى التوفيق بين الحضارتين الإسلامية والغربية، خاصة فى هذه المرحلة التى يواجه المسلمون فيها تحديات الاحتواء والتسلط عليها من النفوذ الغربى المسيطر ماديا، فإذا قبلت فكرة التوفيق كانت بمثابة احتواء الحضارة الغربية (الانشطاريه) الحضارة الإسلامية (الجامعة) فكيف يمكن أن يحتوى الجزء الكل، فضلا عن أن المسلمين قد يضحون فكل شيء، حتى بوجودهم نفسه، فى سبيل الحفاظ على ذاتيتهم الربانية الخالصة، التى رسمها لهم القرآن ومن ثم فإن المسلمون لا يستطيعون قبول أى بديل عن أسلوب العيش الإسلامى، وإنما هم يقبلون معطيات العلم الحديث بوصفها مواد خام يصهرونها فى بوتقتهم ويشكلونها فى إطار مفهومهم الحضارى الربانى وهم بذلك لن يقبلوا الاندماج فى الحضارة أو فى معطيات العلم، أو التكنولوجيا على النحو الذى يزينه لهم شياطين الغرب ومعهم الغربيون الصغار صبيان الاستشراق.

(٧)

ويتناول هذا الموضوع الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى فيقول :

ان أصولنا الثقافية التى كانت دعامة حضارتنا الإسلامية العظمى ملقاة فى ذيوف الاهتمام ، ونحن نعكف اليوم على أصول ثقافية أخرى اقتطفناها كما هى عن الغرب بما تحمله من تصورات وتسويغات للنزعة المادية التى تؤله الطبيعة ، ففنون التربية وعلوم النفس والاجتماع والأخلاق التى تدرس فى مدارسنا وجامعاتنا ليست إلا مجموعة نظريات ومواصفات وضعت تعبيراً عن النظرة الغربية إلى الوجود ودعما لأصول الفلسفة الاجتماعية التى ارتضاها الغرب لنفسه ، وهى تناقض وتتعارض بشكل حاد مع مبادئنا ومسلماتنا الاسلامية الراسخة والتى كانت بالأمس القريب مصدر تفوقنا وسياج حضارتنا .

وفى الوقت الذى تكون علوم التربية والاجتماع فى كل المجتمعات تعبير عن أصولها الفكرية وفلسفتها الحضارة ، ندرس نحن علم الاجتماع أو التربية أو الأخلاق من وجهة نظر الغرب أو الماركسية دون أن نعرض وجهة نظر الإسلام ، لقد محص أجدادنا تراث الحضارة اليونانية والرومانية تمحيصاً ثم حولوا ما وجدوه صالحاً إلى مواد خام ، أما نحن فقد استسلمنا لأمواج الثقافة الغربية ، وإذا كنا بهذه الحال من التبعية فكيف يمكن التنسيق بين الحضارتين الإسلامية والغربية ، وما هى حاجة استنهاض الفقهاء والمجتهدين إلى فتح الأقبية الاجتهادية من الإسلام ومظاهر الحياة العصرية الوافدة من الغرب انا نقع اليوم فى منطقة جاذبية الحضارة الغربية تشهد بذلك مرافقنا ومؤسساتنا الإعلامية القائمة على الانجذاب إلى فلك تلك الحضارة وبريقها ويرجع ذلك إلى ضعف الإرادة الإسلامية عن حرية الاختيار وإطراح مايتدين علينا تركه . ان التحرر النفسى الكامل عن بيئة الحضارة الغربية : أصولها وفروعها ، هو الشرط الأساسى للنظر فيما يمكن أخذه من نتاج هذه الحضارة وثمارها وهذا الشرط لم يتحقق بعد .

ان فكرة التوفيق بين الحضارتين وحالنا على ما هو عليه اليوم تمثل أسلوباً من التلاعب كيف يمكن الالتقاء بين حضارتين فى حين أن إحداهما مستذلة لنفوذ الأخرى .

(أولا) : أن الانفتاح الكلى والجزئى على ثمار الحضارة الغربية ونتاجها لا يمكن أن يعنى سهماً فى طريق أى نهضة ، أو أن عالمنا العربى والإسلامى قد أصبح شريكا فى بناء الحضارة العالمية للانسان ، وإنما يعنى أننا أصبحنا تابعين لهذه الحضارة وسوق استهلاكية لها وأننا حطب يزجج بإضرامها ابتغاء المزيد من إضاءة نارها ، ان هدف الاستعمار هو أن يجعل من هذه البقعة وأهلها سوقاً استهلاكية لإنتاجها الحضارى ، بعد بترها عن جذورها الحضارية والاعتقادية الأصيلة .

(ثانياً) : القول بالتلاقى بين الحضارات والاخصاب المتبادل ، إنما ينطبق على حضارات صغرى تنتمى جميعها إلى عائلة حضارية واحدة لا على عائلتين حضاريتين تمتاز كل منهما بمنطلقات وأسس نوعية مختلفة فى الجوهر عن المنطلقات والأسس الأخرى .

ان التلاقح او التواصل الذى قد يستشهد به بين الحضارتين الإغريقية والرومانية والحضارتين الجرمانية والانكلوسكسونية إنما جرى ضمن دائرة (عائلة حضارية واحدة) هى الحضارة الاوربية .

وهذا لا يمكن أن ينطبق على العلاقة القائمة بين الحضارة الاوربية بمختلف فروعها من جهة والحضارة الإسلامية من جهة أخرى ان التواصل بين الحضارات ذات الأصل الواحد يؤدى إلى القوة ، أما فى علاقة الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية فإنه إذا استمر لا يمكن أن ينتهى إلا بابتلاع إحدى الحضارتين للأخرى ، وذلك لاختلاف الأصول التى لابد أن تتصادم حينئذ ، ثم لابد أن ينتهى التصادم بتغلب أحد الطرفين ، ان الحضارة الغربية ليست مخالفة لتاريخنا ووجودنا الحضارى فقط بل هى متجهة إلى معاداتنا وإذلالنا كنا حضارياً

(ثالثا) : الدعوة إلى الجمع : (بين الأصالة والحداثة) لا تحمل أى مضمون فكرى سليم من وراء بريق الكلمتين ومظهر التمايش الوهمى بينهما ذلك لأن الحداثة ، لا تكون إلا فرعاً عن أصالة ، والأصالة لا تكون إلامصدراً وأساساً لها فالعلاقة بينهما كعلاقة الجذع الثابت بالأغصان المتجددة ، وهذا يعنى أن الأمة يجب عليها أن تعنى عناية مباشرة بترسيخ أصالتها التى بنت أصولها الحضارية المتمثلة أولا وبالذات فى القرار الاعتقادى الذى يجب أن تتخذه تجاه الإنسان والكون والحياة ، ثم عليها بعد ذلك أن تنزع لجذع أصالتها ، هذه فرصة اختيار الفروع والثمار المستحدثة ، أى أن المطلوب فى قانون العمل الحضارى أن نعكف باهتمام وجد على تحقيق أصالتنا ، أما الدعوة إلى أن نحافظ على أصالتنا وأن نستجلب باليد الأخرى مستحدثات الحضارات الأخرى فهى عابث ومضحك .

(رابعاً) : اننا أحرار فى أن نضع لأنفسنا أى فلسفة أو طريقة نختارها لفهم حقيقة الكون والإنسان والحياة ثم فى أن نبنى عليها نمط الحياة التى نريد ، ان المعنى الوحيد لإسلامنا هو أننا مستسلمون ومذعنون لواقع عبوديتنا لله عز وجل ومن ثم فلابد أن نكون مستسلمين لسلطان ربوبيته علينا ، فالاقتراح المطروح بصدد التوفيق الحضارى أو الأصالة والحداثة ينبغى ان يكون خاضعاً لجوهر الإسلام الذى نذعن له وتدين به سواعد هذه الأمة ، بقطع النظر عن التيار الحضارى الوافد الذى يتجاهل واقعها ويناقض اتجاهها ، .

(٨)

وهناك تساؤلات تردد عن حضارة الغرب نفسها وهل هى قادرة على مواصلة العطاء ، والواقع أن الحضارة الغربية تعارض الفطرة أساسا وتعارض العلم وتؤله الطبيعة ولا تعترف بالله تبارك وتعالى ولا تذعن لمشيئته ولاتستسلم له ، وينقصها البعد الروحى والبعد الأخلاقى ومن هنا فهى غير مؤهلة للبقاء والاستمرار وهى تحمل علامات فنائها فى أعماقها وشأنها فى ذلك شأن

الحضارات التي عقت عن أمر ربها فانهارت وتحطمت ، وأقرب الأمثلة لذلك الحضارة الرومانية .

أولا : لقد أسرفت الحضارة الغربية في تطويع التكنولوجيا لخدمة الإنسان الغربي ولكنها أفلست في القيم الإنسانية والأخلاقية ووصلت القمة في مجالاتها المادية وتبديد ثروات العالم وتجويع شعوب العالم الإسلامي وإنتاج أسلحة الفتك والدمار التي تقتل الإنسان في شتى بقاع العالم ، حتى قيل إن عناصر هلاك البشرية تتسارع بالمعدل نفسه الذي تتطور به الحضارة الغربية ، وتهدد بحرب عالمية ثالثة ، فضلا عما يؤدي إليه ذلك من نقص للمواد الأولية وحرص الأقطار التي تمتلكها أن تفرض إثمان بيعها أو استغلالها ، وبدون المواد الأولية لا يمكن تنمية الصناعة وتحريكها .

ثانياً : التحلل الأخلاقي الذي بلغ مبلغه في الأسرة ، وتفاقم بسرعة تهددها بالذوبان مثل غرار ما حدث في عهد الرومان ، مما أدى إلى تناقص المواليد لدى عدد كبير من دول الغرب ، كذلك فإن الأسرة تقوم في حالات كثيرة على ارتباط غير شرعي ففي كل قطر من أقطار الغرب يولد كل سنة آلاف من المواليد الذين تتبناهم مؤسسات اجتماعية فيحرمون من حنان الوالدين وتنشأ معهم عقد الحرمان والكراهية .

ومن معاني التحلل الخلقي طغيان الأنانية ، الفردية ، وتقوم المخدرات بدور كبير في إفساد الشباب صحيا وعقليا وهو رد فعل لا شعوري ضد الفراغ النفسي والروحي الذي يعاني منه الشباب الغربي ، مما يؤدي إلى اتجاه الشباب إلى العنف وإلى التأطر في عصابات تحطم وتقتل وتغتصب وتهاجم العمال المهاجرين .

(ابراهيم حركات)

وقد كان من أخطار مظاهر التحلل ظهور ميكروب العفة فى السنوات الأخيرة المسمى (هيرپز) وهو ميكروب بلا علاج يقتل الصحة فى أقل من ستة اشهر اى انه أسرع من السرطان ، ظهر هذا الميكروب بين البغايا ، ويأتى نتيجة الشذوذ فى العلاقات الجنسية ، وقد أنفقت المؤسسات التى تستفيد من وجود الدعارة الملايين البحث عن علاج لميكروب العفة ولكن دون جدوى .

والمعروف أن دروب الهوى انتشرت فى بعض دول العالم حتى أصبح الفساد الخلقى بل والإلحاد ظاهرة متفشية ، وأصبح الدعارة والشذاذ فى هذه الدول قوانين تحميها مستمدة من التلمود ولم يعد أحد يستطيع أن يكبح جماح الفساد المستشرى حتى جاء هذا الوباء .

الباب السابع

صياغة إسلامية للعلوم



« ١ »

ان العودة إلى المنابع فى مجال العلوم التجريبية والعلوم الاجتماعية تتطلب صياغة جديدة إسلامية لهذه العلوم فى أفق الفكر الإسلامى ، على شروط واضحة ومستوى صريح يؤكد الأسس التى أقامها الإسلام لهذه العلوم أساساً ، ويعيدها مرة أخرى لتنصهر فى بوتقة الإسلام فلا يمكن أن تقبل مدلولاتها ولا إيحاءاتها الغربية .

نعم ان العلوم التجريبية هى نتاج الأنابيق والمعامل ولكنها تلونت فى الغرب بلون الليبرالية الغربية تارة وبلون الاشتراكية الماركسية تارة أخرى ، أما العلوم الاجتماعية فقد نشأت أساسا فى بيئة النظرية المادية ومفاهيم الخطيئة المسيحية وعقائد الإلحاد والإباحة اليونانية والرومانية كل هذا يستدعى أن لا يأخذ المسلمون هذه العلوم على وضعها الغربى وأن يعيدوا النظر فيها فالحقائق العلمية والمعارف العامة فى أساسها ملك للبشرية كلها وكان للمسلمين دور فى بناء جذورها وصناعة أصولها أما الثقافات والعلوم الإنسانية فإنها لا تخضع لسيطرة الأيدلوجيات ولا يقبلها المسلمون على صورتها التى يعرفها الغرب الآن ، وما يدرس الآن فى مدارسنا وجامعاتنا من هذا هو « انحراف » لا شك فيه فى حاجة إلى إعادة النظر وتصحيح الخطوات .

يقول الدكتور زغلول النجار : إن التصور الإسلامى لقضية العلم ، تختلف عن التصور الغربى الأوربى ، حيث تلقى العالم اليوم من خلال فلسفته ، لقد حول العالم الإسلامى تراث البشرية من المعارف فى الحضارات السابقة والمعاصرة لبعثة محمد : حضارة الفرس والروم والهند والصين ومصر القديمة ، جمع كل ذلك وصفاه ، بمنطق النظرة الإسلامية الصحيحة وأضاف إليه إضافات أصيلة وحين أخذته عنه أوربا بعد ذلك عن طريق المدارس الإسلامية فى الأندلس وجنوبى أوربا بصفة عامة (صقلية وجنوبى إيطاليا) ظهر الفارق واضحاً ،

فالمسلمون لم يجدوا فى تعاليم الاسلام وأصوله ما يمكن أن يقف حائلا دون نشاطهم العلمى بل وجدوا فى القرآن وأحاديث الرسول ﷺ ما يدفعهم إلى ذلك دفعاً بينما كان الموقف مختلفاً تماما فى عصر النهضة عند ما بدأت أوربا تأخذ بالأسباب انطلاقاً من القاعدة التى علمتها لهم الأمة الاسلامية ومدارسها فى شمالى أفريقيا وجنوبى أوربا .

فكانت المفاصلة بين رجال العلم والكنيسة لأن الكنيسة كانت تتبنى أفكاراً ونظريات علمية خاطئة انطلاقاً من كتاب الأصول أو الخلق بالعهد القديم فكانوا يعتقدون أنها حق إلهى مطلق لا يحق الخروج عليه ، وعند مابدأت الاكتشافات العلمية تتعارض مع ما جاء فى سفر التكوين قامت حملات الاضطهاد فى وجه رجال العلم فلم يكن للعلم أن ينهض بغير مفاصلة بينه وبين الدين .

ولما انفصل العلم عن الدين فى الغرب ، أخذ يكتب العلوم من منطلق إلحادى صرف أو لادينى من خلال الصورة التى انتهى إليها ، ثم نقل ذلك إلى العالم الاسلامى : الأمر الذى أدى إلى موقف خطير ، فالمسلمون عند مابدأوا يقرأون هذه الكتابات العلمية ورأوا فيها إلحاداً نفروا منها ومن ذلك الأزهر حيث كان فى الأزهر جغرافيون متميزون ورياضيون وفلكيون متميزون ثم تقوقع الأزهر على الدراسات العربية والاسلامية فقط لأنه وجد أن سبيل المعرفة الذى يأتى إلى العالم الاسلامى إلحادى صرف تواجهه بالانغلاق وكانت النتيجة اما صد ذلك التيار الالحادى صداً كاملا بإهماله وتركه أو بمجاراته وقبوله ظناً أن هذه هى وسيلة الأخذ بالأسباب . يقول (وهكذا فإن اعتناق المسلمين لمناهج العلوم الغربية الوافدة من شأنه أن يخلق التبعية والتخلف وتنشىء الأجيال على فهم غير صحيح .

ولذلك ارتفعت الصيحة (بالعودة إلى المنابع) بإعادة كتابة العلوم الاسلامية وقد قدم الدكتور زغلول النجار فى هذا رؤيا كاملة واسعة ، يجب

ان تكون بين أيدينا فى هذا المجال ذلك أن المسلمين حينما تربوا على الإسلام ادركوا أن قضية الاهتمام بالناحية العلمية هى قضية تعبدية بالدرجة الأولى وليست مجرد الحصول على شيء من القوة أو المادية أو التسلط فى هذه الدنيا ، فحين يتعرف المسلم على بديع صنع الله تبارك وتعالى فى هذا الكون فهو يتعرف على خالقه ، لقد أحصيت عدد الآيات القرآنية التى تحض الإنسان على النظرة فى الكون فوجدتها (٧٥٠ آية) إلى جانب القضية لابد منها القيام بأعباء الاستخلاف الإنسانى وتسخير الكون كما أراد الله والجيل الأول من المسلمين (وهو الجيل القدوة) لم يفرق بين العلم التجريبى وبين العلوم الشرعية من الفقه والتفسير فكان المسلم فلكيا ومفسراً وطبيباً وفقيها؛ إن أهم مايشكو منه العلماء الآن هو قضية التفتيت فى المعارف والتخصص الدقيق جعل الناس ينحصرون فى دوائر ضيقة جعلت نظرتهم للحياة نظرة جزئية جدا ، نظرة غير إنسانية لأنها غير متكاملة ، ان النظرة المتكاملة هى التى يستطيع الإنسان من خلالها التعرف على قوانين الله تبارك وتعالى فى الكون والقيام بواجبات الخلافة فى الأرض على أحسن وجه فكلما تعرف على قوانين أكثر كلما كانت قضية عمران الحياة على الأرض أيسر .

ولا يمكن أن تتحقق وظيفة الإنسان الشرعية على الأرض مالم يحصل على العلم التقنى ، ذلك أن المجتمع الإسلامى يحتوى على كل التخصصات ، حيث أن العلوم الشرعية وهى ما يجب أن يفهم من الدين بالضرورة هى فرض عين على كل مسلم ، أما فيما وراء ذلك من التخصصات فيبقى فرض كفاية .

مايتميز به التصور الإسلامى للعلم عن التصور الغربى .

(أولا) : الجمع بين العلم والدين ، وقد استطاع الإسلاميون أن يقدموا الدليل ليحطموا الأسطورة التى عششت فى عقول كثير من فى العالم الإسلامى من ضرورة الفصل بين العلم والدين لتحصيل التقدم بأن قدموا نماذج من أعلى درجات من التخصص العلمى والتفوق ، وفى نفس الوقت تمثل أعلى مراتب التصور والفهم الإسلامي والثقافة الاسلامية .

(ثانيا) : الالتزام الأخلاقى : فالمشكلة ليست فى العلم فقط ولكن فى خلق العلم وهدفه المفقود فى الفلسفة الغربية وليست فى المعرفة بقدر ماهى فى اخلاق المعرفة ، ذلك أن نظام التعليم الغربى بالرغم من تفوقه الملحوظ فى بناء قواعد تعليمية وتقنيه جديدة وفى بناء متخصصين فى القضايا المتخلفة على مستوى جيد وفى توفير المكتبات والمجلدات إلا أنه ينهار من ناحية بناء الإنسان .

وقد توصل (مؤتمر استوكهولم سنة ١٩٨١) المنعقد تحت عنوان العلم والتقنية فى الحضارة الغربية وفى الإسلام إلى قرار : هو أن التقدم العلمى والتقنى الحالى يهدد البشرية بمصير لا يعلم مداه إلا الله سبحانه وتعالى لحجم المخزون من الأسلحة النووية والكيمائية والجرثومية لدى الطرفين المتنازعين (روسيا وأمريكا) أكبر مما يحتاجه تدمير الحضارة المعاصرة عدة مرات ، والناس حيال ذلك فى الغرب يقفون موقفين ، أما التسليم بالأمر الواقع حيث يقولون هذا قدر البشرية وعليها أن تسير فيه إلى النهاية ، أو موقف الرفض التام على أساس أن هذا بلاء جاء نتيجة التقدم العلمى وعلينا أن ننبذه وراء ظهورنا ونعود مرة أخرى إلى حياة الطبيعة .

ولعل أحد الأسباب الرئيسية لتخلف جامعاتنا فى العالم الإسلامى على كثرتها ووفرة إمكانياتها أنها لا تنطلق من منطلق إسلامى وليس لديها التزام أخلاقى ، فهى جامعات أسست على نظم غريبه وفكر غربى أو جامعات غربية فى أرض إسلامية وهذا بدوره أدى إلى نوع من الازدواجيه عند الطالب لثقافته الإسلامية المحدودة .

ثالثاً : رؤية الإسلام « الوسطية » جعلت الإسلام قادر على أن يقدم الحل لأنه منهج وسط لا يميل إلى أى جانب من الجوانب المتطرفة وأنه النظام الروحى الوحيد الذى يستطيع إيقاظ ضمير الإنسان ويجعل من نفسه على نفسه رقيبا . هذه النظرة القائمة على عمارة الأرض .

وهكذا نجدنا واقعون في المشكلة بسبب التخلف عن (الوظيفة الإسلامية)

لعمارة الأرض وبسبب التخلف عن الثقافة الإسلامية وأبعادها الحقيقية ، والانفصال العلمى الذى يمارسه المسلم بين الدين والحياة .

لذلك فإنه لابد من بناء مدارسنا العلمية بأيدينا ، لا يمكن للأجنبي أن يبنى قاعدة علمية فى بلد مسلم البناء ، كذلك فإن قضية الابتعاث للخارج قضية تهدم مبدأ التقدم العلمى والتفنى من أساسه . لأن أى شاب بغض النظر عن تعرضه لعملية غزو فكرى رهيبة فأما يتعرض لتصيد من الكنيسة ومن اليهودية وعملائها والحركات الاستخبارية ، هذه كلها عوامل نفسية تحول دون النمو العلمى والتفنى الشباب ، هذا بالإضافة إلى أنه أصبح اليوم لدى كثير من الجامعات الغربية اعتقاداً أن المسلم ليس ضروريا أن يتعلم جيداً و يمكن أن يعطى الشهادة التى يحتاجها ولكن حين أقوم ببناء قاعدة علمية فى بلدى فالشباب هو الذى يصمم الجهاز الذى يريد أن يعمل عليه والقاعدة العلمية كالشجرة تحتاج أن تمد جذورها إلى الأعماق حتى تؤتى ثمارها .

هناك أمران لابد منهما :

(الأول) : أن يتربى المسلم منذ الصغر على فهم دقيق العقيدة الإسلامية بمعنى أن عمره فى هذه الدنيا محدود وقد حدده الله تبارك وتعالى ولا تستطيع قوة على وجه الأرض أن تزيد عمره لحظة أو تنقص منه لحظة ، وأن رزقه مقدر سلفا ولا تستطيع قوة على الأرض أن تزيده أو تنقصه درهماً واحداً ، هذه المعانى توفر للجيل المسلم حصانة نفسية تحول دون السقوط أمام الاستبداد السياسى

(الثانى) : فهم المسلم لطبيعة مهمته فى الحياة (عبادة الله والاستخلاف فى الأرض) مهمة وأساسية ، لأن كلا الجانبين من مهمته مكمل للآخر ، ان فهم رسالة الإنسان فى هذا النطاق تحقيق مفهوم الاسلام فى التعبد لله سبحانه وتعالى والسعى وراء الرزق فى نطاق الايمان بالله والسعى فى كسب العلم فى إطار من الايمان كالعبادة ، ذلك أن من أخطر الأخطار أن يعرف الشباب المسلم عن التعلم والاستمرار فى الجامعات والحصول على الدرجات العلمية ويدع هذه المعابر الخطيرة ذات الأثر الكبير فى المجتمع ويعزف عن القضية العلمية ظنا منه

أنها ليست من الدين علماً بأنه إذا لم يستطع المسلمون اعتلاء المنابر المتقدمة في كل عصر وتطوير وسائلهم بمنطق العصر فستستمر الاصابة بالتخلف ويعزلون أنفسهم عن المجتمع ، وهناك قضية هامة : ان بعض الناس في عالمنا الاسلامي يعتقد أنه من المستحيل على المسلمين اللحاق بالركب العلمي والتقني الذي وصلت إليه أوروبا وأمريكا والأولى بهم أن ينصرفوا إلى آفاق أخرى لأن عملية الاختصار لفترة التخلف أصبحت بعيدة المنال ، ومعنى هذا أن المسلمين سيبقون يعيشون على العطاء الغربي .

والواقع أن العلم والتقنية من القضايا المنطقية بمعنى أنها ليست طلاسم وليست ألغازاً بحيث لا يستطيع العقل الاسلامي أن يستوعبها ، وأن يفهمها ، بل يمكن الذي يبدأ الآن معالجتها بموضوعية أن يصل فيها إلى أقصى ماوصلت إليه المجتمعات الأخرى لأنه سيأخذ آخر ماوصلوا إليه وينطلق به ، ولذلك فإن محاولة ردم هذه الفجوة ليست مستحيلة على الاطلاق بشرط أن نأخذ بالأسباب ونبدأ في بناء معاهدنا العلمية ومراكزنا التقنية بشيء من الجدية ، فإذا أخذنا بالأسباب فمن المؤكد خلال سنوات معدودة أو في مدة زمنية قصيرة أن نحرز هذه الفجوة بإذن الله علماً بأن مقدمات ذلك متوافرة حيث توجد لنا في جامعات العلم كوادر إسلامية على أعلى مستويات العلم والتقنية .

اما في مجال العلوم الاجتماعية فإن صيحة العودة إلى المنابع تطالبنا بنظرة واسعة عميقة ، ذلك أن هذه العلوم (علم الاجتماع ، علم الانسان ، العلوم السياسية ، علم الاقتصاد ، التاريخ ، الجغرافيا ، علم النفس) في حاجة إلى صياغة إسلامية فإن خطأ العلماء الاجتماعيون أنهم أخضعوا علومهم لمفهوم التجريب وقوانين العلم المادية ومن ثم جاءت أبحاثهم ناقصة وجاءت استنتاجاتهم غير مكتملة ومن ثم فهي غير ذات جدوى بالنسبة لطالب العلم المسلم

يقول الدكتور إسماعيل الفاروقي :

لابد من إضفاء الصفة الإسلامية على العلوم الاجتماعية سواء كانت تتصل

بالفرد أو تتصل بالجماعة ، بالإنسان أو الطبيعة ، بالدين أو العلم ، وأن كميته تنظم نفسها تحت لواء مبدأ التوحيد (الله الخالق مسبب الأسباب وهدف وغاية كل شيء في الوجود) وأن توجه المعرفة للالتزام بأمره ، والالتزام بالنمط الإلهي الذي أوحى به حتى تجلب السعادة والهناء للبشر ، ولا ريب أن إضفاء الصفة الإسلامية على العلوم الاجتماعية يجب أن يعمل على إظهار علاقة الحقيقة مع النمط الإلهي المتصلة به ، فالنمط الإلهي يعد المعيار الذي يجب أن تعمل الحقيقة على إحلاله فإن تحليل الأمر الواقع لا يجب أبداً أن يغفل ما يجب أن تكون عليه الأشياء .

ان الإسلام يؤكد أن وصايا الله أو الأمر الاخلاقي يعد بالضرورة خاصا بالمجتمع ، انه بالضرورة يتصل بالنظام الاجتماعي في الأمة ولا يمكن أن يسرد إلا بها ، وقد تجاوز الاسلام لحدود الفضيلة المسيحية في حين أن المسيحية عرفت الخلاص في إطار النية أي الشعور الشخصي في لحظة معينة فإن الإسلام قد عرفه عن طريق العمل (الحياة العامة في إطار الزمان والمكان) .

وقد صاغ الإسلام الايمان بالأخرويات من أجل تدعيم ذلك الصرح التاريخي من الأفكار والقيم والقوانين والمؤسسات ، فالقيم الدينية والأخلاقية ليست قيما فردية ولكن في إطار الأمة ، وقد فصل المجتمع الغربي بين العلوم والقيم الجوهرية ، تحت اسم مبدأ الواقعية مما أدى إلى التدهور الأخلاقي الحتمي للمجتمع » .

ونحن نرى أن الفصل بين القيم ، والفصل بين النظرية والتطبيق ،

والفصل بين العلوم الأخلاقية والفصل بين العلوم وبين الالتزام الفردي وظهور نظرية العقل الجمعي أو مسئولية المجتمع ، كل هذا كان مناقضاً للمسئولية الفردية وللالتزام الأخلاقي الذي جاء به الدين الحق ، والذين قاموا بهذا الفصل وعمقوه هم التلموديون من أمثال دوركايم وجماعته .

ويقول إسماعيل الفاروقي : ان العلوم التاريخية الانسانية يجب أن تؤ...
بخلافة الله للإنسان على الأرض ، فالدراسة الاسلامية ترفض الاعتراف بالفصل

العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية ، بل إنها تتطلب إعادة تصنيف فروع الدراسة وتقسيمها إلى العلوم الطبيعية التى تتناول الطبيعة .

والعلوم الخاصة بالأمة ، التى تتناول الانسان والمجتمع .

فالعلوم الطبيعية تعمل على استكشاف النمط الالهى فى نطاق الاشياء المادية والمعرفة الانسانية تعمل استكشاف النمط الالهى فى الشئون الانسانية .

وهو مايعنى تحقيق إرادة الله فى المجتمع وأخلاقية العمل الانسانى ومن هنا فإن إضفاء الصفة الاسلامية على العلوم الاجتماعية ضرورة حتمية للعلوم فى هذه المرحلة من تاريخ الأسلام .

(٢)

من المصطلحات القرآنية التى تحدد علاقة الانسان بالكون (التفكير) الذى يؤدى إلى الاكتشاف (والتسخير) الذى يعنى سيادة الانسان على الكون ، وبعد مائة عام من نزول الآيات القرآنية التى تحث على التفكير والتسخير استوعب المسلمون علوم ذلك الزمن وأضافوا إليها ، وظلوا سادة العلم مدة ستمائة عام ، سطعت فيها أسماء الرازى وابن حيان والخوارزمى والبيرونى وابن النفيس وغيرهم ، ولم يظهر اسم أوربى واحد فى مجال العلوم إلا بعد عام ألف ومائة (١١٠٠ م) ولكن علماء المسلمين استمروا فى عطائهم مدة ٢٥٠ سنة بعد ذلك إلى أن توقف العطاء .

لماذا بحث علماء المسلمين وطوروا تلك العلوم فى القرون ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ الميلاد بتلك السرعة ، هناك ثلاث أجوبة محكمة :

× قد يقول قائل : ان السبب وراء ذلك هو أوامر القرآن الكريم بالبحث والتفكير .

السبب الثانى متصل بالأول هو متعلق بمكانة العلماء ورجال المعرفة فى الاسلام

× [هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون] .

× اعتراف الاسلام بالطابع العلمى للعلم فهو لم يحجز على أتباعه تلقى العلم من أى مكان كان فالحكمة ضالة المؤمن .

والمجتمع الانسانى نفسه مجتمع إنسانى لا يعطى اعتباراً للون أو العنصر أو الاقليم الجغرافى ، وأول مجتمع إسلامى فى عهد الرسول جسد هذا المفهوم ثم بدأ العطاء العلمى فى المجتمع الاسلامى بالتراجع بعد عام ١١٠٠ م

وتوقف نهائيا عام ١٣٥٠ م لماذا ، لا أحد يعرف بالتحديد .

هناك عوامل خارجة تمثلت فى غزو المغول وتدمير بغداد . ولكن العوامل الداخلية هى الأهم ، وتتمثل فى لجوء المسلمين إلى التقليد بدلا من التفكير وكذلك فى انعزالهم عما كان يجرى فى العالم وخاصة فى أوربا .

وعندما بدأ المسلمون يحسون خطر التفوق التقنى الأوربى فى القرن ١٨ حاولوا الحصول على المنتجات التكنولوجية وخاصة العسكرية فيها ، وهذا الاتجاه لا يزال سائداً حتى الآن : « اتجاه الحصول مع « المنتجات » قبل استيعاب المفاهيم العلمية التى قامت عليها ، وهذا يدل على جهل العلاقة الرئيسية بين العلم والتكنولوجيا ، علينا أن نعترف أولا بأنه ليس هناك طرق قصيرة للتكنولوجيا فأولا يجب أن تصبح العلوم الأساسية جزءاً من ثقافتنا ، هذا هو الطريق للسيطرة على العلوم الطبيعية ، وعلى التكنولوجيا وعلى الذين يدعون

إلى (نقل التكنولوجيا) أن يدعو أولا إلى (نقل العلوم البحتة) .

فا الطريق إلى استعادة أمجاد ماضينا العلمى ، إنه التدريب العلمى القاسى لنصف طاقتنا البشرية العاملة ، والسعى لاكتساب العلوم الأساسية والتطبيقية ، وتخصيص مالا يقل عن ١ — ٢ ٪ من الدخل القومى للبحث والتطوير العلمى ويجنب ربع هذه النسبة للعلوم البحتة ، فما هو بحث الآن تطبيقى غدا (النسبة المذكورة تعادل ٤/٨ مليون دولار ، والأهم من ذلك توفير الرعاية والأمن للعلماء والباحثين ، فلا إبداع بدون أمن واحترام وحصانة وحبذا لو يؤسس

اتحاد العلماء والمسلمين على هيئة كومنولث علمي إسلامي بحيث يتمتع العالم المسلم بحرية التنقل والاقامة في والبحث في أي بلد أو معهد علمي ، كما كان مطبقاً أيام ابن الهيثم وابن سينا وغيرهما ، دون أن يكون للاتجاهات السياسية أثر على ذلك وهذا يحتاج إلى تعاون العلماء والحكومات ، ان الأسلوب الحالي في نقل التكنولوجيا للبلاد الإسلامية غير مثمر ، لقد أنفق العالم العربي (٤٠٠ مليون دولار) حتى عام ١٩٧٨، على عقود تكنولوجية بطريقة تسليم المفتاح وهذا الأسلوب لا يفيد علماءنا ولا مهندسينا بشيء ، وهذا ما يجعلنا مستهلكين لا مبدعين التكنولوجيا (. . .) .

« ٣ »

ان محاولة احتوائنا في دائرة التكنولوجيا الغربية من المحاولات الخطيرة التي يجب الكشف عن أخطارها وأخطائها ، ذلك لأنها افقدتنا روح الأصالة المنهجية الإسلامية وجعلتنا منحازين وتابعين للطريقة والوجهة التي تقوم عليها الحضارة الغربية ، ومما يثار في هذا الصدد لخداعنا قولهم ان العلم محايد والحقيقة أن العلم الغربي الشائع اليوم في العالم كله هو علم منحاز ، أولا: لأنه يستمد وجهته من وجهة الأيدلوجيات : رأسمالية كانت أم شيوعية أم اشتراكية ، وثانياً لأنه يخضع الأمم التي لم تشترك في الحضارة التبعية .

فالعلوم التجريبية منحازة بوجهتها ، وكذلك العلوم الاجتماعية وعلم النفس (صناعة اليهود) هي علوم منحازة ، فإن كلا العلمين يحترم الأيدلوجية ، ويرى الماركسيون يهاجمون العلوم الاجتماعية وعلم النفس الرأسمالي والعكس يحدث أيضاً .

فقد تبين أن كلا المنهجين لا يقوم على عمل مستقل بل هو في خدمة هدف وكذلك منهج العلوم التجريبية نفسه فهو في الدول الرأسمالية يخدم هدفها ، وفي الدول الشيوعية يخدم هدفها ، فالعلم أيضاً منحاز ، ولقد معنى الوقت

الذى كان يطلق على نظريات الفلاسفة علماً وعلى مايتعلق بالإنسان علما بمعنى أنه يخضع للمادة وتكشف أن العلوم الإنسانية لا يمكن أن تخضع لمناهج المادة .

وتثار فى هذه السنوات قضية البحوث المشتركة بين البلاد الإسلامية والغربية وهى ظاهرة خطيرة ترمى إلى الإلقاء بقدراتنا الذاتية فى أيدى الغرب فى مجال الاعتماد على الخبرات الأجنبية والتبعية لها ، وتوكيل الأجانب فى حل مشاكل مصر ، ودلالة على تغريب العلم عن المجتمع الإسلامى وكأنه ملك الغرب الرأسمالى يتحكم فيه ويتصدق به على البلاد الإسلامية .

ولابد أن يكون لنا عبرة مما يكشف عن تاريخ العلم من أنه ليس مجرداً أو محايداً وأن الحقيقة العلمية ليست حقيقة مطلقة ولكنها حقيقة قائمة على افتراضات متغيرة ومعلومات متجددة ، هذه الافتراضات العلمية منها ، لها ارتباطاتها بأولويات اجتماعية وبأولويات متغيرة فتجد علماء الفيزياء (العلوم الطبيعية) مرتبطة بشكل مباشر ببحوث التسليح ، ومشروع القنبلة الذرية فى أمريكا وتفجيرها فى هيروشيما وانجازاكى يبرهن على عدم حياد العلم وعلى انحيازه .

كذلك فإن ارتباط البحوث العلمية فى الدول الغربية بالمؤسسات الصناعية له أثره فى عدم الحياد ، وهو يعنى أن أولويات البحث العلمى نفسه تحددها إلى حد كبير المؤسسات الصناعية فالكسب المالى مرتبط بشكل مباشر بأولويات البحث ، وأن حاجة المجتمع الغربى هى التى تتحكم فى توظيف العلم وهى التى تفرض أولويات البحث وإذا كان هذا فى الغرب فإن العلم فى روسيا أكثر تبعية للمذهب الماركسى وخدمة له وفى مجال العلوم الاجتماعية المعروف باسم علم الأنثربولوجيا أو علم الإنسان،فقد تكشف أن بعض خبراء الأجانب كان لهم دور تاريخى فى عهد الاستعمار وفى إبان الحملة الفرنسية مع مصر وقد بدا بعضهم تحت شعار التنمية دوراً جديداً فى استغلال شعوب العالم الثالث فى ظل الاستعمار الجديد ويجرى تنفيذ هذا الدور تحت شعار (التنمية) وتبنى قضايا الإنسان المقهور .

ولهم دورهم فى الاستعمار الاستيطانى الأقلية العنصرية فى جنوب أفريقيا ، وكذلك بالنسبة لكيان الصهيونى العنصرى فى فلسطين المحتلة ، فقد كان دور علماء الاجتماع واضح منذ بداية الاحتلال الصهيونى .

ويوضح كتاب (المرأة فى المجتمعات الريفية الإسلامية) بشكل صارخ كيفية استعمال المنهج العلمى للتضليل تحت اسم تقديم حقائق علمية ، فهم يلجأون إلى مفهومة التحضير ليوهمونا بالتقدم الذى نزل على المرأة الفلسطينية فى ظل أهمية مايسميه المجتمع الصناعى الحديث وبذلك يخفى على القارىء انتهاك حقوق الشعب الفلسطينى كله نساء ورجالا فى ظل الاستعمار الاستيطانى الصهيونى .

(٤)

ان قضية اختلاف الفكر الإسلامى والفكر الغربى فى النظرة إلى العلم وتميز العلم الذى أخذه الغرب عن المسلمين بطابع غربى رومانى يونانى وثنى مادى ملحد ، هذه القضية واضحة تماماً ، فبالرغم من أن مفاهيم العلم التجريبى ومفاهيم السياسة والاجتماع والاقتصاد التى أخذها الغرب من الشريعة الإسلامية ، فإن الغرب لم يقبلها بمضمونها القائم على التوحيد وإنما أخذها كمادة خاماً وتصرف فيها صهرها فى بوتقة مفهوم الخاص ، ذلك أن الذى عرف وتأكد أن الفكر الغربى قد أخذ ما أخذ من الفكر الإسلامى ولكنه باعد بين نفسه وبين المفهوم الأصيل لهذه القيم والأساس العميق الذى قامت عليه الحضارة الإسلامية فلم يقبل فى مجال العلوم تحركها فى إطار الرحمة ولم يقبل فى مجال الاقتصاد دفعها فى إطار الإخاء البشرى ولم يقبل فى مجال القانون جعلها واحدة للبشرية كلها ، كما غيب عنها أن تكون الوجهة خالصة لبناء المجتمع الربانى وإنما اقامها على أساس الاستعلاء بالعنصر وسيطرة القوى على الضعيف وسحق لصغار واعتبار الغربيين وحدهم ذوى البشرة البيضاء سادة وكل ما حولهم عبيد وهو نفس مفهوم الحضارة الرومانية ، وقد مضوا فى وجهة مخالفة لوجهة المفهوم الإسلامى حين سلطوا قواهم على مقدرات الشعوب من الطاقة ومذخور الأرض ووجهوها فى سبيل بناء حضارة استهلاكية قائمة على الخمر والربا والاباحة والترف وبذلك أدخلوا

للبشرية كلها فى عالم الأزمة الخانقة بمخالفة مفهوم الفطرة فى اتصال الحضارة بالمفهوم الربانى وعجزها عن الالتزام الأخلاقى ومن نتيجة ذلك مانراه اليوم من أزمات : الغذاء ، الطاقة ، التضخم ، البطالة النقد ، تلوث البيئة . وقد قاد الحضارة الربويون خلفاء العجل الذهبي ورعاة امبراطورية التلمود الاقتصاد فى العالم كله ففرضوا نظاما ربويا حطم كل مقومات المجتمعات .

الباب الثامن

تحرير علوم النفس والاجتماع والأخلاق من التبعية

على طريق (العودة إلى المنابع) نجد صيحة الدعوة إلى تنظير إسلامى لعلوم الاجتماع والنفس والأخلاق وتحريرها من التبعية ، وهى دعوة حمل لواءها كثير من دعاة الأصالة من رجال اليقظة الإسلامية فى مطالع القرن الخامس عشر الهجرى وفى المقدمين السابقين له ، وذلك فى مواجهة ماطرحه اليهوديان التلموديان الكبيران : فرويد ودوركايم فقد أثبتت الأبحاث العلمية أن ماتحمله هذه العلوم هو عرض عصرى للتراث اليهودى الصهيونى ، كشف عن ذلك بالنسبة لعلم النفس الدكتور صبرى جرجس الذى قال ان مفاهيم التحليل النفسى التى قدمها فرويد هى أداة مقنعة لتحقيق أهداف الحركة الصهيونية وأن التحليل النفسى الذى يعرفه العالم أجمع (علما) إنما هو فكر مستمد من التراث اليهودى الصهيونى الممتد مساراً عبر الأجيال .

ويرى الدكتور صبرى جرجس أن التراث اليهودى الصهيونى يتألف من ثلاثة مصادر :

( ) [التوراة] وهى وثيقة سياسية عنصرية استخدمت العقيدة الدينية لتحقيق مخططها السياسى العنصرى .

(٠) [التلمود] وهو تفسير التوراة فى إطار الفكرة السياسية العنصرية التى بدأتها .

(٣) نوع جديد من التراث لم يدون كتابة ولم ينشر لابين اليهود أنفسهم ولا على الناس وإنما نقل خلفاً عن سلف فى تلقين شخصى محوط بطابع السرية .

يقول الدكتور صبرى جرجس : ان الوجود اليهودى كله فكرياً ووجدانياً واجتماعياً وحضارياً يرتبط من جميع الوجوه بمجموعة التعاليم والتقاليد والتفسيرات والتوجيهات والمحرمات التى يتكون منها ، يعرف باسم التراث اليهودي الصهيونى المعلن عنه والخفى ، وحيث أن الوجود اليهودى يعتمد مباشرة

من التراث الدينى اليهودى الصهيونى فإن كل الموجودات اليهودية بما فيها (فرويد) بطبيعة الحال إنما تسلك وفقاً للتراث الدينى اليهودى الصهيونى ، ولما كان (التحليل النفسى) نتاجا لأحد هذه الموجودات اليهوديه الذى هو (فرويد) كان من المحتم أن يكون التحليل النفسى فكرا يهودياً صهيونيا .

يقول الدكتور صبرى جرجس : ان الدعوة الفرويدية انما تستمد ايمها من التراث الصهيونى فى تعصبه واستعلائه وتصوغ مفاهيمها على أساس أن الإنسان فى جوهره عبد لغرائزه إنما تمثل الانعكاس المنطقى للمجتمع البرجوازى الذى أفرخت فيه جموده وتحلله الفكرى والخلقى. ان منهج فرويد فى علم النفس يهدف إلى خدمة مصالح المجتمع البرجوازى والرأسمالية ، والتحليل النفسى فى اساسه هو أن الانسان فى جوهره عبد لغرائزه اعتماداً على الصراعات الناشئة بين الرغبات الفطرية الغريزية والمكتسبة من ناحية وبين الأنا الأعلى والذات الواقعة من ناحية أخرى .

ان الأصل الفكرى لنظرية العقل الباطن واللاشعور عند فرويد (الزوهار) تتحدث عن الاتصال بوصفه الكشف عن الغريزة وفرويد يخال أنه وصل إلى الفهم والكشف عن اللاشعور أى الكشف عن مجرى العقل فى الانسان .

ثم نظرية تفسير الأحلام ترجع إلى طريقة تفسير (الزوهار) للتوراة بفصل الفقرة من سياقها ثم محاولة إيراد الخواطر المرتبطه بها .

وفى تحليل فرويد لسيكولوجية الدين: يرى إن الدين وجهة العامة يمثل إخراج صراعات الانسان اللاشعورية ورفعها إلى المستوى الكونى وهو فى جانب منه يزود الانسان باشباعات بديلة ، لدوافعه العدائية وفى جانب آخر كقوة جامعة لتلك النزعات ، أما من وجهته الخاصة فالدين مستمد من الموقف الاوديبى (أسطورة أوديب) من حيث مايتضمنه من وهم الأب السماوى المحب الذى يعد المؤمنين بالسعادة فى عالم آخر إذاهم تنازلوا عن غرائزهم الغريزية فى هذا العالم .

ويرى الدكتور صبرى جرجس : ان فرويد مشبع بالروح الصهيونية وقد

اضطلع بمهمة القضاء على المسيحية موضوعيا وعلميا كما اضطلعت اليهودية الصهيونية من ألفى سنة بمهمة القضاء عليها أيدلوجيا وعمليا وترجع كراهيته للمعتقدات والطقوس الدينية والمسيحية إلى الأثر المزعج لمربيته الكاثوليكية القديمة العجوز التى كانت تعامله معاملة تنطوى على مزيج من الحنان والتهدد ، انه قصد إلى ارتداء ثوب إلحادى مزيف يستطيع من خلاله أن يهاجم المسيحية بالذات دون الأديان جميعا وهو إلحاد ذهنى لم يصل إلى وجدانه «إلحاداً زائفاً» لأنه ترك بعد ذلك متشبثاً باليهودية الصهيونية ، ومن ذلك انضمامه لجمعية بناء برث) وحضور اجتماعاتها وإلقاء محاضراته فى تفسير الأحلام فيها ، فضلا عن علاقاته الشخصية بأصدقاء يهود ومثل قوله عن يهوديته أنى مدين بالفضل الطبيعى اليهودية فيما أملك من صفتين مميزتين لم يكن فى وسعى الغناء عنهما خلال حياتى الشاقة فلأنى يهودى وجدت نفسى خلواً من التحيزات التى أضلت غيرى دون استخدام ملكاتهم الذهنية وكيهودى كنت مستعداً للانضمام إلى المعارضة والتصرف دون موافقة الأغلبية الساحقة .

ويرى الدكتور صبرى جرجس أن مفاهيم فرويد تهدف إلى تبرير الحركة الصهيونية أو إنشاء وطن قومى اليهود ، وإنما ترمى إلى الهدف الأكبر الصهيونية وهى تدمير الكيان الإنسانى نفسه ليتصل الخط بنظرية دارون من حيث يقول بأنه حيوان ليقول بأنه خاضع الجنس .

ويرى الدكتور صبرى جرجس أن هنالك علاقة وثيقة بين البروتستانية واليهودية فقد استطاعت اليهودية إيجاد نقط التقاء أيديولوجية بينها وبين القوة الدينية النامية فى عالم الغرب : قوة المسيحية البروتستانية حتى يمكن القول أنها مضت فى احتوائها إلى حد غير قليل ، ويتضح ذلك فى إقناع البروتستانية بأن التوراة هى النبع الروحى للمسيحية وأن نقطة الالتقاء الأساسية بينهما هى مصادرها الكاثوليكية حيث يقول (واحتضنت المسيحية البروتستانية اليهودية بجامع المشاركة فى الاضطهاد الكاثوليكى) ومن هنا كانت بريطانيا فى عهد أوليفر كرومويل أول بلد أتاح اليهودية فرصة السيطرة على أقداره (وكذلك

جاليباردى فى إيطاليا كانت له ميول صهيونية) . ويشير الدكتور صبرى جرجس إلى أخلاقيات التوراة وما تضمنته من إباحية جنسية وانتهازية وغدر وتقنين للربا واستعلاء حقد وشر من مثل نشيد الإنشاد ، وأسفار أيوب وصموئيل وإرميا والمزامير والتثنية بل والشريعة اليهودية ذاتها فيما يرى (برستد) تستمد كثيراً من حكمة الحكيم المصرى (أمين أبنوب) القرن العاشر قبل الميلاد .

ويرى أن التوراة (لا تكاد تزيد عن كونها مجموعة من الخرافات والنصوص التى صنعت فى جو أسطورى حافل بالإثارة مجاف للعقل والمنطق غامض بالتناقضات ومشبع بالسخط مفعم بمشاعر العدوان والتعطش إلى الدماء وهى تعكس تفسيراً بشرياً بعضاً من اللون الذى كان سائداً فى الشرق الأدنى القديم فى ذلك الحين ومرادف لأمثال من الأساطير والطقوس والاتجاهات الفكرية والعقائد المميزة لحضارات ذلك العصر ، كل ذلك فى إطار سمات نفسية تغذيها نزعات الجشع والغرور والاستعلاء وتحركها دوافع الجنس والعدوان الذى لا يهدأ حتى مع الدم المراق .

ان التاريخ اليهودى مرجع كاف فيما يتصل به اليهود من شعور البغضاء نحو العالم كله ، ولقد كان العدوان محور تاريخهم القديم كله

(٢)

وهكذا تكشفت الخلفية الحقيقية لمذهب التحليل النفسى الذى قدمه فرويد والذى سيطر على العلوم والآداب والقصة والمسرح أكثر من خمسين عاماً قبل أن تنكشف علاقته بأخطر مؤامرة على البشرية .

وقد انتبه لهذا التحدى كثيرون قبل الدكتور صبرى جرجس وكشفوا عن موقف الإسلام من نظرية التحليل النفسى ومدرسة العلوم الاجتماعية وكشفوا عن معارضة الإسلام لهذه المفاهيم وأن هذا المذهب مادى ينكر وجود الله وينكر الوجدان الدينى كما ينكر العقل الذى يسيطر على الغرائز ويعتبر الإنسان

حيوانا تسيره الغرائز وحدها وأن الإسلام قد قدم مفهوماً أصيلا نابعاً من الفطرة قوامه إعطاء الإنسان أشواق الروح مع ضوابط تحول دون انهيار الفرد وتدمر المجتمع . (راجع محمد قطب فى كتابه عن النفس والمجتمع) .

ويقول سعد حسن لطفى : لقد تكشف أن علم التحليل النفسى ملىء بالأخطاء والمتناقضات والنظريات المتضاربة شأنه شأن سائر علوم البشر وهو أربع مذاهب متضاربة :

(المذهب الأول) : يعتبر الغريزة الجنسية هى المهيمنة على كل تصرفات الإنسان فتضع البشر فى مرتبة أقل من مرتبة الحيوان ، وفى هذا التفسير الخاطىء يجعل الحياة كلها خلافا حول الجنس وعلى النساء الى درجة أن غاية الإنسان فى الحياة هى إشباع الغريزة الجنسية وربما كانت الحروب بين الدول بسبب النساء والجنس .

هذا المذهب مع الأسف هو المعمول به فى التحليل النفسى وفى العلاج وفى التربية والتعلم مع أنه أكبرها خطأ وأبعدها عن الدين والخلق القويم ، ومن المسلم به أن الصحة الجنسية هى العفة والسيطرة على النفس بعكس ماقال فرويد من أن الصحة فى الإباحة وأن الأمراض النفسية فى العفة حيث تسبب مايسميه الكبت بينما العكس هو الصحيح لأن يكبت الإنسان شهواته ويلجمها يكون ذلك أحكم وأشد من الإباحة ، كما أن الامتناع عن العملية الجنسية يزيد قوة المخ والإدراك ويزيد قوة البدن أيضاً ، ومقدرته على مقاومة الأمراض بعكس الحال عند المسرفين فى العلاقة الجنسية ناهيك مضار الزنا كالأمراض التناسلية القتالة .

(المذهب الثانى) : يجعل الإنسان عبداً الدنيا والمال وتسيره غريزة التملك ويكون سعيداً صحيحاً نفسياً إذا كان غنيا ويكون مريضاً نفسيا إذا كان فقيراً ، وهذا يخالف الواقع والعقل فإن الفقراء يملكون فضيلة الصبر وفضيلة القناعة وفضيلة الإيمان بالله وصحتهم البدنية والنفسية أحسن من صحة الأغنياء بإجماع الآراء والمؤمن سيد الدنيا والكافر عبد لها .

(المذهب الثالث) : يجعل الإنسان خاضعا للمجتمع وحده ويجعل غاية

السعادة والصحة إرضاء الناس ، وهذا المذهب يشجع على الرياء والنفاق فإن القوة والمكانة فى المجتمع هما فى رضاء الله ولو بإغضاب الناس لأن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن فيرضى الله (تبارك وتعالى) الناس عن أرضاه بإغضاب الناس ويغضب الله الناس على من يرضى الناس بإغضاب الله .

(المذهب الرابع) : يعتبر الإيمان مسألة خاصة ونسبية فهو ينكر وجود الله ويقول : ان الإنسان لو اعتقد فى أى شىء فإنه يتأثر به (وعلى هذا فيكون الدين فى نظرهم وهما وليس حقيقة) وهكذا عكس كلام الله من أن الاعتقاد فيما سوى الله لا ينفع وأن الحجارة لا تسمع ولا ترى وأن النافع والضار هو الله وحده

وفى مفهوم الإسلام فإن هذه المذاهب الأربعة المادية والإباحية التى جاءت بها مدرسة العلوم والاجتماع والنفس والأخلاق مرفوضة جملة وتفصيلا بسبب تضاربها ولا يجوز التوفيق بينها أو أى مذهب وسط ، ذلك أن الحقيقة ليست وسطاً بين خطأين ، ومن وجهة نظر الطب النفسى نرى أن الاستقامة هى أساس الصحة البدنية والنفسية وأن الفساد هو أساس الأمراض النفسية وأن الإيمان بالله هو العزة والقوة والصحة وعدم الإيمان أساس كل الأمراض ، والمؤمنون يتغلبون على السحر والشعوذة ولا يخافون من السحرة ولا ينخدعون فيهم .

والتعليم الدينى (الإسلامى) هو الضمان الوحيد لعدم انتشار السحر والدجل والمؤمنون يعتقدون أن السحر كفر بالله وباطل وخرافة ، وتكثر الأمراض النفسية بسبب الخوف من السحر وبسبب العداوة والشر والحقد والرغبة فى المضرة ولا يوجد شىء يدفع النفوس إلى فعل الخير والبعد عن الشر غير الوازع الدينى والطمع فى رحمة الله ورضاه والخوف من عقابه ولا يوجد فى علم النفس التربوى أو خلافه هذا (الباعث) الذى يجعل الناس يتسابقون ويتنافسون فى أعمال الخير ولا ذلك الديدبان اليقظ الذى يسمونه الضمير .

وهكذا واجه المسلمون مفاهيم الفكر المادى فى النفس والأخلاق والاجتماع

(٣)

وكذلك واجه الفكر الإسلامى النظرية الهيبية التى لم تكن سوى رفض قام به الشباب الأوربى لواقعه القاتم ، أنها رفض لحياة افتقدت المثل وطغت فيها المحسوسات ، حياة عقدتها الآلة وضيق خناقها واقع صناعى صرف ؛ انها مرحلة من مراحل الفلسفة المادية ، التى سيطرت على المجتمع الغربى وحرمته من المعنويات والروحانيات والجوانب الأخرى للإنسان التى تشكل اصف وجوده ، لقد كانت الإباحة وضرب عرض الحائط بالأخلاقيات إحدى النتائج الاساسية لهذه السيطرة ، وهنا بالضبط ماهو البديل الذى تطرحه النزعة الهيبية؟ الهيبيون يلتقون فى هذه النقطة مع الواقع المرفوض حينما يبحثون عدة أشياء تتنافى مع المثل الإنسانية (كالشيوعية الجنسية) مثلا ، أو الفرار من الواقع عن طريق المخدرات ، وفى هاتين النقطتين تناقض البيئة نفسها وتضل عن الطريق الصحيح : الذى هو طريق الدين الحق المنزل الذى رسم للانسان طريق الحياة (الالتزام الفردى والمسئولية الأخلاقية) .

ومن هنا فليس للهيبيين إطار فكرى محدد يمكن أن يقنع الآخرين بالاندماج فيه ، ويقرر علماء الاجتماع أن الهيبية مرحلة من مراحل الضياع التى يمر بها الشباب فى إحدى بقاع العالم ، وستتجاوزها الاحداث التى تفرض نفسها باستمرار والتى تتطلب البحث عن المسئولية الجادة ، وبالجملة فإن النزعة الهيبية ليست سوى مظهر من مظاهر رفض الحضارة الأوربية للقيم المادية وتنكرها لها ومظهر من تفسخ هذه الحضارة التى تبدو للناظر من بعيد متماسكة الاركان بينما هى فى الحقيقة منهارة وقد حدث لها الشرخ الذى لن يلتئم .



الباب التاسع

ترشيد دراسات التاريخ الإسلامي

كان التاريخ الإسلامي هدفاً بارزاً من أهداف الغزو الثقافي والتغريب ، وكان للاستشراق دور خطير في تحريفه وإفساد مفاهيمه وفرض تفسيرات غريبة عليه ، منها التفسير المادي والجنسي والأممي والمسيحي والروماني والاجتماعي وكلها مناهج استحدثها التاريخ الغربي لتفسير وقائعه ، مرحلة بعد مرحلة ، وعصراً بعد عصر ، وهي في مجموعها لا تصلح لتفسير التاريخ الإسلامي لأنها قاصرة ومحدودة وقائمة في حدود النظرة الماديه الانشطارية التي تعتمد على الحس والظاهر ولا تستطيع التغلغل إلى أعماق النفس الإنسانية أو تعرف مدى علاقه الإيمان بالله وبيع النفس لله والشهادة في سبيله والتضحية بالروح من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا وهو ما يتميز به التاريخ الإسلامي وتذخر به وقائعه وهو مايبدو أمام النظرة المادية وكأنه مستحيل من المستحيلات ، هذا إذا صدقت النظرة وكانت عليه ، أما فيما عدا ذلك فنحن نعرف أن كتابات المستشرقين الغربيين للتاريخ الإسلامي تقوم أساسا على المصالح الاستعمارية وتخضع لنظرة الكنيسة المسيحية التي ترى في الإسلام عدواً لها وخصما ومن ثم فهي تفسر تاريخه على النحو الذي يضعه أمام الناظرين إليه ، أو أمام أهله على نحو منتقص ، في محاولة لإثارة الشبهات حوله ، أو الغض من شأنه ، وتزييفه والتشكيك فيه .

ولقد تعددت التحديات والأخطار التي تواجه تفسير التاريخ الإسلامي من المستشرقين واتباعهم أو إعادة كتابته من التغريبيين والعلمانيين والماركسيين (هيكل ، طه حسين ، العقاد ، عبد الرحمن الشرقاوي)

أولا : تقوم محاولات المستشرقين على عوامل كثيرة : منها بتر النصوص واختيار بعض الوقائع والأحداث وتغيير الأحداث والأعمال حسب الغرض والهوى

ثانياً : إعلاء شأن الحركات السرية الباطنية والقرمطية ووصفها كذباً وزوراً بأنها حركات إصلاحية تحررية ومن ذلك موقفهم من البهائية والقديانية .

ثالثاً : الإشارة إلى جميع الحركات المتصلة بالفكر اليونانى والوثنى (عباد الأصنام) على أنها حركات أصيلة كالاعتزال والتصوف الفلسفى .

رابعا : محاولة إخضاع التاريخ الإسلامى لتفسيرات التاريخ الغربى مع اختلاف الغايات والأهداف والعصور وأثر العقائد والثقافات .

ونحن حين ننظر إلى مؤرخى الغرب نجد أن محاولاتهم مرتبطة بأهداف مسبقة ودول قائمة ، فهيجل حاول أن يستخدم التاريخ وسيلة لخدمة (بروسيا) المتوثبة ، أما ماركس فرأى أن يتخذ من التاريخ وسيلة لأحداث ثورة لصالح الطبقة العاملة ، أما أرنولد توينبى فقد أراد أن يدافع عن الحضارة الغربية بوصفها حضارة مسيحية كانت البطولة فيها بطولة رهبانية فى ميدان العلم ، كذلك فهناك النظرة القائمة على الاستعلاء بالجنس الأبيض وبأن التاريخ الغربى هو منطلق التاريخ ونهايته .

خامسا : هناك التفسير الماركسى التاريخ .

وهو تفسير افتراضى لا يصل إلى الدرجة العلمية إلا إذا استطاع الدليل العلمى أن يبرهن وينفى إمكان أى تفسير آخر للظاهرة الموضوعة للبحث على حد تعبير (محمد الصالح عزيز) الذى يقول : ان إصرار ماركس وأتباعه فى تفسيرهم التاريخ بأن أساليب الإنتاج وعلاقات الإنتاج كانت دائماً السبب الذى يشكل البنيان القومى الاجتماعى بما فيه من فن وفكر ودين ، هذا التفسير تدحضه أحدث النظريات اليوم التى تقول بالعوامل المتعددة التى تتناول التأثير فيما بينها ، كل عامل يكون سببا ونتيجة فى الوقت نفسه وأقوى البراهين على ذلك نشأة الإسلام الذى لم يكن قط من إفراز النظام الطبقى فى قريش ولم يأت نتيجة انقلاب فى نظام الإنتاج وعلاقات الإنتاج فى قريش ، وإنما جاء كظاهرة فوقية مستقلة عن البيئة ، فالماركسية لم تأخذ التاريخ كله كنموذج لتستنبط منه قانون حركته ، وإنما أخذت بعض مراحل وقفزات هى التى وجد فيها ماركس مصداق كلامه وأغفل الباقى ، وكثير مما وصلنا من التاريخ كذب واختلاق ومبالغات .

ولقد كانت تنبوءات ماركس التاريخية خاطئة :

أولا : حين تنبأ بأن الثورة الشيوعية ان تخرج من مجتمع متخلف وإنما من مجتمع صناعى رأسمالى مثل إنجلترا أو ألمانيا فكذبت نبوءته وخرجت الشيوعية من مجتمع زراعى متخلف مثل روسيا القيصرية والصين .

(ثانياً) تنبأ باتساع الشقة بين البرجوازية والبروليتاريا فى الدول الرأسمالية إلى أن يتفاقم الوضع إلى ثورة تقلب النظام الرأسمالى كله ولكن ماحدث فى المجتمعات الرأسمالية كان العكس .

سادسا . إضفاء صفة العلمية على البحث التاريخى شأنه شأن العلوم التجريبية وهذا يبرز الاختلاف بين الدراسات الإنسانية والدراسات العلمية، ذلك أن العلوم هى مجموعة من الظواهر يحاول العالم استكشاف أسبابها والعوامل الأساسية فيها ، فالعالم الفزيائى فى ظواهر الطبيعة يدرسها فى مختبره الخاص ، أما الباحث التاريخى فلا يستطيع العلمية لأن هواه داخل فى المسألة ، فالفرق كبير جدا - كما يقول (محمد الصالح عزيز) بين العالم الفيزيائى الذى يستطيع أن يجرى تجاربه المختلفة على المادة التى يعالجها ويستفيد منها مايشاء ويضم إليها مايشاء وبين الباحث التاريخى الذى لا يملك إلا أن يأخذ الظواهر والإحداث كما هى .

فالبحث التاريخى يختلف عادة عن البحوث العلمية الطبيعية من ناحية المادة التى يقوم عليها أساسا الاستنتاج ومن ناحية الدليل .

سابعا : محاولة فرض التيار القومى على التاريخ الإسلامى لاعلاء مفهوم العروبة وفصلها عن المفهوم الجامع الإسلامى الذى يشمل تحت رايته كل من يقـــول : (لا إله إلا الله) وبذلك ينحصر العرب فى محيط ضيق هو محيط العنصر والدم والاقليم وينفصلون عن جماعة المسلمين الواسعه وهذا هو ماكان يسعى إليه قسطنطين زريق (نحن والتاريخ) وساطع الحصرى (العروبة أولا) فإذا سيطر التفسير المادى للتاريخ تحت اسم العلم على هذا المفهوم كانت الخسارة مضاعفة إذ أن معنى ذلك هو خلق مفهوم تاريخى عربى قومى منفصل عن التاريخ الإسلامى

ومفرغ من قيمه الأساسية : التوحيد والعدل والإخاء الإنسانى وفرض مفاهيم واحدة كالاشتراكية والحرية والعلمانية وبذلك يفسد تاريخنا ويتمزق وتضيع قوته القادرة على ابتعاث المسلمين مرة أخرى ابناء حضارتهم المتجددة ، ان دعاة التاريخ العلمانى والقومى يهدفون أى يفسدوا مهمة التاريخ وأن يفرغوه من كل مقوماته ومعطياته التى كانت العامل القوى فى إعادة بناء الامم ، فهم يعلمون أن التاريخ يبنى الامم ويشكل روح الحصانة والمقاومة فيها إزاء سيطرة النفوذ الأجنبى وخاصة التاريخ الإسلامى بمعطياته المكاشفة من البسالة والتضحية والنبل والوفاء فهم يثيرون شبهة (التاريخ العبء) ليتهموا تجديد التاريخ الإسلامى وإعادة بعثه على وجهه الصحيح بأنه سيكون عبئاً على المعاصرين يشدهم إليه ويكون عاملا بين عوامل هربهم من الواقع ، والحقيقة أن المسلمين يعلمون أن التاريخ لا يتكرر وأن عطاء التاريخ من أجل إضاءة الطريق للبناء الجديد والاسترشاد به لا لتكراره ونحن نؤمن بأن تاريخنا الإسلامى جزء من التاريخ الإنسانى يشهد فى نفس الوقت أن عطاء الإسلام للبشرية له ذاتيته الخاصة .

(٢)

لقد تبين من خلال الدراسات التى قام بها رواد اليقظة الإسلامية فساد الاعتماد على مناهج الغرب فى دراسة التاريخ وعلمت الصيحة بالعودة إلى المنابع والتماس مفهوم الإسلام الأصيل .

وتبين بما لا يدع مجالا للشك أن « التفسير الإسلامى للتاريخ » منهج جامع يشمل الناحيتين المادية والمعنوية معاً بينما تلتزم التفسيرات الوافدة جانباً من الجوانب وتعتمد على الفكرة المادية وحدها سواء فى تفسير الأيدلوجيات الغربية أو الماركسية .

ولقد كشف المنهج الإسلامى فى تفسير التاريخ عن علامات واضحة ؛

(أولا) أن الأمم التى تخرج عن منهج الله لابد أن تدمر ، وأن هناك قانون قائم من سنن الله فى زوال الأمم والدول وانقراضها ، إذا خرجت عن الوجهة الصحيحة لبناء المجتمع الربانى القائم على :
(المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى)

[وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً] (الإسراء - ١٦)

(ثانيا) يقيم الإسلام مفهومه على النظرة الجامعة بين الروح والمادة والعقل والعقل والقلب والدنيا والآخرة والسياسة والاجتماع ، والعلم والدين ، فلا يدرس التاريخ مجزءاً ولا يوجه الاهتمام إلى الاقتصاد وحده أو السياسة وحدها ، وليس هناك تركيز على الفرد فيكون أساس ومحور حركة التاريخ كلها ، أو تركيز على المجتمع الذى ينسحق منه الفرد ويذوب .

(ثالثا) لا يقر الإسلام الطريقة المسيحية فى تفسير التاريخ والتى تقول بوجود مملكتين : مملكة الله ومقرها السماء ومملكة الشيطان ومقرها العالم السفلى أو الأرض وهى - فى نظرهم - دولة معادية للخالق ، وفى حرب مستمرة مع أنصار الله وأن دولة إبليس على سطح الأرض قائمة ولا زالت تحاول بسط نفوذها على ممالك الكرة الأرضية وقد جاء المسيح لإنقاذ البشرية وإعادة مملكة الله على هذه الأرض وتخليص البشر من إثم الخطيئة

هذه النظرية لا يقرها الإسلام فهو أولا لا يقر أن هناك خطيئة أصلية هى (خطيئة آدم) مسئول عليها البشر ، فالأمر فى خطيئة آدم أن الله تبارك وتعالى غفرها له [ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى] وليس على أى إنسان مسئولية خطأ إنسان آخر سواء كان أبوه أو ولده . وليست الأرض مملكة الشيطان ولكنها مملكة الإنسان المستخلف بالحق ، والذى عليه أن يمضى فيها على حكم الله .

(رابعا) يجب أن يكون دائماً فى تقديرنا أن التاريخ الإسلامى وقع ضحية

مؤامرات كبرى استهدفت الإفتراء على أصول الإسلام وإلباس الباطل ثوب الحق والطعن فى رجال الإسلام وقادته وإضعاف عقائد المسلمين لإثبات أن الإسلام كان قولا وعملا وأن المسلمين لم يثبتوا على دينهم إلا فترات قليلة من تاريخهم الأول ثم ضلوا السبيل وركبوا موجة الأهواء كغيرهم من أصحاب الملل والنحل (سالم البهنساوى)

(خامسا) : امتدت المؤمرات إلى تغيير بعض أحداث التاريخ الإسلامى ليلائم الفلسفة الأوربية ثم امتدت المؤمرات إلى تطويع مفاهيم القرآن والسنة لتساير المذهب الماركسى فى تفسيره المادى للتاريخ، وكان الرواد الأوائل فى ذلك بعض صبيان الرأسمالية الغربية ثم أتباع الماركسية من الأعراب وبعض من تحولوا من الفكر العلمانى إلى الإسلام بكتابات أسهمت فى بعض الأخطاء نقلا مناهج بعض المؤرخين الذين دونوا التاريخ الإسلامى أو كتبوا عنه .

(سالم البهنساوى)

(سادساً) تبين خطأ الماركسية فى النظرة إلى الدين وأن دراسة ماركس وأنجلز للأديان وتطورها كانت سطحية وغير شاملة ، ومن هنا نظر إلى الدين كعوق للتغيير الاجتماعى وغاب عنها أن الأنبياء لم يكونوا بسحرة ولا تجار شعوذة ، بل كانوا محررين روحيين واجتماعيين وكان نضالهم يستهدف إقامة مجتمع لا طبقى تسوده المودة والعدالة ويتأصل فى النفوس على قاعدة من القيم الروحية والخلقية - قال ولفرد كانتول سميث :

ان النظام الإسلامى هو أجدى وأرسخ تجربة تمت لتحقيق العدالة بين الناس ، إن هناك فارق واضح بين الإسلام والماركسية ألا وهو أن الإسلام يرى لكل حدث دنيوى جانبين ، ويقيسه بمعيارين أحدهما وقتى أو دنيوى والآخر أبدى أو اخروى .

والإسلام يقول : لا ، لصراع الطبقات والحتمية التاريخية .

(سابعا) قصور النظرة التاريخية الغربية عن استيعاب جانب (الغيبيات) .

ومنها تخطية بعض العلمانيين من كتاب التاريخ الإسلامى وتاريخ الإسلام من ذكر معجزات الرسول . كما فعل العقاد وهيكل .

(ثامناً) خطورة الاعتماد على المصادر الأدبية وخاصة كتب الأدب فى دراسة التاريخ الإسلامى (الأغانى وشعر أبى نواس وبشار وكتب الفكاهات والمجون والروايات الملفقة حول هارون الرشيد وأغيره) . ومحاولة تصوير الصحابة كمحترفى السياسة على النحو الذى عمد إليه طه حسين أو تصوير الهجرة على أنها خروج فى سبيل البحث عن الطعام وكل ما أحياه المستشرقون من كتابات الوضاعين والرواة والأخبار الباطلة واعتمد عليه الغربيون فى تقديم صورة زائفة عن التاريخ الإسلامى .

الباب العاشر

عروبة فى دائرة الإسلام

« ١ »

صححت حركة اليقظة الإسلامية مفهوم الرابطة بين الوطنية والعروبة والإسلام وكشفت عن التقاء الدوائر الثلاث فى إطار واحد ، لقد حاولت حركة التغريب والغزو الثقافى إقامة أوضاع منعزلة داخل إطار الوطنية المرتبطة بالأرض أو القومية المرتبطة بالدم والعنصر فى محاولة لعزل كل حلقة من هذه الحلقات عن ترابطها وتكاملها مع الإسلام نفسه أى مع رابطة العقيدة والفكر والقيم التى شكلت هذه الأمة أساسا .

ولما كانت يقظة المبدأ هى الوحدة الجامعة التى أقامها الإسلام وبنى عليها المجتمع الإسلامى الكبير فإن العودة إليها هى الإساس فى الحقيقة ، ذلك أن الهدف من تمزيق وحدة العالم الإسلامى معروفة وهى غاية الغايات أمام القوى الاستعمارية الطامعة فى تمزيق هذا الكيان وعزل كل قطر منه من خلال تاريخ زائف يجرى محاولة عزله عن تاريخ الإسلام الجامع أو رده إلى ما قبل الإسلام بإحياء تاريخ الفرعونية والفينيقية والآشورية والبابلية بعد أن قضى عليها الإسلام قضاء مبرما وأقام ما أطلق عليه المؤرخون (الإنقطاع الحضارى) الذى لا سبيل إلى إعادة الربط بينه وبين الأمة الإسلامية التى كونها القرآن خلال أربعة عشر قرنا .

وبالرغم من وضوح هذه الرؤيا وسماحتها وارتفاعها على نزعات على الإقليمية والقومية فإن المحاولات التغريبية لاتتوقف لإثارتها من جديد ولقد كان واضحاً أن مفاهيم الوطنية ثم القومية قد استعملت فى فترة من فترات الصراع الاستعمارى ، أو محاولات تمزيق الوحدة الجامعة باستعلاء دعوات الانفصال تحت إسم الطورانية وغيرها .

ويكشف الأستاذ الإمام حسن البنا منطلق الحقيقة فى هذه القصة على هذا النحو : « إن رابطة العقيدة هى أقدس من رابطة الدم ورابطة الأرض وأن

فكرة القومية تذوب أمام فكرة الأخوة الإسلامية التى بثها القرآن فى نفوس من يتبعونه جميعا ، ولكن إذا كانت الوطنية حب الوطن الذى ولدنا فيه وحنيننا إليه واختصاصا له بالخدمة ، فإن الإسلام يحتضنها بل ويعتبرها جزءاً من منظومة فكره السياسى ، فقط يحذر أن يكون جذورها قاصرة على الإقليم الضيق الذى ولد فيه الإنسان وإذا كانت الوطنية حب هذه الأرض وألفتها والحنين إليها والعطف نحوها فذلك أمر مركوز فى فطر النفوس من جهة ما أقر به الإسلام ومن جهة أخرى فقط يطالب منا الإسلام ألا نقف بحدودها عند حدود الإقليم الصغير الذى ولدنا فيه فلقد وسع الإسلام حدود الوطن لتشمل القطر الخاص ثم تمتد إلى الأقطار الإسلامية ثم ترتقى إلى الإمبراطورية الإسلامية الأولى ثم تسمو حتى تشمل الدنيا جميعاً وبذلك يكون الإسلام قد وفق بين شعور الوطنية الخاصة وشعور الوطنية العامة بما فيه الخير للإنسانية جميعاً » .

هذا المفهوم الأصيل الذى قدمته حركة اليقظة الإسلامية سيظل رمزاً على مفهوم العلاقة بين العروبة والإسلام ، ويظل قائماً فى وضوح دون كل المحاولات التى تحاول أن تستغل لنفى مفهوم العروبة وتجعل له استقلالا واضحا ، وكيانا ظاهراً بدعوى قبول المفهوم الإسلامى له فالعروبة ، بمفهوم الغرب التى أدخلها إلى الفكر المعاصر : ساطع الحصرى وميشيل عفلق وقسطنطين زريق وغيرهم مفهوم غير أصيل ، ولم تقبله الأمة الإسلامية أساساً ثم ثبت من بعد ، بعد أن جرت محاولات تجربته هنا وهناك فشله وزيفه وقصوره وعجزه عن العطاء لأنه انفصل بنفسه واستعلى على مفهوم الجامعة الإسلامية وهى الحلقة الكبرى ، وحاول أن يصفى نفسه من مضامين الإسلام الإجتماعية فى بناء الأمة ، واعتمد مفهومات أخرى كالاشتراكية والديمقراطية وغيرها من مفاهيم .

ولقد أشار الأستاذ حسن البنا إلى الدائرة الوطنية والدائرة العربية والدائرة الإسلامية فقال : « إن مصر قطعة من أرض الإسلام وزعيمة أممه وفى المقدمة من دول الإسلام وشعوبه ، و[المصرية أو القومية] لها فى دعوتنا مكانها

وعزلتها وحقها في الكفاح والنضال ، إننا مخلصون لهذا الوطن الحبيب عاملون له ، مجاهدون في سبيل خيره وسنظل كذلك ما حيينا ، معتقدين أن هذه هي الحلقة الأولى من سلسلة النهضة المنشودة ، وأنها جزء من الوطن العربي العام وأننا حين نعمل لمصر نعمل للعروبة والشرق والإسلام ، و [العروبة] لها في دعوتنا كذلك مكانها البارز وحقها الوافر فالعرب أمة الإسلام الأولى وشعبه المتخير ، وعن ما قاله ﷺ (إذا ذل العرب ذل الإسلام) ولن ينهض الإسلام بغير اجتماع كلمة الشعوب العربية ونهضتها ، ونحن نعتقد أننا حين نعمل للعروبة نعمل للاسلام ولخير العالم كله ، والقرآن عربي ، وهو أساس هذا الدين وركن الصلاة أفضل القربات إلى الله وتلك هي الوسيلة العملية إلى وحدة اللسان بعد وحدة الإيمان ، والعرب هم عصبة الإسلام وحراسه ، ومن هنا كانت وحدة العرب أمراً لابد منه لإعادة مجد الإسلام وإقامة دولته وإعزاز سلطانه ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ـ الحلقة الأولى : الوطنية ، والحلقة الثانية : الوحدة العربية ، والجامعة الإسلامية هي الحلقة الكبرى والسياج الكامل للوطن الإسلامي العام ، لا تعارض بين هذه الوحدات بهذا الاعتبار لكل منها تشد أزر الأخرى وتحقيق الغاية منها فالإسلام يعتبر المسلمين جميعاً أمة واحدة ويعتبر الوطن الإسلامي وطناً واحداً ولا يتنكر للوطنية ولا للقومية بل يرى الجامعة الإسلامية ثمرة تلي الدائرة القومية التي تلي هي الأخرى دائرة الوطن الذي نشأ فيه المسلم ، فقط ينكر الإسلام ويستنكر القومية إذا عنت العصبية الجنسية والفخر الكاذب ، أما إذا عنيت الاعتزاز بالمزايا والتاريخ مما يحتاج إليه الأمم الناهضة عند ما تواجه التحديات التي تحول بينها وبين النهوض فذلك لا بأس به .

لقد أرست اليقظة الإسلامية مفهوم العلاقة بين العروبة والإسلام ، قبل أن تحدث التجربة الخطيرة التي اتسعت مفاهيم القوميه الغربية الوافدة ، فقد أثبتت التجربة أن الذين قاموا بالدعوة إلى القومية لم يكونوا مؤمنين بالحلقات الثلاث المترابطة ولم يكونوا ينظرون إلى العروبة على أنها حلقة من حلقات

الوحدة الإسلامية السامة ، وأنهم بالغوا مبالغة خطيرة فى إعلاء القومية حتى أن بعضهم حاول أن يجعلها ديناً أو عقيدة وهو إعلاء بلغ بهم إلى الحد الذى أنكره الإسلام من العصبية العنصرية واستعلاء العرق والدم الذى جاء الإسلام للقضاء عليه ولذلك سرعان ما سقطت هذه التجربة وفشلت .

(٢)

ولقد كشفت دراساتى كتاب اليقظة الإسلامية عن مفهوم العلاقة التاريخية بين العروبة والإسلام فقد كانت العروبة هى الجسد والإسلام هو الروح وكان الإسلام هو الجوهر الأساسى لبناء وحدة فكرية بين المسلمين ولقيام مجتمع يرتكز على حضارة مستمدة من روح الدستور الربانى لتخليصه من ويلات العنصرية ، ذلك أنه ما كان اللغة العربية من سمة الخلود لولا القرآن والإسلام ، وما كان للعرب أن يطلوا على العالم إلا من خلال الإسلام ، وما كان العالم يستطيع أن يخرج من جمود الرهبانية إلا من خلال الإسلام .

يقول إقبال : لا تقس أمم الغرب على أمتك ، فإن أمة الرسول الهاشمى ﷺ فريدة فى تركيبها ، أولئك الذين يعتقدون باجتماعهم على الوطن والنسل ولكن إنما يستحكم اجتماعك أيها المسلم بقوة الدين :

كذلك فإن الإسلام لم يكن فى تشريعاته المقيمة المجتمعات البشرية مناقضاً للمقومات الجنسية ، لكل أمة من الأمم ، وشخصيتها النابعة من التطورات المجتمعة عبر القرون ، بالعكس أنه حاول الحفاظ على الكيان الخاص لكل أمة من الأمم وشخصيتها النابعة من التصورات المجتمعه عبر القرون ، بالعكس أنه خلال الحفاظ على الكيان الخاص لكل بيئة إن لم تتعارض مميزاته مع حقيقة الإسلام [وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا] فالخالق الكريم جعل البشرية شعوباً وقبائل تختلف فيما بينها لغة وعادات وذلك بطبيعة الحال يؤلف قوميات متعددة إلا أن الهدف فى الآية هو التعارف بجميع ظلاله كالتآخى والمداة والأخلاق .

وهذا ما يعنى قول الشاعر المسلم .

ولست أرى سوى الإسلام لى وطنا   الشام فيه ووادى النيل سيان
وحيثما ذكر اسم الله فى بلد   عددت أرجاءه من لب أوطانى

ويقول العلامة محمد المنتصر الريسونى : إن العروبة فى مفهومها الحقيق (لا المزعوم) مرتبطة بالإسلام ارتباط السبب بالمسبب والغاية هى دحض التفسير القومى المبتسر الذى يهدف من ورائه البعض إلى طعن الإسلام من الخلف وإنكار حركيته ، وأثره فى صياغة الحدث التاريخى ودعوته العالمية وهدف الاستشراق هو تجريد الفكر الإسلامى العربى من كل مزية تجعله ساميا ، ووصم الإسلام بالعجز عن تكوين شخصية ثقافية مستقلة متميزة ، فالإسلام دعوة عالمية تهيب بأبناء البشرية إلى اتخاذه مذهباً فى الحياة [وما هو إلا ذكر العالمين] فكيف نجرؤ على تفسير تاريخنا الإسلامى تفسيراً قومياً يقوم على عصبية عروبة نابذين صفة الإسلام ، من أجل إرضاء نزعة عرقية ، فلنحذر العروبة الضيقة التى تدعو إلى إهمال ما يتعلق بالأخوة الإسلاميه فى صراعها ضد الوثنية والصهيونية والصليبية » .

ولست أجد فى هـذا المجال خيرا مما قاله ليونارد بايندر فى كتابه الثورة العقائدية فى الشرق الأوسط من أن القوميات التى فرضتها القوى العسكرية فى المنطقة لم تنجح بالرغم مما بذل فى سبيلها من مال وانفق من دعاية وما جرى من كتابات لإقناع الأجيال الجديدة بها ، كذلك فإن العالم الإسلامى لم يقبل الديمقراطية الغربية بمفهومها الغربى المخالف لمفهوم الشورى ولم يقبل القومية بمفهومها الغربى المخالف لمفهوم العروبة ، ولم تكن القومية أحسن أشكال الحكم بل كان وسيلة لإخفاء الأيدى المخضبة بالدماء والأنياب والأظافر المسيطرة باسم الاستبداد والدكتاتورية وأنه مهما صنع الاستعمار للقضاء على الوحدة الإسلامية وإقامة الوطنيات والقوميات والأقليات فإن حركة النضال من أجل مقاومة الاستعمار كانت ولا تزال تستمد قوتها الإسلامية من مفهوم الإسلام الأصيل فى الجهاد ومقاومة الغاصب .

الباب الحادي عشر

حماية الفصحى من الأخطار

ان أبرز ماتحمل دعوة (العودة إلى المنابع) احتضان اللغة العربية وحمايتها من المؤامرات التي ما تزال تدبر لها والمستمرة بأساليب مختلفة ، والتي يقصد بها أساسا النيل من بلاغة القرآن الكريم وبيانه وحجبه عن الأنظار وتكوين أجيال عقيمة مقزمة لا تستطيع أن تفهم بيان القرآن الكريم وبذلك ينفصل القرآن من اللغة الفصحى ويعلو تيار العامية أو مايسمونه اللغة الوسطى ، وحرب الفصحى قضية كبيرة بدأها المستشرقون والغربيون المخاصمون للإسلام والأمة العربية أمثال ولكوكس ووليمرر ثم تولاه التغربيون أمثال قاسم أمين ولطفى السيد وسلامه موسى ، ثم جاءت صحافة أخبار اليوم بقيادة مصطفى أمين لتقضى على التيار البليغ الذى كان يكتب به توفيق الحكيم والمازنى والعقاد ليقدم أسلوب جديد قيل عنه أنه أسلوب صحفى يرمى إلى تقريب المعانى العامة وجاءت المجامع اللغوية وقاد طه حسين الحملة على الفصحى وعلى البلاغة وعلى النحو، يقول مصطفى امين : وجدنا ضرورة الالتزام باللغة العربية السليمة البسيطة فى لغة الصحافة المكتوبة ومن الناحية الأخرى فإن هناك بعض الألفاظ العربية الفصحى منعنا استعمالها فى أسياق الحديث الصحفى ووضعنا ألفاظاً متعارفا عليها فى العامية المصرية .

ان هناك كلمات عربية فصحى لا توافق العصر ، أرى أن نحتفظ بعاميتنا وهى لغة بليغة ولا يجب إفسادها ببعض الألفاظ الدخيلة ويقصد الدخيلة على العامية المصرى أى الفصحى .

وهكذا تآمرت الصحافة المصرية على الفصحى لغة القرآن وشجعت العامية خطوة خطوة حتى سيطرت تماما . وفى لبنان ظهرت الدعوة إلى العامية واتسع نطاقها وتآمرت قوى مختلفة من الاستشراق والتغريب فى عدد من المجامع اللغوية على خطة خطيرة ، مازال نرى آثارها فى عديد من البلاد الإفريقية والآسيوية الإسلامية .

وقد لخص الباحثون هذه الميادين التى يعمل فيها المخربون فى ثلاث ميادين :

أولا : تغريب اللغة العربية فى البلاد العربية واستبدالها بلغة أجنبية .

ثانيا : اهمال اللغة الفصحى واستبدالها باللهجة العامية أو الدارجة .

ثالثا : ترك الخط العربي واستبداله بالخط اللاتيني .

وهناك محاولات لإخراج اللغة العربية من مفهومها الخاص كلغة القرآن وفرض مناهج علم اللغات للتحكم فيها وهى مناهج لا تنطبق عليها أصلا من حيث أنها ليست لا تينية من جهة ومن حيث أنها لغة قومية خالصة بحسبانها لغة أمة هى الأمة العربية وذلك أنها إلى ذلك لغة عقيدة وفكر وثقافة لألف مليون مسلم .

(٢)

ان أخطر مايجب ان يستعلن فى هذه المرحلة من حياة الأمة الإسلامية وفى مواجهة هذه الأخطار هو مدى عمق العلاقة العضوية بين اللغة العربية العضوية بين اللغة العربية والإسلام : يقول الدكتور رمضان عبد التواب : لم تحظ لغة على وجه الأرض بمثل ماحظيت به اللغة العربية من ارتباطها بالدين الإسلامي والقرآن الكريم وقد أدى هذا الارتباط إلى خلود العربية الفصحى أربعة عشر قرنا وإلى ماشاء الله ، ولولا هذا الارتباط لبادت العربية وأصبحت لغة أثرية تشبه اللاتينية أو السنسكريتية ولسادت اللهجات العربية المختلفة وازدادت على مر الزمان بعداً عن الأصل الذى انسلخت منه .

فالدراسات العربية بفروعها المختلفة يتعلق بكتاب الله العزيز ، ومن ثم فقد أصبح الإسلام هو المحور الذى دارت حوله الدراسات العربية والمختلفة وقد اتصل الإسلام باللغة العربية اتصالا وثيقا عبر عصور الإسلام ، وكان الباعث هو ضبط النص القرآنى وتعليم المسلمين اللغة القرآنية ، فى رأى ارادكه : أن العربية لم تصر لغة عالمية حقا إلا بسبب القرآن والإسلام إذ تحت قيادة قريش فتح البدو سكان الصحراء نصف العالم لهم وللإيمان بذلك صارت العربية لغة مقدسة كذلك وقد أدت الغيرة على القرآن والرغبة فى صونه من التحريف

واللحن على ألسنة والأعاجم إلى وضع قواعد النحو وعمد العلماء منذ الصدر الأول للإسلام بحاجتهم إلى الشعر العربي للاستعانة به في فتح مغاليق الألفاظ والأساليب العربية الموجودة في القرآن والأحاديث فأكبوا عليه يروونه ويحفظونه ويدرسون أساليبه ومعانيه وما يدور فيه من ذكر لأيام العرب ووقائعهم قال أبو حاتم الراوي : لولا ما بالناس من الحاجة إلى معرفة لغة العرب والاستعانة بالشعر على العلم لغريب القرآن وأحاديث الرسول ﷺ لبطل الشعر وانقرض ذكر الشعراء ولعفى الدهر على آثارهم .

ويقول ابن عباس : الشعر ديوان العرب فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى أبوابها فالتمسنا معرفة ذلك (الاتقان السيوطي) وإذا قرأتم شيئاً فلم تدروا ما تفسيره فالتمسوه في الشعر فإنه في ديوان العرب ومن ثم كان أبو عبيدة معمر بن المثنى من أوائل من ألف في علوم البلاغة (البيان والمعاني والبديع) وغايته توضيح الأساليب القرآنية وكانت « صيانة » القرآن الكريم من اللحن هي التي دعت العلماء في الصدر الأول إلى البحث عن طريقة تعصم من يتلو القرآن الكريم من الوقوع في اللحن حين القراءة في المصحف بسبب خلوه من رموز الحركات وتنسب الروايات الإسلامية إلى أبي الأسود الدؤلي أنه أول من فكر في وضع رموز للحركات يضبط بها الرسم القرآني الذي كان يخلو من هذه الرموز (نقط) حتى جاء الخليل فوضع الشكل الذي نكتب به الآن : الفتحة والضمة والكسرة والسكون والشدة والمدة وغير ذلك

وكان القرآن محوراً لجميع الدراسات العربية التي قامت في الأساس لخدمته

ومنها الدراسات اللغوية ودراسة الفلك لمعرفة مواقيت الصلاة والإلمام بالحساب والمسائل الرياضية المختلفة

وأشار الباحث إلى كتاب (سؤالات نافع بن الأزرق إلى عبدالله بن عباس) في مائتين وخمسين موضعاً من القرآن

(٣)

ولقد كانت المحاولة للنيل من اللغة العربية بوصفها لغة القرآن قديما فقد أثر عن الإمام الشافعي قوله :

ما جهل الناس واختلفوا إلا بتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطو طاليس (اليونانى) وأشار الشافعى بذلك إلى ما حدث زمن المأمون من القول (بخلق القرآن) ونفى الرؤية وغير ذلك من البدع وأن سببها الجهل بالعربية ، قال السيوطى : والجامع لجميع ذلك قوله لسان العرب الجارى عليه نصوص القرآن والسنة وتخريج ماورد فيها على لسان يونان ومنطق أرسطو الذى هو فى حيز ولسان العرب فى حيز آخر ولم ينزل القرآن ولا أتت السنة إلا على مصطلح العرب ومفاهيمهم فى المحاورة والتخاطب والاحتجاج والاستدلال لا على مصطلح اليونان ولكل قوم لغة واصطلاح

ويقول الدكتور محمد رشاد خليل : ان الذين أرادوا أن يجعلوا من المنطق اليونانى أساسا لمناهج البحث فى الإسلام كان ذلك بداية التصدع لأركان الثقافة العربية الإسلامية الشامخة ، فقد اعتمد الأصوليون المتأخرون على المنطق اليونانى اعتماداً كاملا حتى جعلوه أساسا فى مباحث الدراسات الأصولية والفقهية وعمت الأزمة حين اعتمد النحويون واللغويون هذا المنطق أساساً للدرسات النحوية واللغوية .

ولقد أدرك علماء السلف خطر المنطق اليونانى على العروبة والإسلام ورأوا فيه منطقاً خاصا بلغة قوم هم اليونان وهو يستمد مصطلحاته وتصوراته من هذه التى تختلف اختلافاً بيناً عن اللغة العربية التى لها منطقها الخاص والتى نزل القرآن وجاء الإسلام على أساس من مصطلحاتها لذلك رفضه جمهور علماء المسلمين وهاجموه يقول ابن تيمة : يقولون : ان المنطق ميزان العلوم العقلية ومراعاته بعصمة الذهن من أن يغلط فى فكره وليس الأمر كذلك فإن العلوم العقلية تعلم

بما فطر الله عليه بنى آدم من أسباب الإدراك ولا تقف على ميزان وضعى لشخص معين ولا تقليد فى العقليات وجماهير العقلاء فى جميع الأمم يعرفون الحقائق من غير تعلم منهج وضعه أرسطو وهم إذا تدبروا أنفسهم وجدوا أنفسهم تعلم حقائق الأشياء بدون هذه الصناعة الوضعية ثم ان هذه الصناعة زعموا - أنها تفيد فى تعريف حقائق الأشياء ولا تعرف إلا بها وكلا هذين غلط ولسنا هنا فى مجال استعراض النكبة التى حلت بالعربية والإسلام بسبب المنطق اليونانى الذى كان له أثره فى اختلاف الكوفيين والبصريين فى أصل الاشتقاق فقد كان البصريين أكثر تأثراً بالمنطق اليونانى من الكوفيين .

(٤)

ولقد أطلق المستشرقون والغربيون الادعاءات فى حرب سافرة اللغة العربية وادعاءات بأن اللغة العربية صعبة جداً ولأنها لا تستعمل فى التكلم إلا قليلا ولذلك يجب استعمال العامية للكتابة والواقع أن مشكلة اللغة العربية كما يقول الدكتور محمود ذهنى عميد آداب الزقازيق : تبدأ من المناهج اللغوية التى وضعها المستشرقون لتحقيق هدفهم الأساسى هو استبعاد الطالب عن استيعاب اللغة العربية وبعبارة فقد قسمت اللغة العربية إلى أربعة أقسام متصلة [القراءة ، القواعد ، التطبيق ، الإنشاء] والهدف منها فصل كل قسم عن الآخر ، وإذا كانت المشكلة فى المنهج فما هو الحل - انه يقول : لا بد من تغيير هذا المنهج تماماً ولا بد أن تكون الدراسة موحدة متكاملة بالنسبة لجميع جوانب اللغة ومرتبطة أساساً بعيون الأدب العربى ، وانظر إلى تدريس اللغة الإنجليزية فى مصر : انها تقوم على أساس ملخصات للأعمال الأوربية الكبرى التى تمثل روائع الأدب الانجليزى ولكن بطريقة تناسب قدرات الطالب اللغوية والعقلية .

ويؤكد هذا المعنى الدكتور عبد الله الطيب (السودانى) فيقول :

ان الكاتب العربى قاصر من جهة الموسوعة اللغوية وعلى غير ثقة من نفسه من جهة البيان العربى والسبب أن التعليم عندنا غير جيد ، فالتعليم يبدأ بطريقة

متكلفة حيث يدرس الصغير فى أول الأمر كتبا لا تمت إلى بيئته بصلة وفيها ذخيرة محدودة ومحصورة من المفردات ، وتظل تجربته محصورة بين هذه الكتب وبين اللغة الدارجة وبين لغة الراديو والتلفزيون مما ينتج بعد ذلك جيل عيى ، فقد كان من أكبر أخطائنا أننا أهملنا دروس القرآن لأن المسلم لا ينبغى أن يخجل من أن يقول انه مسلم ، وفى الإنجليزية نرى الكتاب المقدس من الأسس التى يدرسها الصغار ويأخذون منها البلاغة ونحن كنا نحفظ القرآن عن ظهر قلب ، ان حفظ ما تيسر من القرآن فى مرحلة مبكرة يفيدنا فهو ناصع التعابير وبه رنة الموسيقى العربية ورنة الجرس العربى الفصيح فى أحسن أساليبه . وقبل أن يتعجل الناس ويصموا اللغة العربية بالعقم والصعوبة ويدعون إلى تنشيطها ينبغى أن يصلحوا أساليب التعليم أولا ، ثم ينظروا بعد ذلك هل يحصل النشء على شىء أم لا ومن الأشياء الهامة التى أهملت تلك المختارات النثرية والشعرية التى كانت تدرس فى سن مبكرة وتحفظ عن ظهر قلب مثل مقامات الحريرى ومن المختارات التى أضعف تلك التى كانت تعطى الناشىء من ديوان الحماسة .

فالجيل الجديد كان أعرف بطريقة التدريس من الجيل التالى (جيل حمزة فتح الله وحفنى ناصف) من المصريين الذين وضعوا قواعد اللغة العربية ووضعوا فى المختارات (لأبيات اللغة العربية) هذه المختارات هى التى أنشأت جيل شوقى وحافظ والعقاد .

اعتقد أن الحل الاول فى حل هذا كل التعليم هو المدرس ، وحل هذه المشكلة لا يتم إلا بأن تتحمل الدولة تماماً عن التعليم ، لابد من اتخاذ الطريق السهل ، وهو أن نرجع مرة أخرى إلى تعلم اللغة العربية من أصولها ، وهذا مهم ، ليس اللغة العربية وحدها وإنما بالنسبة للعلوم الأخرى أيضاً ، فلن يستطيع تعريف الهندســـة إلا المهندس والطب إلا الطبيب والرياضيات إلا الرياضة : الأكفاء فى كل علم وفن . ولكن قبل أن يضطلع الطبيب والمهندس بالترجمة ينبغى أن يكون قد حصل من اللغة العربية على قدر كاف ، لا يمكن تحصيل فى المراحل المتأخرة بقدر ما يمكن تحصيله فى المراحل المتقدمة .

ويصور الدكتور عبد الله الطيب التحدى الخطير الذى يواجه اللغة العربية فيقول : إن العربى بات يشعر بالغربة فى مجتمعنا المعاول الآسيوية الخفية التى تعمل ودأبت على تكسير لغتنا وتحطيم بنيانها تدريجيا دون أن تدمر حتى صار من حقنا هنا أن يتغنى ببيت المتنبى :

ولكن الفتى العربى فيها غريب الوجه واليد واللسان

وهذا ما يحدونا إلى محاولة الوقوف إلى جانب لغتنا لمواجهة خطر هذا الغزو الذى يجتاح كياننا وانحسار مد لغتنا العربية فى ديارنا يثبت أن طريقة تناولنا لها خاطئة ، ولذا علينا تصحيح المسار وكى يكون منطلقنا سليماً علينا أن نبدأ من المنطلق السليم ولا بد أن يكون ذلك بتناول مشكلات تعلم اللغة العربية .

وأشار إلى محاولة فرض عامية مصر على البلاد العربية عقب رواج الأفلام المصرية ، وقال أن ذلك ممكن ضمن البلد الواحد ، ولا بأس فى تصدير اللهجة عربية إلى الخارج التعرف عليها ولكن بشكل عام مايصبح فى بلد عربى لا يصلح فى بلد عربى آخر فاللهجات المصرية تمثل لسانا حضاريا نشأ فى قطاع خاص وروح بما فيه من لين حضرى وأخذ كثيراً من الصحافة والترجمات والمصطلحات الأجنبية التى أغارت من حيث لاندرى على لهجتنا العامة الأصيلة فسلبتها الكثير من محاسنها وقتلت الكثير من ألفاظها الأصيلة فقضت على جانب من البداوة المتمكنة فيها . هذه البداوة اللازمة لإبقاء روح البيان وتغذيته وهذا ما أحس به العرب قديما وما يجب ألا يفقدوا الإحساس به اليوم .

وهناك اتجاه ثانى ارتأى أصحابه إيجاد لغة مبسطة كلغة الصحافة الدائرة بين الناس والتى يزعم أن لها لونا شعبياً حيث أنها تترجم العبارات والمجازات والاصطلاحات إلى اللغة العربية ولكن لهذا الأمر مآخذه أيضاً لأن هذه اللغة البسيطة ستجلب للناس أنماطا غريبة من المجاز والتعبير لم يألفوها من قبل مما سيسوقهم إلى نوع من غموض التعبير وتشابه أسلوب زيد بعمرو ، وإن كان أصحاب هذا الاتجاه قد استقوه من مصادر أجنبية فإنا نقول لهم أن الصحافة

الأجنبية الشعبية (مثل الديلى ميل — الديلى اكسبريس — الصن) تحرص فى صفحاتها الأولى ومقالاتها الافتتاحية على نقاء الأسلوب وجودة العبارة ولذا علينا طرح الفكرة من ذهننا والعودة إلى نقاء وجودة صحافة الثلاثينات والأربعينات فالعلاج الأوربى غير مجد فى لغتنا لأنها لغة ناضجة والتبسيط بها لا يعتبر تطوراً بل أن لها أصولا يجب أن تحترم وتراعى .

إن فساد الذوق والتعبير الأدبى يرجع إلى أننا خالفنا اعتيادنا القديم على القرآن والأدب الدينى المتصل به وعلى الشعر العربى بينما غدا الذوق الآن خاضعا لنظريات كثيراً ما ضاعت وضيعتنا معها وفساد الذوق قادنا لأمر أعظم هو الإفادة من مصادرة خارجية كترجمات الإنجيل التى قد يكون له ما يبرر ضعف بعض تراجمه بسبب حرص البروتستانت مثلا على الاقتراب بعباراتهم المترجمة من أحد النصوص الانجليزية بالذات بالإضافة لتحاشيها لاستعمال الألفاظ القرآنية فى ترجمتها وكل هذا كان على حساب جودة عبارتها ، ومع ذلك فقد راجت بعض الألفاظ ورموز تلك الكتب عندنا مثل كلمة عشتروت التى ترمز لأحد آلهة الخصب لدى العرب كالعزى وطبعا إن فساد الذوق يفسد لغتنا التى تحتاج إلى أن نجعلها تتماشى مع ركب الحضارة حتى نتمكن من نقل علوم الإفرنج المختلفة إلى لغتنا لأن التفكير والخيال شديد الارتباط باللغة ولن نملك وسيلة التقدم بغير ذلك وهذا يتطلب مجهوداً ولذا تدعونا الحاجة إلى تجميل لغتنا وتجويدها وتوسيع دائرتها كى تستوعب كل جديد لتقوى ونقوى بها وهذا أمر لا يتأتى إلا بمواجهة حقائق الدرس والتعليم فهى وحدها التى تسوق للإصلاح وأول هذه الحقائق هى :

إن الفصحى وحدها هى التى تلم الشعث ـ الفصحى التى حفظها القرآن وحفظ نطقها وعرفنا على نحوها وبلاغتها وإن كان الشعر قد درس ليفسر به جوانب من القرآن فالأجدى أن نبدأ بدراسة القرآن والشعر والنحو ، ولا نقول الصرف لأنه جزء من النحو .

ولا بد من تقدير طريقة الكتاتيب القديمة فى التدريس التى كانت تبدأ بتعليم

القرآن بدءاً من الأحرف الهجائية مفرقة مع حركاتها مطولة ومقصرة ، ومن ثم البدء بالصور فالكتابة والقراءة والحفظ دون تقييد الطلاب بسن أو فصل ففيها نوع من الحرية بالتقاء ضمن النظام الموجود عما يشابه بعض المدارس المستحدثة في بريطانيا والتي أنشئت لتحل بعض المشاكل المختصة بنفسية الطالبة ولإفساح المجال لتجاوز المسجد لفترة الدراسة دون تقييده بوقت محدد .

وتؤكد أفضلية طريقة الكتاتيب على الرغم من قدمها على الأساليب المستحدثة لدينا والتي تعتمد على تعليم الأطفال من اشعار صغيرة وجمل خفيفة تتدرج إلى مركبة كبيرة مثل الولد خرج ، خرج الولد فهو أسلوب خاطىء .

الطريقة القديمة تبدأ بالقرآن فالصغير يتعلم القرآن على أنه القرآن كلام الله دون خداع ، والقرآن كلام الله للكبار والطفل يتطلع أن يكون كبيراً وبذا تكون النشأة طبيعية وكذلك يكون التدرج طبيعيا وقد يؤخذ على هذه الطريقة الضرب وإن كان يأتى عفويا عند الخطأ وتربويا هذا أفضل من إيقاف الطفل ومعاقبته من قبل شخص مختص بالعقاب لما نقدمن قبل رجال التعليم فالضرب ضرورى .

ولعل الحلول القديمة لم تعد مجدية لأننا سلكنا سبيلا غير إسلامى وعلى العكس بدأنا نشاهد عرباً فى أكثر من بلد عربى يرسلون أبناءهم للكنائس كى يتعلموا والبداية السليمة لا بد أن تبدأ بلغة عربية على شكل مقنع ، والنحو والشعر تجمع بينهما الضرورة ، فالناس قديماً كانوا يحفظون الشعر وقواعد النحو ، ويحرصون على ذلك ، ثم جاءت دعوى التبسيط مع أن النحو المبسط (اللانحو) إذ قد يقاس بالنحوا على القاعدة كما يقاس على الشعراء .

وفى الغرب لم نكن نجد خريجاً من المدارس العلمية يدرس إلا نحيل ، ولم يعرف فصاحته ونحن يلزمنا الحفظ لأنه يرسخ العبارات والذوق فى الذهن ويجب الإعرض عنه ، وقد مضى دهر والناس ينكرون الحفظ بدعوى أنه يقتل الذكاء والتجارب أثبتت عدم صحة ذلك فالمفترض احفاظ الناس ماهو جيد .

(٥)

ومن المزاعم المثارة ، مزاعم حول الدخيل من لغة القرآن الكريم وهو ما استغله أعداء اللغة العربية الحاقدون على الإسلام للطعن فى فصاحة القرآن وبلاغته وفساد المنهج الذى سلكوه فى تبرير ما ادعوه حول هذه الألفاظ يقول الأستاذ عبد الجليل عبد الرحمن : إن من أكبر أخطائهم اعتبار معظم الألفاظ العربية التى يوجد بينها وبين الألفاظ أخواتها من اللغات السامية نوع من الشبه أنها من الدخيل فى العربية من تلك اللغات (وهذا هو ما إدعاه جورجى زيدان فى كتابه أداب اللغة العربية) .

ولم يقتصر الأمر على هذا بل نجد منهم من المبكر الألفاظ المتعلقة بالحضارة كلها من الألفاظ الدخيلة إلى العربية من غيرها زاعمين أن الناطقين بهذه اللغة لم يعيشوا حياة حضارية فى جزيرتهم بل ان جميع الألفاظ الدينية عندهم دخيلة إلى العربية بحجة أن العرب لم يكونوا أصحاب دين سماوى ، فهم يرجعون هذه الألفاظ إلى اللغة العبرية أو الحبشية (ان اليهود والأحباش من أهل الكتاب) ولا ريب أن اعتبار كل لفظ فى اللغة العربية شبيه بلفظ آخر من لغة من اللغات (السامية) دخيلا إلى العربية من تلك اللغة منهج خاطىء لا يقوم على أساس علمى ، ذلك أن اللغات السامية - كما هو مقرر عند العلماء ترجع جميعها فى الأصل إلى لغة واحدة أطلقوا عليها (اللغة الأم) ثم بمرور الزمن ونزوح الناطقين بها إلى مناطق مختلفة ومجاورتهم لأصحاب لغات مختلفة تشعبت هذه اللغة إلى لهجات مختلفة أخذت تتباعد فيما بعد حتى استقل كل منها عن الأخرى وأصبح لغة مستقلة ، والنتيجة المترتبة على ذلك هى ترجيح أصالة هذه الألفاظ المتشابهة بين هذه اللغات فى اللغة التى ترجح أصالتها وقد رجح كثير من الباحثين أن اللغة العربية هى أصل اللغات السامية جميعا .

ومن هنا تبين أن استدلال جرجى زيدان باطل وحكمه مناف للصواب ، فقد استطاع الباحثون فى اللغات السامية أن يثبتوا لنا أن اللغة العربية هى أكثر

اللغات السامية احتفاظاً بالكلمات القديمة التى يرجح أنها كانت مستعملة فى اللغة الأم من طريق جمع الكلمات القديمة والمقارنة بينها وعلى هذا يكون من الراجح أن هذه الألفاظ العربية التى لا يوجد لها شبه فى اللغات السامية الأخرى مما احتفظت به اللغة العربية من اللغة الأم بينما سقط من تلك اللغات بإهمال الاستعمال أو الاستعاض عنه بلفظ آخر يدل دلالته

ومن ذلك خطأ القول بأن أكثر الدخيل من أسماء المصطلحات الدينية منقول من العبرانية والحبشية لأن اليهود والأحباش من أهل الكتاب .

فقد كان العرب فى جزيرتهم أهل ديانات سماويه قبل غيرهم من أصحاب الديانات فقد بعث الله فيهم من بلغهم رسالة السماء قبل أن يسمع الناس بالديانتين اليهودية والمسيحية وذلك نبى الله هوداً ونبى الله صالحا وقد بعثهما الله برسالة سماوية إلى عاد وثمود قبل بعثة نبى الله موسى وعيسى بل وقبل بعثه الخليل ابراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام .

ومن ذلك خطأ الاب نخله فى القول بأن الكلمات العربية المختصة بالزراعة هى ارامية الأصل ولا يمكن القول بأسبقية لغة من اللغات على اللغة العربية التى نبتت فى جزيرة العرب بالقول بأن بعض الكلمات من هذه اللغات فقد كان العرب فى جزيرتهم أصل ديانات سماوية وكانوا أصحاب لغة الزراعة ، وكانت الجزيرة العربية جنات غناء إبان نبوة هود وصالح .

٢ — ومن ناحية أخرى فقد حاول بعض المستشرقين ارجاع معظم الالفاظ العربية والقوانين الإسلامية إلى أصول عربيه وارامية وحبشيه وسريانيه وكلدانية حتى أن أعرق الألفاظ العربية والإسلامية من مثل :

الصلاة - الله - الزكاة - النبى - الرسول ، السجود ، التجارة ومصطلحاتها يلتمسون لها أصولا فى اللغات السامية وفى العهد القديم من التوراة (ذهب إلى ذلك فنسنك دشاخت دربنان وهرلشد ، وشميدت وعفنح وغيرهم كثير تملأ افتراءاتهم بعض مواد دائرة المعارف الإسلامية .

ولقد قال السيوطى (نقلا عن أبى عبيده) من زعم أن فى القرآن ماليس بلغة العرب فقد أكبر القول ويوافق اللفظ اللفظ ويقاربه ومعناهما واحد واحدهما بالعربية والآخر بالفارسية أوغيرها .

فمن ذلك (الاستبرق) وهو الغليظ من الديباج وهو استبره بالفارسية وغيرها ، وقال السيوطى : وليس فى كتاب الله سبحانه شىء بغير لغة العرب لقوله تعالى [انا أنزلناه قرآنا عربيا) وقوله تعالى (بلسان عربى مبين) وادعى ناس أن فى القرآن ماليس بلغة العرب حتى ذكروا لغة الروم والقبط والنبط ولاريب أن أصالة العربية وصفائها ترجع إلى انطوائها فى أقدم موطن للعرب وبقائها فى منطقة مستقلة بمنزلة فقلت بذلك فرص احتكاكها باللغات الأخرى » .

ولا ريب أن من تآمر الاستشراق ذلك الحرص الملح من الكتاب ليجدوا النظريه العربية البحته مخرجا يخرجونها به من لغتنا ليدخلوها فى لغة أجنبية .

« ٦ »

ومن المحاذير التى تواجهها اللغة العربيـة ، استعمال اللغات الأجنبية فى تدريس العلوم فى البلاد العربية ، ولاريب أن هذه خطة خطيرة ترمى إلى جعل تلك العلوم خارج نطاق حياتنا الفكرية ولا تمكننا من إقامة حضارة إسلامية على أصول مفاهيم الإسلام للعلوم والتكنولوجيا ، وبقاء اللغات الأجنبية قائمة هو تجميد للمسلمين دون إقامة نموذجهم الخاص ، ولقد أعادت إسرائيل لغة ماتت منذ ثلاثة آلاف من السنين وجعلتها وسيلة لاستيعاب العلوم والفنون والسير بها إلى الأمام والفارق واسع وعميق فقد استوعبت اللغة العربية المعاصرة النهضتها من هندسة وطب وفلك وهى قادرة فى الجولة القادمة . ولكن المحاولات تجرى لعزلها عن العلم والحضارة .

وسوف تقتحم اللغة العربية هذا الحصار وسوف تكون من ناحية أخرى لغة المسلمين جميعا فى افريقيا وآسيا ، بديلا عن اللغات الغربيـــة ، لأنها لغة القرآن والعقيدة إلى جوار لغة العلم والحضارة .

الباب الثاني عشر

كسر قيد التبعية فى مجال الأدب

(١)

فى مطالع القرن الخامس العشر الهجرى تورق شجرة الأصالة وتعاود النفس العربية والمسلمة أوبتها إلى المنابع بعد رحلة طويلة فى عالم التيه والتبعية ، بعد أن تكشف فساد هذا الوجهة نرى الأدب العربى يتجه إلى الأصالة ويفارق هذه التيارات المذهبية الدخيلة التى استهدفت التراث العريق الذى حفظته اللغة العربية وتناقلته أجيال الناطقين بها عشرات القرون على حد تعبير الدكتور إبراهيم دسوقى أباظة الذى يقول : إن التراث هو الصخرة العاتية التى يتحطم عندها الدخيل المستورد ، وهو الوثاق الذى يمسك على هذه الأمة وحدتها من النوازع والأهواء ويجنبها التمزق الفكرى والضياع العقائدى ، لقد جاءت هذه التيارات المذهبية لتركب إلى غايتها فنون الشعر والأدب ولتتوسل إلى أهدافها دعوات شتى لدعوتها (١) إحلال العامية بالفصحى (٢) ودعوتها إلى كتابة اللغة العربية بحروف لاتينية ، وأخيراً إلى (٣) تحرير الشعر العربى من قيود القافية والوزن وإطلاقه مرسلا بلا ضوابط ولا مقاييس .

هذه الدعوات التى ادعت التحديث والتطوير برغم مواكبة العصر ، ومسايرة التجديد لا تحركها سوى غاية واحدة وهى هدم الجسور التى تصل أجيالنا الجديدة بتراثها المتواتر وهى جسور اللغة العربية وفنون التعبير التى أتاحتها عبر عصور طويلة من الاجتهاد والإبداع وبالتالى خلق جدار عازل من البدائل الدخيلة بفصل هذه الأمة عن كل مأثور جليل من عمالها لتخلو الساحة للمذاهب والنظريات المستوردة التى لا تخدم فى النهاية إلا أهداف أصحابها ومروجيها . والسؤال هو : كيف يستقيم فيه بغير ضوابط ولا مقاييس ، وإذا ما حررنا فنا من ضوابطه ومقاييسه فهل يمكن بعد ذلك الاحتفاظ بخصائصه وهويته التى يتميز بها عن غيره من الفنون ، أليس الشعر فنا من فنون التعبير اصطلح العرب منذ كانوا على إطلاقه على الكلام الموزون المقفى ، فإذا راق اليوم لنفر من الناس إسقاط

الوزن والقافية من قول أو كلام ليعبروا ما شاء لهم التعبير فهذا حقهم ، وقد يكون فى إنتاجهم هذا إبداع جديد يرمى إلى مرتبة الفن ولكن بالقطع ليس (فن الشعر) الذى اصطلح عليه العرب فى معاجمهم وتراثهم . ولماذا الإصرار على تسمية هذه الصور التعبيرية بالشعر ، إن إخواننا من أقطاب هذا الفن يصرون على التمسح بالشعر ويرهقون على التمسك بأن ما يكتبون هو الشعر ولكن فى لونه الحديث ، فهم يسعون إلى بناء دواتهم على إنقاض ذلك العملاق الذى حفظ على العرب قيما حضارية رفيعة ما زالت تتناقلها الأجيال وهم فى سعيهم هذا يغفلون حقيقة بديهية وهى أن التجديد والتطوير لا يفقد الشىء جوهره ، وجوهر الشعر هو الوزن والقافية فاذا أسقطنا الوزن والقافية أحدمنا جوهره إلى شىء آخر لا يجوز بعد ذلك أن اسميه شعرا ، ومما يدعو الأسف أن تفرض هذه الموجة نفسها على الثقافة فى مصر وأن يظل أقطابها منفرمين بميدان الشعر والأدب بعد أن زالت الأسباب الذهبية التى مكنت لها فى الماضى القريب من احتلال كل الساحة والاستفادة من الانحطاط الذى أصاب اللغة العربية وآدابها طوال ربع قرن ، وأن يواصلوا قذف قرائنا بكل سهل رخيص باسم الشعر والوراثة الشرعية للشعر العربى .

وفى مهرجان شوقى أقصى عن المهرجان كبار رواد الشعر العمودى الأصيل ليسيطر عليه أقطاب الشعر الحديث لترتفع إرهاصات المذاهب المستوردة .

(٢)

ولقد تعالى أمر قضية الدخيل على الأدب العربى بعامة وعلى الشعر العربى بخاصة بما تدعو إلى مزيد من البحث والتحليل على النحو الذى قدمه الدكتور سعد دعبس على النحو الآتى :

(أولا) : الشعر العربى المعاصر يتخذ من الشعر الأوربى مثله الأعلى فلا بدع إذن إذا وجدنا ذلك الكم الهائل من القصائد العربية التى تفيض بأحزان الإنسان المتشائم المتغرب السأمان الذى يحس بعبث الحياة وعقم التكرار التافه

الرتيب وضياع ذات الإنسان وفرديته فى مجتمع مضغوط لم يعد فيه مجال لغناء الذات الفردية وهمومها ، أمام الحضارة الآلية المادية الزاحفة بكل أبعادها وبكل ثقلها فى عالمنا المعاصر وبخاصة فى المجتمعات التى بدأت محاولة اللحاق بعصر الفضاء وليس ذلك السأم المقترب المسيطر على كثير من الشعراء المعاصرين راجعا إلى الزحف الحضارى المادى بل إن هناك تيارات فلسفية معاصرة تغذى نزعات السأم واليأس والعدم والاغتراب .

(ثانياً) : الفكر الوجودى هو أعظم الروافد التى تشيع فى الشعر العربى الحديث موجات الاغتراب والإحساس بالضياع والغربة فى عالم التكرار ، العمل الذى فقد المعنى عالم يحس فيه الإنسان بوحدته وتفرده ، ونفيه فى هذا الكون ، بعد أن يرفض العناية الإلهية ويتمرد على كل قيمة سابقة بعرق تحقيق وجوده .

(ثالثاً) : عبر (اليوت) عن فشل الإنسان المعاصر بحضارته الجوفاء التعسة فى الوصول إلى الحقيقة بين الحطام والدمار والخراب الذى أصاب العالم عقب الحرب الراهنة ، إنه يصف أبناء هذا العالم الصناعى الآلى المعاصر بالرجال الجوف وتشبيههم بتماثيل مايئة بالقش .

(رابعاً) : أهم تيارات الفكر الأدبى تشيع فى الإنسان المعاصر نزعات اليأس والعدم والسأم والغربة والضياع وتحطم فيه قيما نبيلة كأصل النوع الإنسانى وقداسته العائلية وتمجيد البطولة كما تحاول الإجهاز على ما بقى من القيم الروحية ويقف (اليوت) على أطلال الحضارة المادية رافضاً لها داعياً إلى العودة من المادية إلى الكاثوليكية

وبعد : فإن علينا أن نكتشف أنفسنا فى ضوء الشمس بلا عقد أو التواءات أو ما يمكن أن نبنى قيما جديدة نابعة من الفكر الإسلامى فى السياسة والاقتصاد والفن والأدب انبعث عن صياغة النفس المسلمة فى ظل هذه القيم بدلا من الضياع والتشرد فى متاهات الانتماءات واستيراد اللافتات والشعارات .

ألا يمكن للشعر العربي المعاصر بمختلف تياراته الفنية والفكرية أن يستوحى الفكر الإسلامي ويتخذه منطلقاً له ، في هذا العصر الذي أفلس فيه الفكر الأوربي وأفلست معه الحضارة المادية في تقديم العزاء والأمل لروح الإنسان المغتربة .

وكيف يحتفظ الإنسان المسلم في عصر الصراع العقائدي بشخصيته الأصيلة المرتبطة بجذورها التاريخية النابعة من أرضها وطبيعتها دون أن تقدم له فكراً وأدبا وتبطن بأعماقه التاريخية وجذوره الحضارة . إن لكل أيدلوجية أدبا يعبر عن قيمها الفكرية والسياسية ويدافع عن قضاياها ويلتزم بالتعبير عن مجتمعاتها .

إذا كان الوجودية والماركسية مسرحهما وأدبهما وغيرهما من المذاهب والاتجاهات شعراء وفنانون يبشرون بها فلم لا نجد في مجتمعاتنا الإسلامية أدبا وفنا يصدران عن التزام بالفكر الإسلامي . ويبشران بما في الإسلام من قيم إنسانية نبيلة وقيم عالمية معاصرة وما يمتاز به الإسلام عن الأيدلوجيات المعاصرة من قيمة ومبادىء في السياسة والاقتصاد والتشريع والفكر .

« ٣ »

ويرى الأستاذ أحمد فرج عقيلان : أن الشعر الحر ميدان استباحة كل جاهل وساحة كل مفلس وركض في ساحته كل هزيل ، إن الشعر العربي لا يعترف بالشعر الحر ولا يعطيه إسم شعر فهو لا يملك أي نفخة أو مقومة أو ركن من أركان الشعر العربي ، إن وراء هذا التجديد مؤامرة هدم لأدبنا وثورة على تراثنا ولما رأى غالب المؤامرة تمتد إلى دين الأمة وكيانها وجدها أصبح يعتقد أن كشف الأقنعة عن المتآمرين صار فرضا يحتمه الدين ، إن حركة الشعر المنثور واكبت الدعوة إلى اللهجات العامية والحروف اللاتينية وأن الكثير من النقاد والشعراء الذين حملوا لواء التجديد فرضوا على الأدب العربي هذا البلاء المتيد ، لا يطمئن المرء إلى ماضيهم ولا إلى عقيدتهم ولا إلى ولائهم لهذه الأمة

ويقدم لذلك أمثلة من حياة السياب وأدونيس والبياتي ولويس عوض الذي كان مما قاله مؤخراً : إن مصر يجب أن تنفرد حضاريا ولذلك فعليها ألا تتجه شرقاً إلى دمشق وبغداد ولكن إلى الشمال والغرب حيث أوربا ويقول عن نفسه : إنني لست قومياً وافتخر بأني علماني ، وأن يذكر سعيد عقل وصحبتهم جميعاً الشاعر (ت . س . اليوت) الذي حاز على جائزة نوبل عام ١٩٤٨ التي أثبتت الوقائع أنها لا تمنح إلا لمن يرضى عنه اليهود والذي اعترف بأن أستاذه العلمي والروحي الأديب اليهودي (عزرا باوند)

لم ينس الكاتب أن يعدد جنايات هذا الشعر على الأمة وتقدم الأدلة من خلال أشعار أصحابه ونقاده ، وهذه دعوة صريحة الى وقف الانسياق وراء بعض الافكار التي تتنكر للغتنا الشاعرة وأدبنا الرفيع .

« ٤ »

وقد عات دعوة الاصالة إلى التفرقة بين الحرية والضوابط في مجال الأدب والفن ، فإن الالتزام بضوابط أو قيود معينة لا تمنع من أن يكون التعبير دفاقا والعاطفة صـــادقة ، فالالتزام بالضوابط والقيود بناء على عقيدة يؤمن بها الكاتب ، وليس من الضروري ان يعطى الأديب والفنان رخصة الفلات من كل ما من شأنه ان يصلح حياة الإنسان ويقومها ويضبطها ان فكرة إطلاق الحرية للكاتب أو الشاعر بغض النظر عن أثرها في المجتمع فكرة خاطئة تخالف مبدأ الحرية وتطبيقه . حتى في المجتمعات الغربية التي تفرضها دعوة الحرية ، فالقاعدة الأساسية في مبدأ الحرية هي تقيده باحترام حقوق الآخرين وعدم انتهاكها أو تجاوزها ، ومن حق الناس في النظرة الإسلامية أن يعيشوا في مجتمع سليم يلتزم بقواعد الصحة الخلقية ، وطبق المعايير السليمة التي تقوم على أساس الإيمان بالله ، وجعل هذا الإيمان واقعاً عمليا وليس لأحد أن يقول أو يعمل شيئاً يبعث المرض في هذا المجتمع ، وقد جعل الله تبارك وتعالى حياة الإنسان (حبه الخير والميل إلى الاستقامة) وإلى كل ما يزكى فطرته وينميها ، كما أوجد

عنده الميل إلى الشهوات والمغريات وجعل حياته امتحانا يثبت فيه انتصار عقله على شهوته وحكمته على طيشه ، وكل ما يساعد الإنسان على تحقيق هذا الانتصار فهو يستحق أن يسجل ويتداول وما عداه يجب أن يطرح بعيدا ؛ والسؤال هو : هل هذه التجربة تفيد المجتمع إذا سجلت أم تساعده على إفساد أخلاقه ؟ ان الالتزام بالضوابط ليس تقييداً لحرية الأدب وإنما هو توجيه لمشاعره وأحاسيسه وأدبه وفنه ، كى يكون إنتاجه إسهاماً فى بناء الأمة لا هدمها والأدب المسلم الذى يلتزم بعقيدة الإسلام ويعيش حياة إسلامية يستطيع أن يعبر عن كل الأحاسيس والمشاعر بصدق ورفق ، وأن يكون عطاؤه من أعلى المستويات محافظة على قيمه الإسلامية .

٢ — كذلك كان الشاعر الإسلامى (كما يقول أحمد لطفى عبد اللطيف) شاعر ملتزم بأسلوبه سكوتاً وانفعالا ، وقولا وقصيداً فهو فى سلوكه يمثل المبادىء الإسلامية كما أرادها الإسلام وهو فى انفعاله إنما ينفعل بالقضايا التى تمس أمته ودينها ومبادئها ، وفى حديثه ملتزم بمبادىء الإسلام الحقة فلا ينطق هذراً ولا يقول إلا حقا ، وشعره يعبر عن تجربة ذاتية مندمجة مع شعوره بأنه يمثل أمة الإسلام ومبادئها ، وهو منتدب من داخله للدفاع عن قضايا الإسلام والمسلمين وحتى فى التعبير عن خلجات نفسه فإنما يندفع من التزامه بدينه القويم ، فالشاعر الإسلامى إذن هو من ملك عليه إسلامه مشاعره وأصبح الإسلام حياته كلها ولم يعد يعرف له نسبا سواه فأصبح كما قال (نهار بن توسعة) :

أبى الإسلام لا أب لى سواه   إذا هتفوا ببكر أو تميم

وقد أرسى حسان بن ثابت قاعدة الشعر الإسلامى من صميم التصور الإسلامى فقال :

وإن أشعر بيت أنت قائله   بيت يقال إذا أنشدته صدقا

ويقول الأستاذ وليد الأعظمى :

لسانى لم ينطق حراما ولا هوى ‏ ‏ وشعرى لم يهضم كلاما مفندا

ولم أتلون كالذين تلونوا ‏ ‏ وزاغوا وراغوا خشية وتصيدا

وحسبي من الشعر الحلال قصائد ‏ ‏ تطلقت بها أبقى إذا فنى الردى

فالشعر عند شعراء الدعوة الإسلامية وسيلة للدعوة إلى الحق وطريق الهداية وفى خدمة الدعوة إلى الله .

وقفتك شعرى على الحق وحده ‏ ‏ فإن لم أنل إلاه قلت لهم حسبى

وقد هاجم الشعراء الإسلاميين أولئك الذين اتخذوا الشعر وسيلة الشهرة فلم ينبع من قلب ولم يتدفق من عاطفة ، فجاء جامداً كالصخر ، وانتقد الشعراء المسلمون الموجة الجديدة فى الشعر ورأو فى هدم الأوزان القافية هدما للشعر كله واعتبروا الداعين إلى هذا من العاجزين الذين أعياهم الالتزام بالشعر الرصين .

٣ — ويقول دكتور أحمد لطفى عبد البديع :

ليس من الاستقلال فى شىء أن نتذوق الأدب بأرواح المستشرقين لا أرواحنا ونفكر فيه بعقولهم لا لعقولنا فهذا فناء فى شخصيتهم وإلغاء لعقولنا وإنما مثل من يفعل ذلك مثل الغثاء الذى يدفعه السيل أنى شاء وكيف يشاء .

هم قوم يريدون أن يموهوا حقائق التاريخ واللغة ليتحلل الشخص من عصبيته وعقيدته فحينما يدعون إلى حركة التفكير إنما يدعون إلى حرية التكفير ، وإذا صرخوا بأعلى أصواتهم لينقد الباحث آراء القدماء فإنما يريدون أن ينتزعوا الثقة من النفوس ويسلبوا نعمة الاطمئنان من القلوب ولا يجد الحيران فى النهاية سبيلاً إلى تقديس آرائهم والتسليم بأفكارهم فهم كالدولة الغاشمة تؤسس ملكها على أنقاض غيرها .

« ٥ »

ومهما يجرى من غزل الشعراء الأجلاء من المجان والمجىء برداء الشعر الحر ومعظمهم من حملة الرسالات اليسارية ودعاة الاشتراكية العلمية فإن ذلك كله لن يطيل فى أن هذه الظاهرة التى تتهاوى اليوم وتسقط ، وقد أصبحت الفوارق واضحة بين الشعر العمودى الأصيل وبين الشعر الحر الدخيل ، فهذا الأخير – كما وصفه الباحثون المنصفون إقحام متعمد على دنيا الشعر بدعوى التطوير والتحديث ، كان التحديث لا يكون إلا بتحرير الشعر من ضوابطه الفنية وربما حسب هؤلاء أن اللغة العربية قد عقمت فلم تعد مصطلحاتها تتسع لتسمية هذا اللون الحر من ألوان التعبير بالاسم المناسب لبناء ، فلم يجدوا سوى التمسح فى دولة الشعر التى خلدها تراثنا المكتوب وأصبحوا بقدرة قادر شعراء يقتحمون مجالس القصيد بهذه الصفة .

لقد انتهى الفن على أقلامهم وألسنتهم – بحجة التحديد والتطوير – إلى دعاية مذهبية ومظاهرات سياسية وأصبح مسخراً لبث ما يروجون من نظريات وعقائد .

« ٦ »

وقد أشار كثير من الكتاب إلى فشل ظاهرة الشعر الحر حتى وصفها أحدهم بعبارة « انتحار الشعر الحر » يقول جلال العشرى :

الحقيقة التى تفرض نفسها على الراصد لحركة الشعر الحر فى السنوات الأخيرة هى أن هذه الحركة البادرة فى الخمسينيات (جيل الريادة الأول) الناضج فى الستينيات حيث جيل الريادة الثانى) ، قد أخذت فى الذبول والأفول فى منتصف السبعينات وحتى طوالع العقد الثامن من هذا القرن ، وإن بقيت من الشعر الحر بقية ، فهى تلك الذبذبات التى تتناهى إلينا من هذا الشاعر أو ذاك وكأنها الظل

الباقى أو الشفق الحزين أو العزف المنفرد على قيثارة ربة الشعر بعد أن كان هذا الشعر يفضى باصحابه إلى غياهب السجون .

وليست أزمة هذا الشعر فى ركوده وكساده ، ولا فى ضآلته وضحالته ، ولا فى إهتزاز التركيبين اللغوى والعروضى ولكنها فى نضوب معينه ونفاذ كل ما كان فى جعبته ، وليس أدل على ذلك من تكرار صوره ومعانيه واجترار عباراته ومفرداته والعجز عن ابتكار أساليب جديدة للتعبير وصياغات مستحدثة للتفكير حتى لقد تشابهت دواوين الشعراء وكأننا امام ديوان واحد ، وافتقد تيار الشعر الحر الصوت المتميز فضلا عن الممتاز الذى يمده بأسباب جديدة للحياة،

وهناك إلى هذا ظاهرة العودة إلى الشعر العمودى من الشعراء الشبان .

يقول : « بماذا نفسر رجعة بعض شعراء الريادة الأولى مثل نازك الملائكة ونذار قبانى إلى عمود الشعر التقليدى بعد أن هاجروا أوزان الخليل بالذخيرة الحية والعبوات الناسفة ، كما انصرف عن شعر التفعيلة أو الشعر الحر النقاد الذين دأبوا على التقعيد لهذا الشعر والتنظير له ، وولوا الأدبار ، بعد أن أداروا ظهورهم لعمود الشعر التقليدى، بعد أن غلب على اغلب شعراء الستينات التكرار والاجترار والتشابه فى شكل الصياغة ومضمون القضية مما أدى به إلى الانتحار على أيدى أبناء السبعين » .

ولقد قلنا منذ اليوم الأول أن التيار ليس أصيلا وأنه دخيل وزائف .

ولقد أثبتت الأيام أن السبح وراء تيار الأصالة لن تكون نهايته إلا هذه الهزيمة ، ومن بعد فى كل الميادين .

الباب الثالث عشر

تأصيل دراسة التراث الإسلامي

(١)

كان التراث الإسلامي هدف كبير من أهداف الغزو الثقافي والتغريبي من عدة أوجه :

(أولا) : من حيث السيطرة عليه ونقله إلى الغرب بكل أساليب التآمر والسرقة ثم حجب أغلبه عن المسلمين حتى لا يكتشفوا النظريات التي أخذها الغرب من المسلمين في ميادين الاقتصاد والسياسة والاجتماع والتربية وحتى لا يستفيد منه المسلمون في إبتعاث نهضتهم .

(ثانيا) : من حيث تزييفه ونقده وإثارة الشبهات حوله وضرب بعضه ببعض .

(ثالثاً) : من حيث إفساد خطة إحيائه وإبراز الجوانب السلبية والمدوهة والمضطربة منه على المسلمين وحجب القيم الصحيحة ، ثم تسليط التغريبيين على إعادة كتابته على النحو الذى قام به طه حسين فى هامش السيرة والفتنة الكبرى وما قام به بعد ذلك : عبد الرحمن الشرقاوى وآخرون

لقد ركزت حركة إحياء التراث التى قادها المستشرقون والتغريبيون إلى إلى تغريب مسيرة الإحياء فركزت على إحياء التراث الفرعونى والإغريقى والجاهلى العربى والغنوصى والمجوسى الفارسى وتمجيده ، وبعث الأساطير البابلية القديمة وإعادة صياغة الوثنيات والفلسفات المجوسية والسريانية والباطنية وإحياء عشتروت وزيوس وباخوس وهدم تراث واحد بالطعن فيه وحجبه وإعلان زيفه : هو تراث التوحيد الخالص والبطولة الإسلامية الباهرة والأمجاد القائمة على الكرامة والرحمة وإنكار الذات والأخلاق وابتغاء وجه الله وحده ، وكانت محاولات التشكيك تدور حول هذا التراث وحده وتجرى لإخضاعه للمفهوم الماسونى الوثنى القديم حيث يلحق التزييف والتلفيق المتعمد لهذه البطولات والمعارك وإخضاع هذا إلى مقاييس ومفاهيم الفلسفة المادية والعلوم الاجتماعية .

ويرى الدكتور عبد العظيم الديب أنه قد جرت محاولة خطيرة ترمى إلى تفريغ التراث الإسلامى من الفكرة والتاريخ والقيم الإسلامية وملأ هذا الفراغ بعلوم وفنون وآداب لا تمت إلى الماضى بسبب ، وقد أدى هذا إلى الانقطاع : انقطاع غربة الأمة ليضيع منها الطريق ثم تجاوز ذلك إلى ما هو أبعد وأخطر وهو استعداء أبناء الأمة على تراثهم يعيبونه ويسبونه . وحينما ينقطع استمرار (تجربة الأمة) ويضيع منها الطريق وتفقد الإحساس بماضيها وتنزع تاريخها من ضميرها ويزول أثره من مشاعرها ونفسها ، حينئذ تبدأ « الأزمة » .

ويقول الدكتور عبد العظيم الديب : إنه منذ حوالى مائة وخمسين عاما وقياد الفكر والثقافة يكاد يكون بكامله فى يد طبقة منفصلة عن الأمة ولقد كانت المخطوطات هى أكبر أوعية التراث والتراث يرتبط بمصطلح متداول هو [الإحياء] فالإحياء هو : تجديد صور التراث المختلفة وأوعيته المتنوعة ، وجعلها فى متناول الأجيال حتى تحيطها بما يجب لها من التقدير والإجلال .

ويعنى [الاحياء] أن نعود إلى ماضينا وتاريخنا استطلاعه فندرسه ونعيه ونجعله قائماً بذا كرتنا ، حيا فى نفوسنا ، وعندها سيكون أثره فى واقع حياتنا تلقائياً ساريا .

ثم تساءل : هل نقوم بعملية غربلة وانتقاء نأخذ منه الإيجابيات ونترك السلبيات ؟ وأجاب . لا : إن عملية [الإحياء] لا تكون باختيار الصواب من التراث انفصل مثله وترك الخطأ خوفاً منه ، فنحن نستفيد من صوابه ومن خطئه وبالقدر نفسه ، بل نستفيد من خطأه وسلبياته أكثر من صوابه فإن صوابه وإيجابياته تطورت وتخطاها الزمن وسنبنى فوقها ولكن خطأه وسلبياته تظل إنذاراً يحذر وعلامة مرور على الطريق .

ان بعضاً من ينادون بغربلة التاريخ مضللون انا ، ان الامم لا تنكر ماضيها فلا يملك أحد أن يقول . هذا نتركه وهذا نهتم به فالاختيار معناه أولويات والغربلة معناها إسقاط

(لقد بقى لنا ثلاثة ملايين مخطوطة موزعة بين مشارق الأرض ومغاربها)
إن ثلاث ضربات وجهت التراث الإسلامى: الحروب الصليبية والتترية فى الجناح الشرق والفرنجة فى الأندلس فى الجناح الغربى) .

لقد عاشت أمتنا حياة الجهاد ، طوال تاريخها ، لقد انتقل هـذا التراث فى المخطوطات إلى ايدى المستشرقين وكثير منه اخذ غيلة واختلاساً وان مانفكر منه الآن هو بسبب دراسات المستشرقين فقـد شوهوا علومنا وفكرنا ، ان كتاب ألف ليلة وليلة وكتابات المعتزلة وإخوان الصفا هى الأعمال التى يجدونها فى التراث ويظهرونها لنا ويزعمون أنها هى التيار العقلانى ثم لجأ تلامذتهم إلى الحلاج والسهروردى وابن عبدالقدوس وابن المقفع وإلى الزنادقة . والدهش كيف اختاروا الذين قتلوا بسبب الزندقة جميعاً وكتبوا عنهم الخرمية والبابكية والقرامطة فقد راحوا يلوون أعناق النصوص ويسخرونها ليجلبوا لأمتنا أوزاراً كثيرة وليس أصدق فى هذا المجال من مقولة الدكتور محمود قاسم :

[انهم نقلوا المسلمين إلى أرسطو ونقلوا أنفسهم وقومهم إلى مناهج المسلمين]

قال كشيانى فى كتابه حوليات الإسلام :

« انه يريد أن يفهم سر المصيبة الإسلامية التى انتزعت من الدين المسيحى ملايين من الأتباع فى شتى بقاع الأرض مازالون يؤمنون برسالة محمد ويدينون به نبياً ورسولا » .

وقد أرسل كشيانى ثلاث حملات إلى مناطق المسلمين صورها جغرافيا وطبوغرافيا .

ان الاستشراق والسياسة والتنصير وجوه لعملة واحدة .

إن الهدف هو قطع الصلة بالتراث بكتابة العربية بالحروف اللاتينية ،

ولقد أصبح تراثنا الفقهى وثروتنا التشريعية الهائلة غرضاً للجاهلين والحاقدين والمعتدين الذين يعتدون على تراثنا ويتهكمون على شرع الله فتارة يزعمون أن اعتداءهم اجتهاداً ، وآخرون يقولون ان مايثبتونه من سموم فكرية هو حرية الرأى .

(٢)

أشار الدكتور فؤاد سيزكين إلى موقف الغرب من التراث الإسلامي بناء على تجربته الواسعة في مراجعة تراث العلوم الإسلامية ، حيث بدأت ترجمة كتب الكيمياء والطب وأحكام النجوم من اللغة العربية إلى اللغة اليونانية في أواخر القرن الثالث الهجري وكانت أقدم مترجمات الغرب تتعلق بالاسطرلاب وبالهندسة العملية ، ولم يجدوا في كثير من الأحوال اصطلاحات لاتينية مقابلة للاصطلاحات العربية مما اضطرهم إلى استخدام المصطلحات العربية كما هي ، وقد انطلق اللاتيني من مبدأ الانتحال وكان الموقف الإسلامي واضحاً في إسناد الأقوال إلى أصحابها .

وكان أخذ اللاتين العلم من أعدائهم في الدين والسياسة قد أدى إلى الانتحال لإخفاء المؤلفين الحقيقيين ، وذلك خلافاً للمتبع عند المسلمين فقد كانوا يأخذون من أبناء دينهم وغيرهم دون أي مانع معنوي ، وقد فتحت ترجمات قسطنطين الأفريقي في أوربا الأبواب لطلب العلم ، والطب بعد أن كان الطب الشعبي المليء بالخرافات هو المتداول في أوربا ، يقول موسى الموسوي : دخلت العلوم الإسلامية أوربا في عهد الترجمات واحتلت مكاناً كبيراً في الفكر الأوربي ولكن أغلبية المستشرقين الأوربيين بخست ذلك وأخذت الكثير من هذه العلوم دون أن تشير إلى المصدر الأساسي الذي هو الإسلام ، كان قانون ابن سينا يدرس في الجامعات الأوربية حتى القرن الثامن عشر وآثار الغزالي ترجمت إلى اللاتينية ودخلت الفكر الأوربي وقد أخذ (ديكارت) كثيراً من آثار الغزالي نصاً وروحاً وأن كثيراً من آثاره التي أقام الدنيا وأقعدها فيما يتعلق بفكره (أنا أفكر فأنا موجود) أو الأدلة التي يستند عليها في إثبات وجود الله كلها كانت موجودة في الفكر الإسلامي .

ويقول عمر فروخ : إنه للأسف غمطت حقوق العرب وكان هناك من يعمل على حذف دور العرب ، وقد حذفت مواد رائعة كانت قد ظهرت في الموسوعات الماضية عن دور العرب .

ويقول دكتور فؤاد سيزسكين : انه منذ ما بدأت حركة التأليف الغربية في القرن الثالث عشر الميلادي ، وجدنا المؤلفين يفخرون أحياناً بكونهم مقلدين للعرب وتلاميذ لهم وليس في هذه الكتب جديد بالنسبة إلى الكتب العربية وهي اقل في المستوى من مصادرها العربية ، وقد عرفوا بطليموس عن طريق الكتب العربية ومنها وصل علم الفلك إلى مستوى أفضل مما في كتاب بطليموس ، ومدرسة أرسطو التي أنشأها هارتوس العظيم لم تمكن تفهم اليونانية ، ولم تعرف كتب أرسطو طاليس إلا بواسطة شروح ابن سينا وابن رشد وهو مؤسس علم الحيوان والنبات والعلوم والكيمياء أخذها مما وجدها في كتب ابن سينا وابن رشد وجابر بن حيان ، وأن كل اكتشافات (روجر بيكون) أخذها كلها من العلماء العرب ثم جاءت ظاهرة انتحال الكتب العربية ونسبتها إلى علماء الأغريق : ومنها نسبة كتاب حنين ابن إسحاق في العين إلى جالينوس ونسبة كتاب نور الدين البطروجي في الفلك إلى أرسطو .

وفي القرن الرابع عشر الميلادي ، بدأ تلخيص الكتب المترجمة من العربية ، وقد اعتادوا حذف أسماء العلماء العرب ، وذكروا بدلا منها أسماء علماء الأغريق المشار إليها في المصادر العربية ، ذكروا بطليموس وكتابه في الفلك مع أن مصدرهم كان كتاب التباني ، ان نسيان العلماء العرب منذ القرن الرابع عشر يرجع إلى عاملين آخرين مهمين :

(أولهما) ظهور التيار المناهض العربية وقد نشأ هذا التيار في نهاية القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر بضراوة وشدة ، انها العقدة النفسية تجاه أسماء العلماء العرب ورائد هذا التيار المناهض العربية هو (رايمونلولوس) وقد وصل إلينا أكثر من سبعين كتاباً اتضح من بحثها أنها جميعاً مؤلفات عربية وقد استمر هذا التيار إلى أواسط القرن السادس عشر .

(ثانيهما) : الطموح والولع بالتفوق الحضاري فكانت الاكتشافات المهمة لعلماء المسلمين تنسب حتى يومنا هذا إلى علماء أوربيين في القرن الثالث

عشر و ١٤ ، ١٥ ومن هذا القبيل اكتشاف الحجرة المظلمة فى النظريات وكشف المثلثات الكروية والآلة الملكية المسماة باسم عصا اليعقوبى وتأسيس التجربة وهى مكتشفات نسبت دون وجه حق إلى (ليفى بن جرين) وزاعت شهرته بها ولم يسجل أحد من الباحثين كيف يمكن لرجل واحد أن يكتشف هذه الاكتشافات الخطيرة واليوم نعرف المكتشفين الحقيقيين لها من العلماء العرب .

وإلى جانب الكتب المترجمة فثمة وسائل أخرى لإخفاء الإنتاج العلمى العالم الإسلامى ، إن الكثير من الاوربيين بعد أن أدركوا أهمية العلم الإسلامى شرعوا فى الرحلة إلى الشرق والإقامة به سنوات طويلة وتعلموا اللغة العربية ودرسوا العلوم وعادوا ومعهم العلم والكتب .

إن العالم الإيطالى ليوناردو دافينشو راتبوس أول علماء الرياضيات اللاتينية تعلم العربية ودرس الرياضيات فى تونس وتنسب إليه اكتشافات خطيرة فى تاريخ الرياضيات ، هذه الاكتشافات هى اقتباسات من الكتب العربية وثمة وسيلة أخرى لأخذ العلوم العربية هى طريقة النقل الشفوى ، ومنذ القرن الثانى عشر عرف العلماء اللاتينيين الذين لا يفهمون العربية الإنتاج العلمى العلماء المسلمين عن طريق الترجمة الشفوية ، كانوا يستفيدون من تلك الكتب دون أن تكون قد ترجمت فى أوربا ، أو كتب ترجمت وخفيت ترجمتها على الناس ، ويبدو ان الامر كان معروفاً للمسلمين ، لذا كان عليهم فى كتب الحسبة أن يحذروا بشكل رسمى من بيع كتب العلم لليهود والنصارى إلا ما كان من شريعتهم فإنهم يترجمون كتب العلم وينسبونها إلى أهلهم وأساقفتهم وهى من تأليف المسلمين ، ومن ذلك ان كوبرنكوس أخذ نظرياته عن دوران السيارات عن الفلكيين المسلمين الذين عاشوا فى القرن ١٣ و ١٤ ونعرف الآن بالدليل القاطع أن مدرسة لترجمة الكتب العربية والفارسية إلى الإغريقية قد تأسست فى (طرابيزون) على ساحل البحر الأسود وأخرى قامت فى القسطنطينية فى القرن الرابع عشر للميلاد ، ومعنى هذا كله أن يكون المسلمون على إلمام تام بالمؤامرة على تراثهم :

أولا : إنكار فضل العرب والمسلمين فى بناء المنهج العلمى التجريبى .

ثانيا : مؤامرة الصمت حول الدور الذى قام به المسلمون فى العلوم والحضارة

ثالثاً : تزييف لصبغة كتب العلوم إليهم على النحو الذى فصله الدكتور فؤاد سزكين فى هذا المبحث

(٣)

نحن الآن فى حاجة ماسة إلى معرفة السموم التى دخلها الإستشراق والتغريب إلى التراث الإسلامى وأبرز ماهو مطلوب منا الآن :

(تنقية التراث الإسلامى من مفاهيم الباطنية والشعوبية ومن الإسرائيليات) وهو مابينه له أسلافنا فى القرن السابع الميلادى حين حفلت المحافل بالرد على الشكوك التى أثارها اليهودى (ابن كونة) فكتب الشيرازى رسالة فى تفنيدها وتجمع السخط على ابن كونة فى كتب منها :

الرد المنضود فى رد فيلسوف اليهود لظفر الدين البغدادى المعروف بابن الساعاتى ومنها كتاب الماردينى

ويتحدث الدكتور السيد رزق الطويل عن الإسرائيليات والتراث الإسلامى فيقول : استطاعت الإسرائيليات والاباطيل أن تتغلغل إلى صفحات التراث الاسلامى العريق فى تفاسير القرآن والأحاديث النبوية روايات لا يقرها العقل ، والدين منها براء لصقت بالإسلام فى زمن غفل فيه المسلمون عن دينهم ، المطلوب تنقية التراث من الدسائس بعد أن انتشرت الكتب فى الأسواق والمكتبات .

إن تنقية التراث وتحقيقه يعتبر من أخطر الموضوعات التى يجب التصدى لها لأنها تسهم فى تكوين عقل المسلم الصحيح ، إن أعداء الإسلام عند ما فشلوا فى التصدى له بقوة السلاح حاولوا الكيد له بطريق الدس والتزييف والتحريف فى الفكر الإسلامى عن طريق إشاعة الأباطيل والإسرائيليات ووضع الأحاديث وتحريف حوادث التاريخ ، ففى كتب التصوف كثير من القصص

والأخبار التى يرفضها الإسلام رفضا قاطعا ، وأبرزها (الطبقات الكبرى) للشعرانى و (الأخلاق المتبولية) .

ويقول الدكتور أحمد لطفى عبد البديع : إن نشر التراث يتطلب توثيق النص والتعقيب عليه من جهات شتى ، من كشف الغامض ونسبة ما أغفل ، وفهمه تعبيراً عن عصره ، وهناك تحفظات بالنسبة للجانب اللغوى ، ذلك أن فى نشر التراث غير معقب عليه محاذير لأن أكثرها يصدر الحكم بالتخطئة على المتن من العبارات التى تجرى بها الأقلام فى مختلف مجالات التعبير وأن شعور المسلمين بالخوف على الإسلام هو شعور قوة وشعور صحة ، وكان قائماً فى كل عصر وموجوداً فى كل بيئة إحساساً بأن هناك قوى تحاول أن تزيف مفهوم الإسلام وفى مواجهة أخطار الوثنية والشعوبية ، ومحاولة صهر فكرنا فى بوتقة الأممية .

* * *

الباب الرابع عشر
تحرير الترجمة من الفكر الغربي

أن الترجمة من الفكر الغربي هي بمثابة مأزق خطير يحتاج إلى وعي كبير وإلى يقظة وفهم لما نحتاج إليه فعلا من هذا الفكر والتحفظات المتصلة بما تترجم بحيث ينقل إلى العربية ما نحن في حاجة إليه فعلا ، وأن نعرف موقعها الحقيقي في فكرها ومدى حاجتنا فعلا إلى هذا المترجم والحفاظ على روح اللغة العربية ، ووجود العقيدة الصحيحة بأننا حماة الفصحى لغة القرآن وأن كل مايترجم إليها يجب أن يكون في خدمتها ويكون مادة خاماً لها وذلك حتى نقطع الطريق على المحاولات الخطيرة التي يقوم بها التغريب والغزو الثقافي الذي يحاول أن يتخذ من الترجمة وسيلة إلى احتواء فكرنا وتغيير قيمنا ودفعنا إلى اعتناق قيم الأمم التي نترجم منها ، فقد استطار عند المستشرقين والمبشرين والتغريبيين الدعوة إلى تعليم اللغات الأجنبية لأبناء المسلمين وترجمة كتب الغرب التي يسمونها بالفكر العالمي أو الآداب العلمية بهدف احتواء عقلياتنا بمضامين تختلف عن مضامين الإسلام التي قام عليها الأدب العربي والثقافة العربية والفكر الإسلامي ونحن حين نحاول تقويم ما ترجم إلى اللغة العربية خلال هذه الفترة التي امتدت منذ سيطرة النفوذ الأجنبي على بلادنا إلى اليوم نجد أن أغلب ماترجم كان داخلا في خطة المؤامرة فهو إما قصص جنس وتافه وصور خليعة وداعرة ، تقدم مفهوماً لا تقبله كمسلمين للعلاقة بين الرجل والمرأة وبين الزوج والزوجة وبين الآباء والأبناء مما كان له أخطر الأثر في سقوط أولادنا وبناتنا في شرك الجناية والخيانة والجريمة ، أو ماترجم عن كتب الفلسفات الاجتماعية والأخلاقية والنفسية وكلها تقدم مفاهيم وأعرافاً ليست إسلامية مما كتب دعاة الفلسفة المادية والانحلال الخلقي أمثال فرويد ودوركايم وسارتر وغيرهم أما ماترجم من كتب الرسمالية والماركسية وغيرها مما يمثل مناهج من الاقتصاد تختلف تماماً عن مفهوم الإسلام ، وبالجملة فإن هناك قدر قليل جداً وضئيل جداً

مما ترجم مما ينفع ، أما الباقى فهو من تفاهات الأمم فقد نقلنا القصص الجنسية والأساطير والنظريات التى ثبت فشلها وزيفها وقد جرى ذلك كله فى مرحلة من المراحل التى لم تمتلك فيها أمتنا إرادتها وكانت تحت سيطرة النفوذ الأجنبى أولا ثم نفوذ التغريبين الذى ربام النفوذ الأجنبى وجعل لهم السيطرة على مجالات الثقافة والتعليم .

ومن ذلك وأخطر منه سيطرة اللغات الأجنبية على العلوم فى الجامعات : اللغة الإنجليزية فى الطب والفرنسية فى القانون وحين تعلو الصيحة للعودة إلى الأصالة والدعوة إلى تحرير الثقافة والتعليم بإعادة اللغة العربية نجد من يدافع عن اللغات الأجنبية ويتحيز لها فى دعوى كاذبة بأن اللغة العربية غير قادرة على التعبير عن علوم العصر ويكفى الرد على ذلك الدور الذى قامت به اللغة العربية فى عصر النهضة الأول ، وقد حملت أمانة الفكر العالمى ألف سنة كاملة ، وما نراه الآن من قيام إسرائيل بإحياء لغة ميتة بعد أكثر من ألفى عام ونقل العلوم إليها من جميع اللغات فضلا عن أن اليابان تستخدم اللغة اليابانية فى العلوم والصين تستخدم اللغة الصينية ومن المحتم علينا لإقامة حضارة إسلامية التحول فوراً إلى اللغة العربية فى العلوم وأن تتم عمليات الترجمة تحت رقابة حذرة وأن كل ما يترجم لابد أن يكشف وجهة ترجمته ، وظروفه وموقفه من لغته وفكرها .

يقول المهندس أحمد حسن مأمون : إن استخدام اللغة العربية فى تعليم العلوم الهندسية والطبية والمواد العلمية عموماً هى قضية من أخطر قضايا الأمة العربية وإن تأخرنا فى حسمها فإن ذلك قد أصبح يهدد بالدثار الحضارة العربية جميعاً وقد ظهرت بوادر ذلك فى بعض المناطق العربية ، ليس فقط بالنسبة للمجالات العلمية ذلك أن العصر الذى نعيش فيه هو عصر العلم والتكنولوجيا .

فإذا لم تستطع اللغة العربية أن تستوعب هذه العلوم وتعبر عنها فإن مصيرها الزوال كنتيجة حتمية لعدم استخدامها ويزيد من حدة الأزمة أن سمة العصر هى التقدم والسرعة وأن معدلات التقدم فى تزايد مستمر حتى يتضاعف عدد الكتب العلمية والفنية مما يزيد عمق الهوة بين الحضارة والإسلامية والحضارة الحديثة .

« ٢ »

ومن ناحية أخرى فى مجال الترجمة تبرز قضية تقديم الإسلام إلى العالمين ، وهل يقدم الإسلام باللغة العربية أم باللغات الأجنبية ، ونبتت هذه القضية نتيجة اعتماد بعض المسلمين فى الغرب على بعض الكتب المترجمة إلى الفرنسية والإنجليزية وغيرها من اللغات .

والرأى أن الترجمة مهما كانت دقيقة ومعبرة فإنها لا يمكن أن تعطى الصورة الصحيحة الدقيقة لمدلولات الألفاظ فى لغة أخرى لها اصطلاحاتها ولها استعمالاتها ولها أوعيتها المرنة ومترادفاتها الغيبية ولها مجازاتها واستعاراتها وكناياتها حيث لا تتسع لذلك لغة أخرى مهما كانت المحاولة جادة وأمينة وصادقة ، ناهيك عن ثقافة المترجم وفهمه لمدلولات الخطاب الإلهى ومدى تأثيره والمداخلة التى يمكن أن تتم من خلال كل العوامل النفسية والثقافية المكونة لشخصيته الفكرية وهى معرفة لا يمكن أن تتأتى الا من خلال معهود العرب فى الخطاب ولغة العرب أيضاً ، وان العربية هى الوسيلة الوحيدة فى نهاية المطاف لفهم الإسلام .

وهنا لا يتوقف التغريب بل يدس السم ليقول ان الدعوة إلى فهم الإسلام باللغة العربية هى دعوة اقليمية ، وذلك لإفساح المجال للتزييف الذى يستطيعون أن يقومون به فى المترجمات ، والواقع أن الإسلام فى مرحلته الأولى حين يقدم باللغات الأجنبية يجب أن يكون معروفاً أنه لا يستطيع تمثل الإسلام حقيقة ، كذلك فإن ترجمة معانى القرآن لا تستطيع أن تضبط جوهرها ، وهذا يتطلب نقل المسلمين إلى العربية .

وقد أورد الأئمة الشافعى وابن تيمية فى ذلك كلاماً هاماً فقال (الإمام الشافعى) ان على مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما يبلغه جهده حتى يشهد بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويتلو به كتاب الله وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير والتسبيح والتشهد .

وقال (ابن تيمية) : إن نفس اللغة العربية من الدين ومعرفتها فرض واجب فإن فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهم الا بفهم اللغة العربية وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب .

الباب الخامس عشر

تحرير المفاهيم الإسلامية من الفلسفة الباطنية

(١)

لقد كانت دعوة الإسلام المسلم إلى تزكية النفس والمجاهدة والزهد فى الدنيا وأخلاقية السلوك دون أن يحول ذلك بينه وبين السعى والعمل والارتباط بالمجتمعات وإقرار حق العبودية لله فى التعامل مع خلقه من القضايا التى دخل عليها كثير من المفاهيم الزائفة والانحرافات وخاصة بعد ترجمة الفلسفة اليونانية والفارسية والهندية الوثنية والإباحية مما أثر فى مفهوم الأخلاق والتربية وتزكية النفس وظهرت مفاهيم سقوط التكليف والعشق الإلهى ، ووحدة الوجود والحلول والاتحاد وذلك بظهور شخصيات منحرفة أمثال الحلاج والبسطامى وابن عربى وابن سبعين وابن الفارض والجيلى والسهروردى الذين أخذوا مفاهيم المسيحية والأفلاطونية وعلم الأصنام عن اليونان ومزجوا ذلك كله بزائف من الفكر الإسلامى ، ولما كانت حركة التغريب والغزو الثقافى حريصة على العمل فى مختلف الميادين فقد كان لها دورها وتآمرها فى هذا المجال حيث جندت عدداً من المستشرقين لإحياء هذه المفاهيم القديمة التى زيفها المصلحون الذين كشفوا عن جوهر مفهوم أهل السنة والجماعة بعد استشراء الرياح الصفراء التى حملتها الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية إلى أفق الإسلام فكتب نيكلسون وجولدزيهر وكثيرون وعكف واحد منهم هو « لويس ماسنيون » أربعين سنة على إحياء تراث « الحلاج » ليعيدوا طرحه مرة أخرى على شباب المسلمين فى هذا العصر . كما فعلوا حين أحيوا تراثا زائفاً من الشعر الفارسى الفاجر ونسبوه إلى عمر الخيام زوراً وبهتاناً ، وفى السنوات الأخيرة عند ما علت صيحة اليقظة الإسلامية بدأ التغريبيون فى الحديث عن الحب الإلهى والعشق الإلهى ورابعة العدوية ولاريب أن صيحة العودة إلى المنابع التى برزت فى مطالع القرن الخامس عشر الهجرى تستدعى كشف هذه الوجهة :

يقول الدكتور موسى شاهين لاشين : إن أخذ النفس بالعبادات والزهد كسلوك وبصفة مستمرة مخالف للإسلام ، لأن الإسلام طلبهما بقدر وعلى فترات لا بصفة السلوك المستمر ، لقد اتسع مفهوم التصوف في القرنين الثالث والرابع الهجرى واستخدم المتصوفة تعبيرات واصطلاحات غير معهودة في الإسلام ، بل رأينا شبهاً واضحا بين حالات التصوف وبين الديانة الهندية فحالة الفناء عند الصوفية تشبه حالة (النرفانا) أو النجاة عند الهنود ؛ ويرى بعض العلماء أن التصوف له صلة وثيقة بالنصرانية لوجود الشبه بين حياة المتصوفية وتعاليمهم من ناحية وبين حياة المسيح وتعاليمه ورهبانية النصارى وطرقهم في العبادة واللباس من ناحية أخرى ، كما يلتقى التصوف فى بعض أفكاره مع الفلسفة الأفلاطونية فهى تقول : ان الحقيقة العليا لا تدرك بالفكر وإنما تدرك بالمشاهدة فى حالة الغيبة عن النفس والعالم المحسوس ، والتصوف يقول : ان المعرفة تكون بنور يقذفه الله تعالى فى قلب العبد بعد صفائه فسبيل المعرفة واحد عند الصوفية والأفلاطونية ، وقريب من هذا قول الغزالى : ان العقل يعجز عن كشف ومعرفة الحقيقة اليقينية ، وان القلب وحده هو القادر على معرفة الله بالكشف وقوله : ان عين القلب تستطيع أن ترى الله فى حالة اليقظة ، كذلك فإن كلام ابن عربى عن حدود الوجود والحقيقة المحمدية يشبه فى الفلسفة الأفلاطونية مراتب الوجود التى تعنى العقل الأول والنفس الكلية والمادة غير الصورة والنفوس الجزئية ، كما استخدم الصوفية الأشراقيون كثيراً من الألفاظ الاصطلاحية والأفلاطونية كالكلمة والحقيقة والمثل والفيض والوحدة والكثرة ونتيجة لهذا (الاتحاد الصوفى) قامت المعارك بين الفقهاء وبين الصوفية فاتهم الفقهاء الصوفية بخلق البدع بل وبالكفر والإلحاد ، ولولا الإمام الغزالى فى القرن الخامس الهجرى لضمر التصوف واختفى أمام هجوم الفقهاء .

أضفى المريدون على مشايخهم آيات التقديس والإجلال ونسبوا إليهم أوهاماً وخيالات على الولاية والكرامات وتعددت الطرق المتنابذة ، واتخذت كل طريقة لباساً خاصاً وعلماً خاصا وشيخاً ومريدون وتحول كثير من مشايخ الصوفية إلى جباة يفرضون الإتاوات ويأكلون من أيدى المريدين سحتاً وحراما

ان كثيراً من مشايخ الصوفية قد غرسوا فى نفوس مريديهم أنهم أولياء الله فى أرضه وأنهم وصلوا إلى أن يقولوا الشىء كن فيكون وأنهم يعلمون الغيب ويراقبون العبيد ونشروا درجات الأولياء التى اخترعها ابن عربى حيث يقال بالقطب وهو الغوث وهو عبارة عن واحد فى موضع نظر الله من العالم فى كل زمان ومكان وبالإمامين وهما شخصان أحدهما عن يمين الغوث والآخر عن يساره الخ الخ .

والتصوف بدأ كظاهرة تطرف إسلامى لمقابلة تطرف البعد عن الإسلام وذلك عند ما اتسعت رقعة الدولة ودخل الإسلام من يكيد له ، وازدهرت الدنيا للمسلمين وقنعت قلوبهم واتجهت الحواس إلى الملذات خاف بعض العابدين على دينهم فاعتزلوا وتنسكوا وانقطعوا إلى العبادة ولبسوا الخشن .

ولقد كتب الكثيرون يكشفون عن الفوارق العميقة بين التصوف السنى المعتدل الذى يمثل الغالبية العظمى من شيوخ التصوف والتصوف الفلسفى الذى عرف بأسماء الحلاج والبسطامى وابن عربى وابن سبعين ، وقد تحدد موقف الإسلام من هذا الفكر بالرفض التام .

وقد سلك التصوف المصرى - كما يقول الدكتور أبو الوفا التفتازانى منهجاً مغايراً لمنهج فلاسفة التصوف وكان منهجهم عملياً أخلاقياً بعيداً عن التطرف والمغالاة والشطح وأن أمثال ابن عربى وابن سبعين جاءوا إلى مصر بحثاً عن النفوذ والأتباع والترويج مذاهبهم فنشاروا وكان مصيرهم مصير كل الدعوات والمذاهب التى تصادم نزعة الاعتدال .

وقد أشار الشيخ حسنين محمد مخلوف إلى هذا التيار فقال : إن هناك تصوف كاذب زائف انتحله قديماً قوم أشربوا تعاليم الباطنية والحلولية وتدثروا بدثار الصوفية إجتذاباً للعامة وتغريراً ودسوا فى التصوف إلحادهم ومقالاتهم الشنيعة فى الدين كابن سبعين الأشبيلى المتوفى سنة ٦٦٩ واضرابه إفساداً للعقائد العامة من المسلمين وهؤلاء ليسوا من الصوفية ولا من التصوف فى شىء ، وإنما هم زنادقة

ملحدون وقد كشف حقيقتهم وفند مزاعمهم كثير من أئمة الإسلام ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام ابن القيم

وقال الدكتور التفتازانى إن المدرسة السلفية (ابن تيمية وابن القيم) لم تنكر التصوف كسلوك وتربية وأن ابن تيمية كتب رسائل فى التصوف وكان يسميه علم السلوك وأنكر ابن تيمية التصوف الذى يسرف أصحابه فى ربطه بالفلسفة ونحو نحذره منهم ، وفيها تقديس الأولياء والتصوف الصحيح هو الذى يتجه إلى تربية النفس ، وقد قبل الشيخ محمد بن عبد الوهاب والمدرسة السلفية من التصوف ما كان سلوكا .

(٢)

وقد انتشر فى السنوات الأخيرة حديث طويل عما أطلق عليه الشعر الصوفى فى الحب الإلهى يروى أن الشعراء المحبين كانوا مصلحين اجتماعيين وأصحاب دعوات فكرية واجتماعية وهم بذلك يقصدون الحلاج وقد كشفت الأبحاث عن ولاء هؤلاء المؤامرات الباطنية على النحو الذى عرف عند القرامطة والزنج وكان الحلاج من العاملين مع القرامطة كما أثبتنا وان كثيراً من الشعر الذى عرف عن ابن الفارض وابن عطاء الله السكندرى وابن عربى داخل فى مفاهيم وحدة الوجود والحلول .

أما (رابعة العدوية) فإنها شخصية يحوم حولها كثير من الغموض والاضطراب ، والعقيدة المنسوبة إلى رابعة هى عقيدة باطلة ومخالفة للكتاب والسنة ورهبانية رابعة إن صحت فهى مخالفة لما أمر الله به رسوله ونبيه ؛

وان ما أطلق عليه مدرسة الحب الإلهى كان وهما باطلا ، وقد نسب إليها كثيراً من الخرافات والمخترعات ، واختلطت أقوالها بأقوال غيرها .

وان هناك رابعات كثير وان ما نسب إليها من الشعر والنثر منسوب لغيرها أو يظهر عليه آثار الصنعة والتكلف مما يوحى بأن كثيراً من تلك الآثار

من خول العصور التالية لعصر رابعه ، كما يقول الدكتور عمر فروخ ، كذلك فإن العقيدة المنسوبة إليها فى قولها : (إلهى ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً فى جنتك بل حباً لك) .

هذه العقيدة باطلة مخالفة لكتاب ربنا وسنة نبينا ، ولقد بين الله تبارك وتعالى السبيل إلى محبته فقال :

[قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله] .

فالمحبة لا تتم إلا بالاتباع والانقياد لله وأوامره [وخافون إن كنتم مؤمنين] .

هذه هى العقيدة الباطلة تلوكها ألسنة كثير من الناس وتجرى بها أقلام كثار الدعاة إلى الله تعالى جهلا منهم بأن مقتضاها تعطيل آيات الله تعالى التى فيها وصف النار وأصحابها وأهوالها وذكر الجنة ونعيمها وما أعد الله لعباده المخلصين

وقد وصف الله تبارك وتعالى عبادة أنبيائه وهم صفوة خلقه

[إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً]

فالرغب الرجاء والرغبة والرهب الخوف والخشية .

أما أصحاب مدرسة الحب الإلهى فهم يسمون من عبد الله خوفاً من ناره وطمعا فى جنته بالأجير السوء بل ان بعضاً منهم جعل الخوف من منازل العوام وليس من منازل الخواص ، فياليت شعرى من أى منزلة يكون الأنبياء والمرسلون .

قال ابن القيم : الخوف أحد أركان الإيمان الثلاثة ، وهما : [الخوف والرجاء والمحبة] . قال تعالى [يرجون رحمته ويخافون عذابه] .

وقال جل شأنه : [فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين]

فجعل الخوف من لوازم الإيمان وموجباته فلا نتخلف عنه [كتلبس طريق

المجرمين] ، ولهذا قيل من عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجى ومن عبده بالخوف وحده فهو حرورى ومن عبده بالحب فهو زنديق ومن عبده بالخوف والرجاء والحب فهو مؤمن موحد ، قال شيخ الإسلام عقب ذلك : ان الحب الذى ليس معه رجاء ولا خوف يبعث النفس على اتباع هواها وصاحبه إنما يحب فى الحقيقة نفسه وقد اتخذ إلهه هواه ، فهذا كان زنديقاً ، ومن هنادخلت الملاحدة الباطنية كالقائلين بوحدة الوجود فإن هؤلاء سلوكهم عن هوى ومحبة فقط ليس معه رجاء ولا خوف (كتاب جامع الرسائل)

كذلك فإن أبيات رابعة (أحبك حبين حب الهوى . . الخ) .

ليست لها وان نسبها إليها أبو طالب المكى والغزالى والمرتضى الزبيدى إنما هما لآدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز وآدم هذا شاعر ماجن ، وهو القائل فى الخمر : (قل لمن يلحاك فيها)

واستدل الدكتور عمر فروخ بهذين البيتين على إلحاده وزندقته فكيف تتخذ أبيات هذا الزنديق أصلا لمدرسة الحب الإلهى .

كذلك فإن رفضها الزواج ونذرها نفسها لله موضع خروج عن العرف ، فالنكاح من سنن الأنبياء والمرسلين وقد نهى الإسلام عن الرهبانية والتبتل والنهى فى ذلك للرجال والنساء [ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم] لما فى ذلك من مخالفة لفطرة الله التى فطر عباده - بل جميع مخلوقاته عليها - فرهبانية رابعة إن صحت خلاف ما أمر الله تعالى ونبيه ﷺ به من النكاح فلا ينبغى السكوت عن هذا فكيف بسياقها مساق المدح والفخر ، كذلك فإن هناك فرق بين أنها لم تتزوج وبين أنها ماتت بتولا عذراء فقد كانت جارية اشتريت وحكم الجوارى والتسرى بين معروف فى موضعه من كتب الفقه والأحكام (. . . .)

وقد أشار بعض الباحثين إلى خطأ ما نسب إلى الرسول ﷺ مما أطلق عليه حديث (من أحب وعف) والعشق مصطلح لا يعرفه الإسلام وعبودية القلب لغير الله زيغ ، ولم يكن العشق واحداً مما يطلق عليه الشهادة في سبيل الله ، والعشق إفساد للروح كل إفساد وقلب العاشق متعبد لمعشوقه ، ولفظ العشق لم يعرف عن النبي هذا اللفظ قط ومعناه فراغ القلب من الله وتمليكه لغيره [وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى) .

وكيف يكون تعبد القلب بغير الله ومع غيره يمكن أن تنال منه درجة القرب .

الباب السادس عشر

الفن في طريق العودة إلى المنابع

(١)

يقول الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق : لقد وقف الإسلام من الفنون الجميلة موقفاً يختلف عن موقف الأديان السابقة عليه فهو لم يستخدمها في دعوته كما فعلت الديانة المسيحيه ولم ينكرها كما أنكرتها اليهود ، ولكنه اثر فيها ببعض توجيهاته ونظمه . لقد وقف على طبيعة الإنسان وعلم مايضطرب بين جنبيه من النزعات وما ركب فيه من الغرائز والميول ، فلم يحاول كبتها بالتزامه الوقوف عند حد الضروري اللازم لبيانه ، بل تركه يلبس ماينطوى على نفسه من غرائز السمو دون أن يعترض سبيله أو يحد من نشاطه فمهد له سبيل الوصول إلى أقصى ماقدر له من التقدم المادى ، ولفت نظره إلى مايحيط به من المخلوقات وشحذ قوة الملاحظة وهى عماد الفن الجميل وذكره بالحياة الدنيا وما لها عليه من الحق [ولا تنس نصيبك من الدنيا] وبصره بما في الوجود من زينة (قل من حرم زينة الله) الآية .

هذا التسامح في كل ما يتصل بمناهج الحياة مادامت لا تتعارض مع اصوله في شيء وما دامت لا تخرج عن دائرة الاعتدال دفع المسلمين إلى الإقبال على الفنون الجميلة بنفس راضية مطمئنة .

أما ماذا كيف وجه الإسلام الفن إلى معرفة الله تبارك وتعالى فيقول : لقد وجه الإسلام الفنان المسلم إلى رسم الوحدات الزخرفية وتوزيعها والتأليف بينها وتنسيقها تنسيقاً يجعلها تبدو كأنها اخترعت أول مرة ، ولكنه صهرها في بوتقته ومزجها بفلسفته وسلط عليها أشعة متشابكة ، متداخلة متلاصقة ، متباعدة ، وبعث في هذا النوع من الزخرف ، روحاً من لدنه ، لم يبتكر وحدات نباتية أو حيوانية بل رسم الأزهار والأشجار والأوراق والسيقان والطيور والحيوان بعد أن حورها تحويراً كادت معه أن تفقد شخصيتها كوحدات نباتية أو حيوانية ولكنها وإن بعدت عن الطبيعة فقد دلت على سعة خيال مبدعها

وصفاء قريحته ولا شك أن إتقان الزخرفة الهندسية ، وتحوير العناصر النباتية والحيوانية ، وتكرار الوحدات الزخرفية ، والنفور من الفراغ ، كان فى الغالب نتيجة توجيهات من الدين الإسلامى »

قال ابن عباس للرسام : « إن أبيت إلا أن تصنع فعليك بهذا الشجر وكل شىء ليس فيه روح » وقد بلغت الزخارف النباتية آية فى الإبداع والإتقان وإن كانت بعيدة عن تمثيل الطبيعة تمثيلا صحيحاً فى معظم الأحيان على أن البعد عن الطبيعة لم يكن نتيجة لضعف فى الملاحظة أو نقص فى المقدرة بل هو فى أغلب الظن مقصود لذاته ولعله ناشىء عن تلك العقيدة التى يؤمن بها كل مسلم أشد الإيمان .

ذلك أن البقاء لله وحده وأن العالم بمن فيه وما فيه مآله إلى الزوال : [كل شىء هالك إلا وجهه] ، [كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام] فليس من اللائق وهذه العقيدة منقوشة فى أذهان المسلمين جميعاً أن يخلد رجل الفن منهم بأعماله الفنية ما كتب الله عليه الفناء ، لذلك لم يعنوا بتصوير الشخصيات العظيمة فى لوحات أو تماثيل ضخمة أو تمثيل جمال الطبيعة بالنقل عنها نقلا صحيحاً بل يأخذون من عناصرها مايرون ويهذبون ماشاءت لهم ميولهم . ثم يكونون من هذه العناصر المهذبة زخرفة لا تمت إلى الطبيعة بصلة قوامها أغصان متشابكة بتفريغ بعضها من بعض وأوراق أشجار متنامة يخرج بعضها مع بعض وأزهار وفواكه تنبت من الأوراق أحياناً ومن الأغصان أحياناً وهى فى مجموعها تعطى منظراً ترتاح له العين ويسر به الفؤاد وكان الفنان المسلم حريصاً على أن يخرج زخرفته بحيث لا يستقر النظر فيها على شىء معين يترك فى الذهن صورة واضحة تحتل بؤرة الشعور ، أما هدف هذه الفكرة فهى رغبته فى الحيلولة بين نفسه وبين الغرور الذى يتملك الفنان أحياناً عند مايتأمل أثره الفنى ويدرك أنه استطاع أن يرسم بريشته مايضاهى خلق الله ، كما أنه أيضاً مد أمن استغراق الناظر لذلك الأثر الفنى فى جمال منشىء مبدع الكائنات وهو يتأمل ماصنعه الإنسان .

وهو حين جمع عناصر الطبيعة من حيوان ونبات وجماد كأنه فى عمله هذا يرى أن المخلوقات كلها سواء يستوى لديه الحيوان والإنسان والنبات والجماد باعتبار أنها لا تثبت على صورة واحدة بل تتغير من حالة إلى حالة وليس لها جميعها إلا وجود زائل سائر إلى الفناء بينما الخالق وحده هو الحق الباقى الذى لايعتوره تغير ولا يلحقه فناء .

ذلك أن الآيات القرآنية تشير إلى أن الثبات وعدم التغير هى من صفات الحق وحده دون مخلوقاته التى من شأنها التغيير : قال تعالى

[فلما جن عليه الليل] إلى آخر الآيات [إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين] .

لقد حرم الإسلام الصور المجسمة ، أما الصور المسطحة فقد انقسموا حيالها إلى قسمين قسم يرى حرمتها وقسم يرى إباحتها ، ولم ينظر سواد المسلمين إلى التصوير نظرة الارتياح ، لذلك لم يكن مجالا لنشاط أغلب فنانيهم ، على أن الذين ترخصوا فيه زاولوا رسم الأحياء فى كل العصور الإسلامية تقريباً .

(٢)

لماذا لا يعود المسرح إلى المنابع ويقوم على مفهوم الإسلام !

ذلك هو السؤال ، فإن المسلمين منذ دخل المسرح إلى بلادهم واستمتعوا به كوسيلة من وسائل التسلية مازالوا يعدونه منفرضاً للفطرة والأصالة ، لأنه يستمد مفهومه من بيئة أخرى ولا يخضع لمفهوم الإسلام الحقيقى ولقد كشف كثير من الباحثين عن حقيقة موقف الإسلام من المسرح .

يقول الدكتور الحاى فى كتابه (العرب وفن المسرح)

ان الدين الإسلامى قدم تصوراً كاملا للوجود والكون وحدد العلاقات بين الناس بعضهم البعض وبين علاقتهم بإله واحد ، وكان الإسلام عقلانيا إنسانياً تخطى بالعرب مرحلة القومية إلى العالمية ، وتخطى بدائية التفكر الدينى إلى ارتفاع به إلى مستوى العقل البشرى والمتحضر ، لم يكن تاريخ الإسلام

مقتصراً على العرب بل تعداه إلى العالم أجمع وهو لم يحو فكر العرب فقط وإنما تعداه إلى احتواء أقوم ما فى الفكر البشرى فى منطقة الشرق الأوسط ، وكان واقعياً فى نظرته للإنسان والوجود والكون ، وكانت هذه النظرة الواقعية ووضوحها من أهم العوامل التى أوقفت النمو الشعائرى وكانت شعائره فى معظمها شعائر فردية بين الفرد وربه ، وكان الأداء الجماعى الشعيرة لا يمثل سيطرة لها وإنما يمثل عملية تجميع اجتماعى للبشر لترتفع به العلاقات بينهم إلى الإخوة المتعاونة .

وهكذا نجد أن التحديد الإسلامى الشعيرة كان من العوامل الهامة فى عدم نمو شعيرة أسطورية ينمو المسرح من خلالها وكذلك كانت تصفية الإسلام للإنسان من العناصر البطولية الخارقة للعادة مانعا كبيراً دون خلق الأسطورة ومن ثم لم تظهر الأسطورة فى العصور الإسلامية ، ولم تظهر الملحمة فى العصور الإسلامية لأن الحاجة إليها لم تكن قد وجدت فالبطولة كانت حية معاشة ولم تكن حلماً يحلم به العربى ، وكان الفارس سيد مجتمعه ، وكان العقل العربى يقظا يسجل البطولة ولا يبعدها عن الواقع .

ومن هنا كان هذا يعنى أن هذه الأمة ليست فى حاجة إلى هذا الفن ومن ناحية أخرى فإن إرادة المسلم هى دائما جزء من إرادة الله ولذلك فهى لا تقع فى دائرة الصراع التى وقعت فيها الأمم الأخرى ، كالصراع بين الإنسانية والحكم الإلهى (برمثيوس) مثلا ، والصراع الذى يجعل الإنسان يصطدم بنظام المجتمع الذى يعيش فيه (مسرحة أنتجون مثلا) أو الصراع الذى يمكن أن نسميه متحركا حيث يتصادم الإنسان مع التاريخ وضد القضاء والقدر (مسرحية الفرس) والصراع الذى يجعل الإنسان فى صراع مع نفسه (مسرحية أوديب)

هذه الصراعات التى قام عليها المسرح اليونانى كما يقول الدكتور محمد عزيزه لا توجد فى بيئة الإسلام ، أو فى بيئة الديانات التى تقول بإله واحد ، إلا أن طبيعة الديانة المسيحية التى فصلت بين الأمور الدينية والتربوية فى المدنية المسيحية قد خلقت الصراع أما فى الإسلام فقد أذابت الحياة الاجتماعية الفرد فى الجماعة

وترتب على ذلك غياب الصراع داخل المجتمع فلم تكن مثل تلك الحال تستدعى (الدراما) التى تعمد فى جوهرها على الصراع بين الإلهية والأفراد وبين الفرد والآخر . ان الانتماء المطلق من الإنسان المسلم إلى مجتمعة تؤدى إلى أن الفردية وهى مصدر كل صراع داخلى تبدو مستحيلة لديه وبالتالى فإن الصراعات النفسية والفردية نتيجة نحو الذوبان فى بوتقة التصرفات الجماعية ومن هنا فإن علينا أن ننظر إلى مايسمونه الدراما الإسلامية اليوم بحذر شديد فإن كتابه يخشى أن يكونوا قد وقعوا فى أسر التغريب .

ومن ناحية أخرى هناك الخطأ الكبير فى إخضاع وقائع التاريخ الإسلامى الفن فقد استباح القصاصون لأنفسهم الحق فى تحوير معالم التاريخ أو تغيير الوقائع لتحقيق غاية معينة يهدف إليها كاتب القصة فى سبيل استعمال التاريخ لخدمة هدفه سواء أكان ماركسيا أو رأسماليا أم وجوديا ، فقد كشفت الأبحاث التى أجريت على دراسات القصة والمسرحية إنها استخدمت لخدمة هدف سياسى أساساً وأنها استباحت لنفسها الإغضاء عن كثير من وقائع التاريخ أو تحويرها فى سبيل الغرض ، ولذلك كان الفكر الإسلامى يؤمن بالتاريخ والترجمة الذاتية والترجمة الغيرية والرحلة على أنها تمثل وقائع ثابتة وحقائق صحيحة غير قابلة التحوير أو التغيير ، أما كتابة القصة فهى عمل تحول بينه وبين أن يكون سليما وصادقاً أمران : المؤلف بأهوائه الشخصية واتجاهاته الذاتيه فى النظر إلى المجتمع فى القصة أو إلى التاريخ فى القصة التاريخية أو خضوعه لمذهب معين يجرى استغلال كتابة القصة لخدمته . وفى ضوء هذا ننظر إلى هذه القصص التى كتبها أمثال فتحى غانم ، ونعمان عاشور ، ويوسف إدريس وكلها ذات طابع ماركسى وتهدف لخدمة غايات واضحة .

والسؤال هو : كيف يستطيع القصاص أن يدرس المجتمعات ويعرف تياراتها الصحيحة والمنحرفة ويقدمها القارىء الاستفادة منها .

آفاق البحث

ص

رقم الإيداع

١٩٨٤ / ٥٠٤٢